كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

من

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مقالات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

ألقسم الأول

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال

(عن كليَّات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْخطَابَةُ فِي اللُّغَةِ كَالْخِطَابِ وَهِيَ الْمُكَالَمَةُ اوِ اللَّفظُ الْمتَوَاضعُ عَلَيهِ الْمَقْصُودُ بِهِ اِفهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطلَقُ عَلَى الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ الْموَجَّهِ نَحْوَ الْغَيْرِ لِلإِفهَامِ. وَعِنْدَ الْحكَمَاء الْخطَابَةُ هِيَ الْقِيَاسُ الْمُفِيدُ تَرْغِيبَ الْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى الْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ انْ

يستعمل في ذلك من المقالات. ولما ظهر ارسطو في يونان وهذب مباحث المنطق ورتب مسائله وفصوله وجعله اول العلوم الحكمية وفاتحتها جعل الخطابة احد اقسامه الثمانية. وهذه الاقسام تشتمل على ثمانية كتب اربعة منها في صورة القياس وهي كتب المقولات والعبارة والقياس والبرهان واربعة في مادته وهي كتب الجدل والسفسطة والخطابة والشعر. وذلك ان المطالب التصديقية على انحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه وهو تشتمل عليه الكتب الاربعة الاولى. ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهذا تشتمل عليه الكتب الاربعة الاخرى. وفيها تدخل الخطابة. وترجمت كلها في الملة الاسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس. ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة كلها. ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وحصروا مطالبه في كتب خمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها الماما واغفلوها كان لم تكن هي المهم المعتمد في الفن. واما الذي يشتمل عليه كتاب الخطابة فهو تعريف المقاييس الخطابية البلاغية النافعة في مخاطبات الجمهور على سبيل المشاورات والمخاصمات في المشاجرات او المدح او الذم او الحيل النافعة في الاستعطاف والاستمالة والاغراء وتصغير الامر وتعظيمه ووجوه المعاذير والمعاتبات ووجوه ترتيب الكلام في كل قصة وخطبة

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قال) الخطابة هي قوة تتكلف الاقناع الممكن في كل واحد من الاشياء المفردة. ونعني (بالقوة) الصناعة التي تفعل في المتقابلين. وليس تتبع غايتها فعلها ضرورة. ونعني (بتتكلف) اي تبذل مجهودها في استقصاء فعل الاقناع الممكن في ذلك الشيء الذي فيه القول وذلك يكون بغاية ما يمكن فيه. ونعني بقوله: (في كل واحد من الاشياء المفردة) اي في كل واحد من الاشياء المفردة الموجودة في مقولة من المقولات العشر (١). وهذا هو الفصل الذي تنفصل به هذه الصناعة عن سائر الصنائع التي يظن انها قد تقنع في الامور التي تنظر فيها. وذلك ان كل صناعة انما هي معلمة اي مبرهنة ومقنعة في الجنس الذي تنظر فيه لا في جميع الاجناس. مثال ذلك ان الطب انما يعلم على طريق

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنهُ القول وأُبرز فيهِ الحكم من الاجناس العالية المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس. والمقولات عشر: الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون له والموضوع)

البرهان ويقنع في الصحة والمرض وفي انواعهما . وكذلك الهندسة انما تعلم على طريق البرهان وعلى طريق الاقناع في الاعظام والاشكال التي توجد في الاجسام . واما الخطابة فهي تتكلف الاقناع في جميع الاشياء في اي مقولة كانت واي جنس كان ولذلك ليس تنتسب الى جنس خاص

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قال) ان صناعة الخطابة تناسب صناعة الجدل . وذلك ان كليهما يؤمان غاية واحدة وهي مخاطبة الغير اذ كانت هاتان الصناعتان ليس يستعملهما الانسان بينه وبين نفسه كالحال في صناعة البرهان بل انما يستعملهما مع الغير وتشتركان بنحو من الانحاء في موضوع واحد اذ كان كلاهما يتعاطى النظر في جميع الاشياء ويوجد استعمالهما مشتركا للجميع اعني كل واحد من الناس يستعمل بالطبع الاقاويل الجدلية والاقاويل الخطبية . وانما كان ذلك كذلك لانه ليست واحدة منهما علما من العلوم مفردا بذاته وذلك ان العلوم لها موضوعات خاصة ويستعملها اصناف من الناس خاصة . ولكن من جهة ان هذين (اي الخطابة والجدل) ينظران في جميع الموجودات وجميع العلوم تنظر في جميع الموجودات فقد

توجد جميع العلوم مشاركة لهما بنحو ما . واذا كانت هاتان الصناعتان مشتركتين فقد يجب ان يكون النظر فيهما لصناعة واحدة وهي صناعة المنطق

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

ورأى من رأى ان استعمال جميع الاشياء التي لها تأثير في التصديق في تثبيت الاشياء التي يراد تثبيتها بطريق الخطابة هو الصواب . وخليق ان استعمل احد هذا القانون ان يكون باستعماله بصيرا في هذه الصناعة لبيبا اديبا . وقد يدل على ان الامور التي من خارج ليس لها كبير جدوى في هذه الصناعة ان الذي يروم ان يثبت شيئا بين يدي الحكام فهو اما ان يثبت ان الشيء موجود او غير موجود فقط اعني انه كان او لم يكن . وذلك اذا حدد صاحب الشريعة ان ذلك الشيء الذي فيه الشكوى عظيم او يسير وانه عدل او جور . واما ان يثبت الامرين وذلك اذا لم تحدد الشريعة ذلك الشيء الذي فيه الكلام . فاما استعمال الانفعالات في تثبيت ان الامر جور او عدل فغير ممكن . وذلك ان الانفعال بالرحمة او البغضة انما يكون لشيء جزئي والعدل

والجور امور كلية. واما استعمالها في ان الامر كان او لم يكن فله في ذلك تأثير لكنه ليس يوجب ان الامر كان او لم يكن بالذات بل انما يميل الحكام الى ان يقولوا انه صدق فيما ادعى او لم يصدق ومن غير ان يحدث للحاكم او المناظر بذلك تصديق زائد بالشيء الذي فيه الكلام

(قال) وقد يجب ان تكون السنن هي التي تحدد ان الامر جور او عدل وتفوض ان الامر وجد من هذا الشخص او لم يوجد الى الحكام. وبالجملة فتفوض اليهم الامور اليسيرة وذلك لشيئين: (الاول) انه قل ما يوجد حاكم يقدر ان يميز الامور على كنهها فيضع ان هذا الامر جور وهذا عدل الا في الاقل من الزمان واكثر الحكام الموجودين في المدن ليس لهم هذه القدرة. (والثاني) فلان الوقوف على ان الشيء عدل او جور يحتاج فيه واضع السنن الى زمان طويل وذلك لا يمكن في الزمان اليسير الذي يقع فيه التناظر في الشيء بين يدي الحكام. فلمكان هذين الامرين يصعب ان يفوض الى الحكام ان هذا الامر عدل او جور نافع او ضار بل انما يفوض اليهم ان الامر وقع من هذا الشخص او لم يقع وذلك لبيانه ولانه امر لا يمكن ان يضعه صاحب السنة

البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قال) وللخطابة منفعتان احداهما ان يحث الخطيب المدنيين على الاعمال الفاضلة. وذلك انهم بالطبع يميلون الى ضد الفضائل العادلة فاذا لم يضبطوا بالاقاويل الخطبية غلبت عليهم اضداد الافعال العادلة. وذلك شيء مذموم يستحق فاعله التأنيب والتوبيخ اعني الذي يميل الى ضد الافعال العادلة او المدبر الذي لا يضبط المدنيين بالاقاويل الخطبية على الفضائل العادلة التي هي فضائل بين الانسان وبين غيره اعني بينه وبين المشارك له في اي شيء كانت الشركة لا بينه وبين نفسه. (والمنفعة الثانية) انه ليس كل صنف من اصناف الناس ينبغي ان يستعمل معهم البرهان في الاشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها. وذلك اما لان الانسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحق فاذا سلك به نحو الاشياء التي نشأ عليها سهل اقناعه. واما لان فطرته ليست معدة لقبول البرهان اصلا. واما لانه لا يمكن بيانه له في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منه وقوع التصديق فيه. فلهذا قد نضطر الى ان نحصل التصديق بالمقدمات المشتركة بيننا وبين المخاطب اعني

بِالْمَحْمُودَاتِ. وَهٰذِهِ الْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ فِيهَا صِنَاعَةَ الْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهٰذِهِ الصِّنَاعَةُ يُمْكِنُهَا الْاِقْنَاعُ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعًا كَمَا يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ. وَذٰلِكَ أَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي الْجَانِي أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَّا نَفْعَلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ الْأَنْفَعِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُثْبِتُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَنَا بِهٰذِهِ الْقُوَّةِ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَهَاتَانِ الْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ عَلَى الْاِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِالطَّبْعِ وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْاِقْنَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْاِقْنَاعِ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي الْآخَرِ بَلِ الْاِسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْاِقْنَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى السَّوَاءِ. فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي الْأَشْيَاءَ الَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ الْاِقْنَاعِ عَلَى السَّوَاءِ لٰكِنْ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ الْأَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلَ وَأَبْلَغَ... فَقَدِ اسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنْ تُقْنِعَ وَلَا بُدَّ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ يَتْبَعُ فِعْلَهَا الْاِقْنَاعُ ضَرُورَةً كَمَا يَتْبَعُ فِعْلَ النَّجَّارِ وُجُودُ الْكُرْسِيِّ ضَرُورَةً إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ. بَلْ عَمَلُهَا هُوَ أَنْ تَعْرِفَ جَمِيعَ الْمُقْنِعَاتِ فِي الشَّيْءِ وَتَأْتِيَ بِهَا فِي ذٰلِكَ الشَّيْءِ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ اِقْنَاعٌ. وَالْحَالُ فِيهَا فِي هٰذَا الْمَعْنَى كَالْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ صِنَاعَةِ الطِّبِّ. فَإِنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهَا الْإِبْرَاءَ وَلَا بُدَّ. بَلْ إِنَّمَا فِعْلُهَا أَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غَايَةَ الشَّيْءِ الْمُمْكِنِ فِعْلُهُ فِي ذٰلِكَ الشَّيْءِ الْمَقْصُودِ بِالْإِبْرَاءِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي أَفْعَالِ هٰذِهِ الصَّنَائِعِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا مِثْلَ أَنْ يُبْرِئَ مَنْ لَيْسَ بِطَبِيبٍ وَيُقْنِعَ مَنْ لَيْسَ بِخَطِيبٍ لٰكِنَّ الْفِعْلَ الْحَقِيقِيَّ إِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ الصِّنَاعَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ الْغَايَةَ تَتْبَعُ فِعْلَ هٰذَا عَلَى الْأَكْثَرِ وَذٰلِكَ عَلَى الْأَقَلِّ. وَكَمَا أَنَّ فِي الْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ وَهُوَ الْقِيَاسُ السُّوفِسْطَائِيُّ كَذٰلِكَ فِي الْأَقَاوِيلِ الْمُقْنِعَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنِعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ كَذٰلِكَ. لٰكِنْ لَمَّا كَانَ السُّوفِسْطَائِيُّ لَيْسَ إِنَّمَا يَكُونُ سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ الْقُوَّةِ وَالْمَلَكَةِ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ الْأَقَاوِيلَ السُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ الْأَقَاوِيلِ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرَاتِ الْخَارِجَةِ وَذٰلِكَ لِإِيهَامِهِ أَنَّهُ حَكِيمٌ وَكَانَ الْجَدَلِيُّ إِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِالْمَلَكَةِ الْحَاصِلَةِ لَهُ عَنِ الصِّنَاعَةِ فَبِالْوَاجِبِ لَمْ تَكُنِ الْأَقَاوِيلُ السُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ الْجَدَلِ أَعْنِي الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقَايِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

إِذَا ٱسْتَعْمَلَتْ نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْغَايَـةِ . وَأَمَّا إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱمْتِحَانِ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْهَا . وَأَمَّا ٱلْخَطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خَطِيبًا مِنْ أَجْلِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مِثْلَ ٱلْكَرَامَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ سَائِرِ ٱلْخَيْرَاتِ أَوْ مِنْ قِبَلِ مَلَكَةِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كَانَتِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . لِأَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ قَدْ يَكُونُ بِعَيْنِهِ مَقْصُودَ ٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلَّذِي يُرَادُ إِقْنَاعُهُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْفِعْلُ أَوِ ٱلِٱنْفِعَالُ فَإِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ حُصُولُهُ عَنْ أَقَاوِيلَ هِيَ مُقْنِعَةٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ أَوْ عَنْ أَقَاوِيلَ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ . فَإِنْ كَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِ أَوِ ٱلِٱنْفِعَالُ خَيْرًا مَا لَهُ لَا لِلْخَطِيبِ كَانَتِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُقْنِعَـةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ دَاخِلَةً فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ إِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ ٱلسَّفْسَطَةِ. وَإِنْ كَانَ مَقْصَدُ ٱلْخَطِيبِ خَيْرًا يَنَالُهُ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يَقْصِدُهَا ٱلسُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَلَيْسَ بِمُقْنِعٍ مِنْ جِهَـةِ مَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِذْ قَدْ يُشَارِكُ ٱلْخَطِيبُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّ فِي غَايَتِـهِ . فَلِذٰلِكَ قَدْ تَدْخُلُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَـةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ أَنْحَاءِ ٱلْبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا إِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صِنْفَيِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ أَحَدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْإِرْشَادُ . وَأَكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلِٱعْتِذَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّـةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلِٱتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلِٱعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَفْعَـلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلِٱتِّفَاقِ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ أَتَمَّ وَأَفْضَلَ . وَهٰذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْـلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا أَنْ تُثْبَتَ أَجْزَاءُ هٰـذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلِٱعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ

الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قالَ معمرٌ ابو الاشعثِ قلتُ لِبهلةَ الهنديّ ايّامَ اجتلبَ يحيى ابنُ خالدٍ اطبّاءَ الهندِ: ما البلاغةُ عندَ اهلِ الهندِ. قالَ بهلةُ: عِندَنا في ذلكَ صحيفةٌ مكتوبةٌ ولكنَّني لا احسنُ ترجمتَها ولمْ اعالجْ هذهِ الصناعةَ فاثقَ مِنْ نفسي بالقيامِ بخصائصِها ولطيفِ معانيها. (قالَ ابو الاشعثِ) فتلقّيتُ تلكَ الصحيفةَ المترجمةَ فاذا فِيها: اوّلُ البلاغةِ اجتماعُ آلةِ البلاغةِ وذلكَ انْ يكونَ الخطيبُ رابطَ الجأشِ ساكنَ الجوارحِ متخيّرًا للفظِ لا يكلّمُ سيّدَ الامّةِ بكلامِ الامّةِ والملوكَ بكلامِ السوقةِ ويكونُ في كلامهِ التصرّفُ في كلِّ طبقةٍ ولا يدقّقُ المعاني كلَّ التدقيقِ ولا ينقّحُ الالفاظَ كلَّ التنقيحِ ويصفّيها كلَّ التصفيةِ ويهذّبها كلَّ التهذيبِ ولا يفعلُ ذلكَ حتى يصادفَ حكيمًا وفيلسوفًا عظيمًا. ومَنْ تعوّدَ حذفَ فضولِ الكلامِ واسقاطَ مشتركاتِ الالفاظِ ونظرَ في صناعةِ المنطقِ على جهةِ

الصناعةِ والمبالغةِ فيها لا على جهةِ الاعراضِ (١) والتصفّحِ ولا على وجهِ الاستطرافِ والتظرّفِ (٢) لها. (قالَ) واعلمْ انّ حقَّ المعنى انْ يكونَ الاسمُ لهُ طبقًا وتلكَ الحالُ وفقًا ولا يكونَ الاسمُ فاضلًا ولا مقصّرًا ولا مشتركًا ولا مضمّنًا ويكونَ تصفّحُهُ لمصادرِ كلامِهِ بقدرِ تصفّحِهِ لمواردِهِ ويكونَ لفظُهُ مونقًا ومعناهُ نيّرًا واضحًا ومدارُ الامرِ على افهامِ كلِّ قومٍ بقدرِ طاقتِهِمْ والحملِ عليهِمْ على قدرِ (٣) منازلِهِمْ وانْ تواتيَهُ آلتُهُ ويتصرّفَ معهُ اداتُهُ ويكونَ في التهمةِ لنفسهِ معتدلًا وفي حسنِ الظنِّ اودعها تهاونَ الآمنينَ وانْ تجاوزَ مقدارَ الحقِّ في التهمةِ ظلمها واودعها ذلَّ المظلومينَ ولكلِّ ذلكَ مقدارٌ منَ الشغلِ ولكلِّ شغلٍ مقدارٌ منَ الوهنِ ولكلِّ وهنٍ مقدارٌ منَ الجهلِ

فقولُهُ: (اوّلُ البلاغةِ اجتماعُ آلةِ البلاغةِ) اي اوّلُ آلاتِ البلاغةِ جودةُ القريحةِ وطلاقةُ اللسانِ وذلكَ منْ فعلِ اللهِ تعالى لا يقدرُ العبدُ على اكتسابهِ لنفسهِ واجتلابهِ لها. ومنَ الناسِ مَنْ اذا خلا بنفسهِ واعملَ فكرَهُ اتى بالبيانِ العجيبِ والكلامِ البديعِ المصيبِ واستخرجَ المعنى الرائقَ وجاءَ باللفظِ الرائعِ. واذا حاورَ وناظرَ قصّرَ وتاخّرَ فحقُّ هذا انْ لا يتعرّضَ لارتجالِ الخطبِ ولا يجاري اصحابَ البدايهِ في ميدانِ القريضِ ويكتفي بنتائجِ فكرِهِ والناسُ في

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرّف
(٣) ويروى في اقدار

وَٱلإفحام . وَبَلَغَكَ مَا اصَابَ عُثمَانَ بنَ عَفَّانَ اوَّل مَا صَعِدَ ٱلمِنبَرَ فَارْتُجَ عَلَيهِ فَقَالَ : اِنَّ ٱلَّذَيْنِ قَبْلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا ٱلمَقَامِ مَقَالًا وَانتُم اِلَى اِمَامٍ عَادِلٍ اَحوَجُ مِنكُم اِلَى اِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأتِيكُمُ ٱلخُطبَةُ عَلَى وَجهِهَا . وَصَعِدَ بَعضُ ٱلعَرَبِ مِنبَرًا بِخُرَاسَانَ فَارْتُجَ عَلَيهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَاِن لَم اَكُن فِيكُم خَطِيبًا فَاِنَّنِي بِسَيفِي اِذَا جَدَّ ٱلوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِن حُسنِ ٱلاعتِذَارِ عِندَ ٱلارتِتَاجِ مَا اَخبَرَنَا اَبُو اَحمَدَ عَن دَاوُدَ بنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (اَمَّا بَعدُ) امتَنَعَ عَلَيهِ ٱلكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : اَمَّا بَعدُ فَقَد يَجِدُ ٱلمُعسِرُ وَيَعسِرُ ٱلمُوسِرُ وَيَفُلُّ ٱلحَدِيدُ وَيَقطَعُ ٱلكَلِيلُ . وَاِنَّمَا ٱلكَلَامُ بَعدَ ٱلاِفحَامِ كَالاِشرَاقِ بَعدَ ٱلظَّلَامِ وَقَد يَعزُبُ ٱلبَيَانُ وَيَعتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَاِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضغَةٌ مِنَ ٱلاِنسَانِ يَفتُرُ بِفُتُورِهِ (١) اِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِانبِسَاطِهِ اِذَا ارتَجَلَ . اَلَا وَاِنَّا لَا نَنطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسكُتُ حَصَرًا بَل نَسكُتُ مُعتَبِرِينَ وَنَنطِقُ مُرشِدِينَ . وَنَحنُ بَعدَ ذٰلِكَ اُمَرَاءُ ٱلقَولِ فِينَا وَشَجَت اَعرَاقُهُ وَعَلَينَا عَطَفَت اَغصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَت ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنهُ مَا احلَولَى وَعَذُبَ وَنَطرَحُ مِنهُ مَا امَّلَوَّحَ وَخَبُثَ . وَمِن بَعدِ مَقَامِنَا هٰذَا مُقَامٌ وَمِن بَعدِ اَيَّامِنَا اَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفسِ ٱلخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنطِقِهِ . قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعفَرُ بنُ يَحيَى جَأشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعفَرُ بنُ يَحيَى اَنطَقَ ٱلنَّاسِ قَد جَمَعَ ٱلهُدُوَّ

(١) ويروى : يعثر بعثوره

صِنَاعَةِ ٱلكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنهُم مَن اِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ اَبلَغَ وَاَجَادَ وَاِذَا كَتَبَ وَاَملَى اَخَلَّ وَتَخَلَّفَ . وَمِنهُم مَن اِذَا اَملَى بَرَّزَ وَاِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ . وَمِنهُم مَن اِذَا كَتَبَ اَحسَنَ وَاِذَا حَاوَرَ وَاَملَى اَسَاءَ . وَمِنهُم مَن يُحسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلحَالَاتِ وَمِنهُم مَن يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَاَحسَنُ حَالَاتِ ٱلمُسِيءِ ٱلاِمسَاكُ وَاَحسَنُ حَالَاتِ ٱلمُحسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَاِنَّ ٱلاِكثَارَ يُورِثُ ٱلاِملَالَ وَقَلَّ مَا يَنجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلعَيبِ وَٱلخَطَلِ . وَلَيسَ يَنبَغِي لِلمُحسِنِ فِي اَحَدِ هٰذِهِ ٱلفُنُونِ ٱلمُسِيءِ فِي غَيرِهِ اَن يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحسِنٌ فِيهِ اِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَاِنِ اضطُرَّ فِي بَعضِ ٱلاَحوَالِ اِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصدُ ٱلاِختِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلاِكثَارِ وَٱلاِهذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكثُرَ ٱلعَيبُ فِي مَنطِقِهِ . وَقِيلَ لِابنِ ٱلمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلقَصَائِدَ . قَالَ : لَو اَطَلتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ اَنَّ ٱلمُحدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلقَدِيمِ فِي ٱلقَلِيلِ مِنَ ٱلكَلَامِ فَاِذَا طَالَ اختَلَّ فَعُرِفَ اَنَّهُ كَلَامٌ مَولُودٌ عَلَى اَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلبَلَاغَةِ اِذَا كَثَّرَ سَقَطَ فَكَيفَ ٱلمُقَصِّرُ عَن غَايَتِهَا وَٱلمُتَخَلِّفُ عَن اَمَدِهَا . وَمِن تَمَامِ آلَاتِ ٱلبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعرِفَةِ ٱلعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلاِستِعمَالِ لَهَا وَٱلعِلمِ بِفَاخِرِ ٱلاَلفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعرِفَةِ ٱلمَقَامَاتِ وَمَا يَصلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنهَا مِنَ ٱلكَلَامِ فِي غَيرِ ذٰلِكَ

وَقَولُهُ : (وَهُوَ اَن يَكُونَ ٱلخَطِيبُ رَابِطَ ٱلجَأشِ سَاكِنَ ٱلنَّفسِ) هٰذَا لِاَنَّ ٱلحَيرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلحُبسَةَ وَٱلحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلاِرتِتَاجِ .

والتسهل والجزالة والحلاوة ولو كان في الارض ناطق يستغني عن الاشارة لكانه

وقوله : (متخير الالفاظ) فلان مدار البلاغة على تخير اللفظ وتخيره اصعب من جمعه وتأليفه. وقوله : (ويكون في قوله فضل التصرف في كل طبقة) وهو ان يكون صانع الكلام قادرا على جميع ضروبه متمكنا من جميع فنونه لا يعتاص عليه قسم من اقسامه فان كان شاعرا تصرف في وجوه الشعر مديحه وهجائه ومراثيه وصفاته ومفاخره وغير ذلك من اصنافه. ولاختلاف قوى الناس في الشعر وفنونه ما قيل : كان امرؤ القيس اشعر الناس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب والاعشى اذا طرب . وكذلك الكاتب ربما تقدم في ضرب من الكتابة وتأخر في غيره وسهل عليه نوع منها وعسر نوع آخر واخبر احمد بن يوسف قال : امرني المأمون ان اكتب الى النواحي في الاستكثار من القناديل في المساجد. فبت لا ادري كيف احتذي فاتاني آت في منامي فقال : قل فان في ذلك عمارة للمساجد وانسا للسابلة واضاءة للمتهجدين ونفيا لمكامن الريب وتنزيها لبيوت الله جل وعز من وحشة الظلم. فانتبهت وقد انفتح لي ما اريد فابتدأت بهذا واتممت عليه. والمقدم في صنعة الكلام هو المستولي عليه من جميع جهاته المتمكن من جميع انواعه وبهذا فضلوا جريرا على الفرزدق وقالوا : كان له في الشعر ضروب لا يعرفها الفرزدق. وسئل

بعضهم عن ابي نواس ومسلم فذكر ان ابا نواس اشعر لتصرفه في وجوه الشعر وكثرة مذاهبه فيه. (قال) ومسلم جار على وتيرة لا يتغير عنها. وابلغ من هذه المنزلة ان يتفنن صانع الكلام في قوله اي يأتي مرة بالجزل واخرى بالسهل فيلين اذا شاء ويشتد اذا اراد. ومن هذا الوجه فضلوا جريرا على الفرزدق وابا نواس على مسلم . . .

وقوله : (ولا يكلم سيد الامة بكلام الامة ولا الملوك بكلام السوقة) لان ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام . وقد احسن الذي قال : لكل مقام مقال. وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقي والمملوك والاعجمي بالفاظ اهل نجد ومعاني اهل السراة . كابي علقمة اذ قال لحجامه : اشدد لقصب الملازم وارهف ظبات المشارط وامر المسح واسحل الرشح وخفف الوطء وعجل النزع ولا تكرهن آبيا ولا تمنعن آتيا . فقال له الحجام : ليس لي علم بالحروب . واخبر ابو المغازل الضبي عن ابيه قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم الا بالغريب فخرج الى ضيعة له على حجر معها مهر . فافلتت فذهبت ومعها مهرها فخرج يسأل عنها فمر بخياط فقال : يا ذا النصاح وذات السم الطاعن بها في غير وغى لغير عدى هل رأيت الخيفانة القباء يتبعها الحاسن المسرهف (١) كان

(١) ويروى : الحالس المرهف

غُرَّتهُ ٱلْقَمَرُ ٱلْأَزْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَٱلْخُلَّبِ ٱلْأَجْرَدِ (١). فَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ أَطْلُبُهَا فِي بَرٍّ لَخَّا (٢). فَقَالَ: وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ قَبَّحَكَ ٱللهُ فَمَا أَعْلَمُ رَطَانَتَكَ. فَقَالَ: لَعَنَ ٱللهُ أَبْغَضَنَا لَفْظاً وَأَخْطَأَنَا مَنْطِقاً

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُدَقِّقَ ٱلْمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ) قَالَ أَبُو هِلَالٍ: لِأَنَّ ٱلْغَايَةَ فِي تَدْقِيقِ ٱلْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْمِيَتِهِ وَتَعْمِيَةُ ٱلْمَعْنَى لُكْنَةٌ إِلَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ ٱلْإِلْغَازُ وَكَانَ فِي تَعْمِيَتِهِ فَائِدَةٌ مِثْلُ إِثْبَاتِ (٣) ٱلْمَعَانِي وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱسْتَعْمَلُوهَا وَكَنَوْا بِهَا عَنِ ٱلْمُرَادِ لِبَعْضِ ٱلْغَرَضِ. فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ ٱلْإِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ أَوْ صِفَةِ شَيْءٍ فَأَتَى بِإِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي ٱلْإِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلْإِفْصَاحِ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُنَقِّحَ ٱلْأَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ) فَتَنْقِيحُ ٱللَّفْظِ أَنْ يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي ٱلْإِسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ٱلْوُزَرَاءِ: أَحْسَنَ ٱللهُ إِبَانَتَكَ. فَقَالَ لَهُ ٱلْوَزِيرُ: عَجَّلَ ٱللهُ إِمَاتَتَكَ. وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيحِ ٱللَّفْظِ ٱسْتِعْمَالُ وَحْشِيِّهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ. وَقَدْ أَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً ... بِنَهْكَةِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱسْتَبْشَعُوا (ٱلْحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلْخُلُقِ وَقَالُوا: لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهُ. قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: رَأَيْتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلْكَلَامَ فَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

(١) وفي رواية: ينير في خضره كالخلَّب الاخرز (٢) ويروى: في تمر بلخ
(٣) وفي رواية: ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيَهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبَهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقّاً لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثاً مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَغِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ

وَقَوْلُهُ (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيماً وَفَيْلَسُوفاً عَظِيماً وَمَنْ

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرِّد عنّاً

تعوّد حذف فضول الكلام، ومشتركات الألفاظ ومن نظر في المنطق على جهة الصناعة فيها لا على جهة الاستطراف والتطرّف لها) فنقول ينبغي أن يتكلّم بفاخر الكلام، ونادره ورصينه ومحكمه عند من يفهمه عنه ويقبله منه ممّن عرف المعاني والألفاظ علمًا شافيًا لنظره في اللغة والإعراب والمعاني على جهة الصناعة لا كمن استطرف شيئًا منها فنظر فيه نظرًا غير كامل أو أخذ من أطرافه وتناول من أطراره فتحلّى باسمه وخلا من وسمه. فإذا سمع لم يفقه وإذا سئل لم يثق وإذا تكلّم عند من هذه صفته ذهبت فائدة كلامه وضاعت منفعة منطقه. لأنّ العامّي إذا كلّمته بكلام العليّة سخر منك وزرى عليك. كما روي عن بعضهم أنّه قال لبعض العامّة: بم كنتم تنتقلون البارحة (يعني على النبيذ). فقال: بالحمّالين. ولو قال له: (أيش كان نقلكم) لسلم من سخريته. فينبغي أن يخاطب كلّ فريق بما يعرفون ويتجنّب ما يجهلون

وأمّا قوله: (من تعوّد حذف فضول الكلام الخ) هو أن يسقط من الكلام ما يكون الكلام مع إسقاطه تامًّا غير منقوص ولا يكون في زيادته فائدة). وذلك مثل ما روي عن معاوية أنّه قال لصحار العبدي: ما البلاغة فقال: أن تقول فلا تخطئ وتسرع فلا تبطئ. ثمّ قال: أقلني هو أن (لا تخطئ ولا تبطئ). فألقى اللفظتين لأنّ في الذي أبقى غنى عنهما وعوضًا منهما.

فأمّا إذا كان في زيادة الألفاظ فائدة فذلك محمود وهو من باب التذييل. وقوله: (ومشتركات الألفاظ) فهو أن يريد الإبانة عن معنى فيأتي بالألفاظ لا تدلّ عليه خاصّة بل يشترك معه معانٍ أخر فلا يعرف السامع أيّها أراد. وربّما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس حتّى لا يوقف على معناه إلّا بالتوهّم. فمن الجنس الأوّل قول جرير:

لو كنت أعلم أنّ آخر عهدكم ... يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

فوجه الاشتراك في هذا أنّ السامع لا يدري إلى أيّ شيء أشار من أفعاله في قوله: (فعلت ما لم أفعل) أأراد أن يبكي إذا رحلوا أو يهيم على وجهه من الغمّ الذي لحقه أو يتبعهم في المضيّ على عزمة الرحيل أو يأخذ منهم شيئًا يتذكّرهم به أو يدفع إليهم شيئًا يذكرونه به أو غير ذلك ممّا يجوز أن يفعله الخليل عند فراق أحبّته. فلم يبن عن غرضه وأحوج إلى أن يسأله عمّا أراد فعله عند رحيلهم. وليس هذا كقولهم: (لو رأيت عليًّا بين الصفّين). لأنّ دليل البسالة والنكاية في هذا الكلام بيّن وأمارة النقصان في بيت جرير واضحة فمن يسمعه وإن لم يكن من أهل البلاغة يستبرده ويستغثّه ويسترجح الآخر ويستجيده. ومثله قول سعيد بن مالك الأزدي:

فإنّك لو لاقيت سعد بن مالك ... للاقيت منه بعض ما كان يفعل

فلم يبن عمّا أراد بقوله: (للاقيت) أخيرًا أراد أم شرًّا إلّا

ان تسمع ما قبله وما بعده فيتبين معناه واما في نفس البيت فلا يتبين مغزاه . ومثله قول ابي تمام :

وقمنا فقلنا بعد ان اودع الثرى   به ما يقال في السحابة تقلع

فقول الناس في السحاب اذا انقلع على وجوه فمنهم من يمدحه ومنهم من يذمه ومنهم من كان يحب اقلاعه ومنهم من يكره اقشاعه على حسب ما كانت حالاتها عندهم ومواقعها منهم فلم يبين بقوله معنى يعتمده السامع . على ان المحتج له لو قال : ان اكثر العادة في السحاب ان يحمد اثره ويثنى عليه بعده لما كان مبعدا . ولم ارد عيب ابي تمام بما قلت وانما اردت الاخبار عن وجوه الاشتراك وذكر ما يتشعب منه وما يقرب من بابه وينظر اليه من قريب او بعيد . ومن اللفظ المشترك قول ابي نواس :

وخبز ما يخبز من آخر   منه وللطابن امهار (١)

الامهار ها هنا جمع مهر من قولهم : مهر يمهر مهرا . والمصادر لا تجتمع ولا يشك سامع هذا الكلام انه يريد جمع مهر فيشكل المعنى عليه . وخطب بعض المتكلمين فقال في صفة الله تعالى : لا يقاس بالقياس ولا يدرك بالالماس . اراد جمع لمس فاصاب السجع واخطأ المعنى . واما ما بينهم فلا يعرف معناه الا بالتوهم . ومن الكلام الخالي من الاشتمال قول بعضهم لاخ له اراد فراقه :

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نواس :

وخبز ما يخبز من بعده   منه وللطابن امهار

لما تصفحت اخلاقك فوجدتها مباينة لمشاكلتي زائغة عن قصد طريقتي صرت عليها رياضة لنفسي على الصبر لمساوئ اخلاق المعاشرين ولعلمي بكامن العدوان في جميع العالمين . والذي رجوت من مرمة خصالك بما اقابلها به من التجاوز واسحب عن سوء آثارها اذيال التغاضي . وانت مع ذلك لا تقوم اعوجاج مذاهبك ولا يعطف بك الرأي على رشدك . فلما فنيت حيلتي فيك وانقطعت اسباب املي منك ورأيت الداء لا يزيد على التعهد بالدواء الا فسادا والخرق على الترقيع الا اتساعا قدمت اليأس منك على الرجاء فيك فاحتسبت ايامي السالفة في استصلاحي لك

وقوله : (وحق المعنى ان يكون له الاسم طبقا) اي يكون الاسم طبقا للفظ بقدر المعنى غير زائد عليه ولا ناقص عنه فكان كالطبق على الاناء لا ينقص منه شيء

وقوله : (ولا يكون الاسم فاضلا ولا مقصرا) فهذا داخل في الاول من قوله : وحق المعنى ان يكون له الاسم طبقا . ومثال الفاضل من اللفظ عن المعنى قول عروة بن اذينة :

واسق العدو بكأسه واعلم له   بالغيب ان قد كان قبل سقاكها
واجز الكرامة من ترى ان لو له   يوما بذلت كرامة لجزاكها

ومعنى هذا الكلام محصور تحت ثلاث كلمات : اجز كلا بفعله . وكان السكوت لعروة خيرا منه . ومن الكلام الفاضل عن معناه قول ابي العيال الهذلي .

ذَكَرْتُ اَخِي فَعَاوَدَنِي   صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ اِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ اِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ   ٱلنُّوكِ مِمَّنْ رَامَ كَدًّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) اَلتَّضْمِينُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْاَوَّلُ مُفْتَقِرًا اِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْاَوَّلُ مُحْتَاجًا اِلَى ٱلْاَخِيرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

كَأَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى   بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ اَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ   تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى اِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْاَعْيَادِ بِاَجْزَلِ ٱلْاَقْسَامِ وَاَوْفَرِ ٱلْاَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْاَنْصَافَ وَٱلْاَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَاِدْخَالُكَ اِيَّاهُ فِي اَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ اِلَّا قَوْلَهُ : (وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ

البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

اَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا اَشْيَاءُ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِاحْتِجَاجِ بِٱلْاَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْاِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا . فَاَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَنْوَاعٍ : (اَحَدُهَا) اِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا اَهْلًا اَنْ يُصَدَّقَ وَاَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَاَعْضَائِهِ شَأْنُهَا اَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلتُّؤَدَةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي اَرِسْطُو بِٱلْكَيْفِيَّةِ . وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ اَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي ٱلشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَسُّوهَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ. فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَفِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا أَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ أَو وَهَمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ مُمْكِنًا أَنْ يَهِمَ فِيهِ ٱلْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدَّقُونَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْخَطَابَةِ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْأَنَاةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ ٱلِٱنْفِعَالِ فَقَطْ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِي يَكُونُ بِأَنْ يَكْسَبَ ٱلسَّامِعُ بِٱلْقَوْلِ ٱنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِٱلشَّيْءِ وَإِقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ ٱلْفَرَحِ أَوِ ٱلْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذٰلِكَ إِذَا كُنَّا فِي حَالِ ٱلسُّخْطِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوْ حَالِ ٱلرِّضَا عَنْهُ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكَلَّمَ فِيهَا أُولَائِكَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُقْنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتِ ٱلتَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُقْنِعَ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ. (وَثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْفَضَائِلِ. (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ (١) وَذٰلِكَ بِأَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ. وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ أَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ. وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا إِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي أَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لٰكِنْ إِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱلْيَقِينِ

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة. وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)

الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاول

في ان الخطيب لا بد له للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

من اجل انه معلوم ان الاشياء المنسوبة الى هذه الصناعة انما يقصد بها التصديق والاعتراف من المخاطب بالشيء الذي فيه الدعوى وذلك لا يكون الا بتثبيت الشيء عند المعترف به. وذلك انا انما نعترف بالشيء الذي راينا انه قد ثبت عندنا والشيء الذي تثبت به الاشياء على طريق الخطابة هو الضمير (١) لان هذا هو اصل التصديق وعموده في الامور التي توقع هذا النحو من التصديق اعني التصديق البلاغي. والضمير هو نوع من القياس ومعرفة القياس جزء من صناعة المنطق فقد يجب ان يكون صاحب المنطق هو الذي ينظر في هذه الصناعة اما في كلها واما في اجزاء منها. وبين ان الذي يعرف القياس من كم شيء يلتئم ويكون ومتى يكون فهو اقدر على عمل الضمير ممن يعرف الضمير فقط دون ان

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدرت احدى مقدمتيه اما الكبرى واما الصغرى

يعرف القياس الذي هو جنسه. والذي يزيد على هذا فيعلم لماذا تعمل الضمائر والفصول التي بين الضمير وبين سائر المقاييس التي تستعمل في الصنائع الاخر فهو اقدر من ذينك. والمعرفة بهذا كله انما هو لصناعة المنطق. فان للقوة الواحدة بعينها اعني للصناعة الواحدة بعينها ان تعرف الشيء الذي هو حق والذي هو شبيه بالحق والتصديقات الخطبية وان لم تكن حقا فهي شبيهة بالحق وايضا فان الناس متهيئون بطبيعتهم كل التهيئة نحو الوقوف على الحق نفسه. وهم اكثر ذلك يؤمونه ويفعلون عنه. والمحمودات وهي التي تكون منها الضمائر شبيهة بالحق من قبل انها نائبة عند الجمهور مناب الحق. والشبيه بالحق قد يدخل في علم الحق الذي هو علم المنطق. واذا كان الامر هكذا فقد استبان ان قصور هؤلاء فيما تكلموا فيه من امر الخطابة انما كان من اجل انه لم يكن عندهم علم بالمنطق وان سائر من تكلم في الخطابة ومن يستعمل الاقاويل الخطبية فقط من غير ان يتقدموا فيعرفوا هذه الاشياء التي هي عمود البلاغة انهم انما يتكلمون في اشياء تجري من البلاغة مجرى التزيين والتنميق الذي يكون في ظاهر الشيء وصفحته لا في الاشياء التي تتنزل منها منزلة ما به قوام الشيء ووجوده وان كان قد يظن بما فعلوا من ذلك انهم قد بلغوا الغاية من الاقاويل الاقناعية وجروا في ذلك على طريق الصواب والعدل

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمه (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ اَلْمُوَصِّلُ اِلَى اَلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ اَلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ اَلنَّظَرِ فِيهِ اِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ اَلْإِدْرَاكُ اِمَّا تَصَوُّرًا اَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا اَلْمَطْلُوبُ. فَاِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَاِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمُلُ اَلظَّنِّيَّ وَاَلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِاَلْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى اَلظَّنِّيُّ اِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ اَلْمَعْلُولِ عَلَى اَلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال : (الطريق) اي ما يقع فيهِ النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحدُّه) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقًا بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ. وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل بهِ اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لهُ. واراد بالنظر فيهِ ما يعمُّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالَم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا. ويتناول ايضًا التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم تؤخذ مع ترتيبها . واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلُّ مَا كَانَ اَلْقَوْلُ اَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ اَكْثَرَ مُؤَاتَاةً وَتَاَتِّيًا لِاَنْ يُسْتَعْمَلُ فِي اَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ اَقَلَّ عُمُومًا كَانَ اَحْرَى اَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ. وَلِذَلِكَ كَانَتِ اَلْمَوَاضِعُ مِنَ اَلْقِيَاسَاتِ اَلْخُطَبِيَّةِ وَاَلْقِيَاسَاتِ اَلْجَدَلِيَّةِ. وَذَلِكَ اَنَّ اَلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ اَلْاُمُورَ اَلْمَنْطِقِيَّةَ وَاَلطَّبِيعِيَّةَ وَاَلسِّيَاسِيَّةَ اَعْنِي اَلْاِرَادِيَّةَ. وَذَلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ اَلْاَقَلِّ وَاَلْاَكْثَرِ (*) فَاِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصورًا او تصديقًا فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر. (فان كان) المطلوب (تصورًا سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفًا) . (وان كان) المطلوب (تصديقًا سمي) طريقهُ (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالغيم الرطب الموصل الى ظن المطر. (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضًا مع التخصيص الاول (بما يكون) الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا انيًّا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لِمِّيًّا

تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا بَلْ فِي جَمِيعِهَا إِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْجُزْئِيَّةِ مِثْلُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَلَا ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَإِذَنِ ٱلْمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ إِذْ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرَ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تَلْتَئِمُ مِنْهَا ٱلصِّنَاعَةُ ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعُ مَخْصُوصَةٌ بِهَا. لٰكِنَّ ٱلْأَنْوَاعَ ٱلَّتِي نَحْنُ عَازِمُونَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْخُطْبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خُطْبِيَّةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ ٱلْمَعْمُولَةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَكْثَرُ ذٰلِكَ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي تُحَدَّدُ بَعْدُ

المبحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ ٱلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا إِلَى خَارِجٍ إِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا ٱلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلطَّرِيقُ ٱلْمُوصِلُ إِلَى ٱلْمَطْلُوبِ ٱلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا أَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا أَيْضًا عِنْدَ ٱلْأُصُولِيِّينَ. وَذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبُ ٱلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ ٱلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ ٱلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ ٱلْمَلْزُومَاتِ ٱلْبَيِّنَةِ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِٱللَّوَازِمِ فَإِنَّ ٱلِٱكْتِسَابَ إِنَّمَا هُوَ بِٱلنَّظَرِ. وَقَالَ ٱلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي ٱلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ ٱلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ ٱلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَإِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ ٱلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ: إِنَّ ٱلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ ٱلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ وَٱلْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلْحَيَوَانِ ٱلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِٱلْخَاصَّةِ وَحْدَهَا أَوْ بِهَا وَبِٱلْجِنْسِ ٱلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلضَّاحِكِ أَوْ بِٱلْجِسْمِ ٱلضَّاحِكِ أَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تعريف الانسان: انه ماش على قدميه عريض الاظفار بادي البشرة مستقيم القامة ضحاك بالطبع. وصرحوا بان المساواة شرط لجودة الرسم وجوزوا الرسم بالاعم والاخص وايد ذلك بان المعرف لا بد ان يفيد التميز عن بعض الاغيار كما يقتضيه تعريفهم للمعرف بما يستلزم معرفته. فان المعرفة تقتضي التميز في الجملة. واما التمييز عن جميعها فليس بشرط لان التصورات المكتسبة كما قد تكون بوجه خاص بالشيء اما ذاتي او عرضي كذلك تكون بوجه عام ذاتي او عرضي. فيجب ان يكون كاسب كل منهما معرفا فالمساواة شرط للمعرف التام دون غيره حدا كان او رسما

قال الايجي: (*) المعرف تجب معرفته قبل المعرف فيكون غيره او اجلى منه فلا يعرف بما لا يعرف الا به بمرتبة او اكثر.

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول: (المعرِف تجب معرفته قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفته طريق الى معرفته وسبب لها فلا بد ان تتقدمها. (فيكون غيره) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منه لم يكن معلوماً قبله. (فلا يعرَّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا به) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك: الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة. (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك: الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمان مقدار الحركة. (ولا بد) اشارة الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) به (التميز). (اذ لولاه)

ولا بد ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل التميز اذ لولاه لدخل فيه غير المعرف فلم يكن مانعا ومطردا. او خرج عنه بعض افراده فلم يكن جامعا ومنعكسا ولا بد فيه من مميز فان كان ذاتيا سمي حدا والا سمي رسما. وعلى التقديرين فان ذكر فيه تمام الذاتي المشترك بينه وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتام والا فناقص. والمركب يحد دون البسيط فان تركب عنهما غيرهما حد بهما والا فلا. وكل كسبي له خاصة بينة يرسم والا فلا.

اي لولا كونه مساوياً (لدخل فيه غير المعرَّف) على تقدير كونه اعمَّ مطلقاً او من وجه (فلم يكن مانعاً) من دخول غير المعرف فيه (و) لا (مطرداً) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليه المعرَّف ايضاً. (او خرج عنه بعض افراده) على تقدير كونه اخص اماً مطلقاً او من وجه (فلم يكن جامعاً) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكساً) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرَّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق مما ذهب اليه المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التميز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولا يلتبس شيء منها بغيرها... (ولا بد فيه) اي في المعرِّف (من مميز) مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتياً سمي) المعرِّف (حدًّا) (والا سمي رسماً. وعلى التقديرين فان ذكر فيه تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتام) إما حد تام مركب من الجنس والفصل القريبين واما رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب. (والا فناقص) اما حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تامًّا وناقصاً (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنها) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كسبي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفُ (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتميز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرَّف (والّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فمآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذُكر مركبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا...

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ أَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ إِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسيّة

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شِرْكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ إِلَى أَجْزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ إِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا أَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ أَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصِّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام محصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخِّر الجنس فيه كان حدًّا ناقصًا فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل. (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك مما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذٍ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيرهِ. (وبالجملة فعن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

اَلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَإِمَّا إِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ. وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا إِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ. وَيُقَسَّمُ اَيْضًا إِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ: ٱلْمُسَاوَاةُ. وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا. وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ. وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ إِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا. وَإِنْ تَصَادَقَا فَإِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَإِلَّا فَإِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا: (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَإِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ. فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ

ٱلْاَنْوَاعِ فَيَجْعَلَهُ جِنْسًا تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ بَعْدَ اَنْ يَحْصُرَ جَمِيعَ اَقْسَامِهِ. وَٱلْمُرَادُ عِنْدَهُمْ بِٱلنَّوْعِ اَعَمُّ مِنْ اَنْ يَكُونَ صَادِقًا عَلَى مُتَعَدِّدٍ ذِهْنًا كَمَا هُوَ ٱلنَّوْعُ ٱلْمَعْهُودُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْمَنْطِقِ اَوْ لَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى فَرْدٍ وَاحِدٍ كَٱلْجُزْئِيِّ ٱلْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ. وَٱلْمُرَادُ بِٱلْكُلِّيِّ ٱلْجِنْسُ وَهُوَ مَا صَدَقَ عَلَى مُتَعَدِّدٍ ٱخْتَلَفَتْ حَقِيقَةُ اَفْرَادِهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

هِيَ ٱلْغَرَضُ ٱلْاَقْصَى وَرُؤْيَتُكَ ٱلْمُنَى
وَمَنْزِلُكَ ٱلدُّنْيَا وَاَنْتَ ٱلْخَلَائِقُ

فَقَدْ قَصَدَ تَعْظِيمَ مَمْدُوحِهِ فَجَعَلَ مَنْزِلَهُ ٱلَّذِي هُوَ جُزْئِيٌّ كُلِّيًّا وَهُوَ ٱلدُّنْيَا وَجَعَلَ ذَاتَهُ ٱلَّتِي هِيَ جُزْئِيَّةٌ كُلِّيَّةً وَهِيَ ٱلْخَلَائِقُ. وَاَمَّا حَصْرُ اَقْسَامِ ٱلْجُزْئِيِّ فَلِاَنَّ ٱلْعَالَمَ عِبَارَةٌ عَنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ. وَٱلْمَنْزِلُ شَامِلٌ لَهَا

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسيَّة والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

اَلْجِنْسُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلضَّرْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ اَعَمُّ مِنَ ٱلنَّوْعِ. يُقَالُ: ٱلْإِنْسَانُ نَوْعٌ وَٱلْحَيَوَانُ جِنْسٌ. وَيُرَادُ بِهِ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمَاهِيَّةُ. وَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى شَيْءٍ وَعَلَى كُلِّ مَا اَشْبَهَهُ وَبِٱلنَّظَرِ إِلَى

هٰذَا قِيلَ اَسْمُ اَلْجِنْسِ اَسْمٌ مَوضُوعٌ لِلْمَاهِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَٱلْجِنْسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْأَغْرَاضِ دُونَ ٱلْحَقَائِقِ . وَقِيلَ اَيْضاً : اَلْجِنْسُ هُوَ ٱلْمَقُولُ عَلَى اَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ . وَٱلنَّوْعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى اَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْعَدَدِ فَقَطْ كَٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا اُطْلِقَ ٱلْجِنْسُ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنْساً عِنْدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ اَوْ نَوْعاً . كَٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ . ثُمَّ اِنَّ ٱلْجِنْسَ يُقْسَمُ اِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ اِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنِ ٱلْمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ وَاحِداً فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ ذٰلِكَ ٱلْجِنْسَ فَقَطْ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي ٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَٱلْفَرَسِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَنَحْوِهَا . وَاِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ مُتَعَدِّداً فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَٱلْجِسْمِ ٱلنَّامِي بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَٱلنَّبَاتَاتِ . . وَٱلْأَجْنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَٱلْأَنْوَاعُ مُتَنَازِلَةً اِلَى اَنْ تَبْلُغَ اِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْعَالِي وَاِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْمُفْرَدُ

البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلْعِلِّيَّةَ وَٱلْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقَابُلِ كَٱلْإِمْكَانِ وَٱلْوُجُوبِ . وَتَصَوُّرُ اَحْتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ . فَٱلْمُحْتَاجُ اِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلْمُحْتَاجُ مَعْلُولًا . وَٱلْعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ . (وَٱلْاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِٱلْفِعْلِ كَٱلْهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ ٱلصُّورَةُ . وَاِنْ كَانَ بِٱلْقُوَّةِ كَٱلْخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلْمَادَّةُ . وَلَهَا اَسْمَاءٌ بِٱعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ : فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا ٱلصُّوَرُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ . وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱسْتِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ . وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يُبْتَدَأُ ٱلتَّرْكِيبُ . وَاِسْطَقِسٌ اِذْ اِلَيْهَا يَنْتَهِي ٱلتَّحْلِيلُ . وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلْمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلْمَاهِيَّةِ . (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلْفَاعِلُ . وَاِمَّا لِأَجْلِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلْجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ . وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلْوُجُودِ . وَٱلْأُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلْمُرَكَّبِ . وَٱلْغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِٱلْاِخْتِيَارِ . وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ ٱلْمُوجِبِ غَايَةً اَيْضاً تَشْبِيهاً . وَٱلْغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي ٱلْخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةٌ

العِلِّيَّةِ وَالمَعْلُولِيَّةِ . وَيُسَمَّى جَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ الشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً اَوْ مَعَ الغَايَةِ كَمَا فِي البَسِيطِ . وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ الاَرْبَعِ كَمَا فِي المُرَكَّبِ ... وَالفَرْقُ بَيْنَ العِلَّةِ وَالشَّرْطِ اَنَّ العِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ الحُكْمُ وَتَاْثِيرُهَا بِالذَّاتِ . اَمَّا الشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَاْثِيرُ المُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيُبُوسَةِ الحَطَبِ لِلاِحْرَاقِ اِذِ النَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي الحَطَبِ بِالاِحْرَاقِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاول

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا اِنْ اَغْفَلَهَا المُتَكَلِّمُ اَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا النَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ اَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ . (فَمِنْ آدَابِهِ) اَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَاِنْ كَانَتِ النَّزَاهَةُ عَنِ الذَّمِّ كَرَمًا . وَالتَّجَاوُزُ فِي المَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَالسَّرَفُ فِي الذَّمِّ انْتِقَامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَاِنْ سَلِمَ مِنَ الكَذِبِ . عَلَى اَنَّ السَّلَامَةَ مِنَ الكَذِبِ فِي المَدْحِ وَالذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا اِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّقًا . وَحُكِيَ عَنِ الاَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ اَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي اُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ اُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا اُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا . وَقَالَ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ مَسْعُودٍ : اِنَّ الرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ . قِيلَ : وَكَيْفَ ذٰلِكَ . قَالَ : يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ اللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ . وَسَمِعَ ابْنُ الرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَاَنْشَاَ يَقُولُ :

اِذَا مَا وَصَفْتَ امْرَءًا لِامْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَاقْصِدِ
فَاِنَّكَ اِنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُو ... نُ فِيهِ اِلَى الاَمَدِ الاَبْعَدِ
فَيَضْؤُلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ المَغِيبِ عَلَى المَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) اَنْ لَا تَبْعَثَهُ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ عَلَى الاِسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ اَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الوَفَاءِ بِهِمَا . فَاِنَّ مَنْ اَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَاَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ القَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ العَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا . (وَمِنْ آدَابِهِ) اِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَاِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَاِنَّ اِرْسَالَ القَوْلِ اخْتِيَارٌ وَالعَمَلَ بِهِ اضْطِرَارٌ وَلَاَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ اَجْمَلُ مِنْ اَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ . وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ : اَحْسَنُ الكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ اِلَى الكَلَامِ اَيْ يُكْتَفَى بِالفِعْلِ مِنَ القَوْلِ . وَقَالَ مَحْمُودٌ الوَرَّاقُ :

القول ما صدقه الفعل　　والفعل ما وكده العقل
لا يثبت القول اذا لم يكن　　يقله من تحته الاصل

(ومن آدابه) ان يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان كان ترغيباً قرنه باللين واللطف. وان كان ترهيباً خلطه بالخشونة والعنف. فان لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغواً والغرض المقصود لهواً. وقد قال ابو الاسود الديلي لابنه: يا بني ان كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك. ولا بكلام من هو دونك فيزدروك. (ومن آدابه) ان لا يرفع بكلامه صوتاً مستنكراً ولا ينزعج له انزعاجاً مستهجناً وليكف عن حركة تكون طيشاً وعن حركة تكون عياً. فان نقص الطيش اكثر من فضل البلاغة. وقد حكي ان الحجاج قال لاعرابي: اخطيب انا. قال: نعم لولا انك تكثر الرد وتشير باليد وتقول اما بعد. (ومن آدابه) ان يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وادبه مصون كما انه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خناً ولا يصغي الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى انكاره واذا وجد عن الفحش معرضاً كف قائله وكان اعراضه احد النكيرين كما ان سماعه احد الباعثين. وانشدني ابو الحسن

ابن الحارث الهاشمي:

تحر من الطرق اوساطها　　وعد عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن قبيح الكلام　　كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح　　شريك لقائله فانتبه

ومما يجري مجرى فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليماً وبعد الكشف والروية مستقيماً كالذي رواه الازدي عن الصولي لبعض المتكلفين من الشعراء:

انني شيخ كبير　　كافر بالله سيري
انت ربي والهي　　رازق الطفل الصغير

يريد بقوله (كافر) اي لابس لان الكفر التغطية. ولذلك سمي الكافر بالله كافراً لانه قد غطى نعمة الله بمعصيته. وقوله: (بالله سيري) يقسم عليها ان تسير. وقوله: (انت ربي) يعني ربي ولدك من التربية. والهي رازق الطفل الصغير كما انه رازق الولد الكبير. فانظر الى هذا التكلف الشنيع والتعمق البشيع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لوماً ان حسن فيه الظن او ذماً ان قوي فيه الارتياب. وقلما يكون ذلك الا من خليع بطر او مرتاب اشر

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إنّ الخطيب الحريّ بالإرشاد من قد استكملت فيه خمس خصال: (إحداهنّ) عقلٌ كاملٌ مع تجربةٍ سالفةٍ فإنّ بكثرة التجارب تصحّ الرويّة. وقد جاء في الحديث: استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا. وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد: احذروا مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدوّاً فإنّه يوشك أن يورّطك بمشورته فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل. وقيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم. قال: نحن ألف رجل وفينا حازمٌ ونحن نطيعه فكأنّا ألف حازم. وكان يقال: إيّاك ومشاورة رجلين شابٍّ معجبٍ بنفسه قليل التجارب في غيره أو كبيرٍ قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه. وقيل في منثور الحكم: كلّ شيء لا يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب. ولذلك قيل: الأيّام تهتك لك عن الأستار الكامنة. وقال بعض الحكماء: التجارب ليس لها غايةٌ والعاقل منها في زيادة. وقال بعض الحكماء: من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول. وقال أبو الأسود الديلي:

وما كلّ ذي نصحٍ بمؤتيك نصحه ... ولا كلّ مؤتٍ نصحه بلبيبِ
ولكن إذا ما استجمعا عند صاحبٍ ... فحقّ له من طاعةٍ بنصيبِ

(والخصلة الثانية) أن يكون الخطيب ذا دينٍ وتقى فإنّ ذلك عماد كلّ صلاحٍ وباب كلّ نجاحٍ ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفّق العزيمة. (والخصلة الثالثة) أن يكون ناصحاً ودوداً فإنّ النصح والمودّة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأي. وقد قال بعض الحكماء: لا تشاور إلّا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود وإيّاك ومشاورة النساء فإنّ رأيهنّ إلى الأفن وعزمهنّ إلى الوهن. وقال بعض الأدباء: مشورة المشفق الحازم ظفرٌ ومشورة غير الحازم خطرٌ وقال بعض الشعراء:

أصف ضميراً لمن تعاشره ... واسكن إلى ناصحٍ تشاوره
وارض من المرء في مودّته ... بما يؤدّي إليك ظاهره
من يكشف الناس لم يجد أحداً ... تصحّ منهم له سرائره
أوشك أن لا يدوم وصل أخٍ ... في كلّ زلّاته تنافره

(والخصلة الرابعة) أن يكون سليم الفكر من همٍّ قاطعٍ وغمٍّ شاغلٍ. فإنّ من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأيٌ ولا يستقيم له خاطرٌ. وكان كسرى إذا دهمه أمرٌ بعث إلى مرازبته فاستشارهم فإن قصّروا بالرأي ضرب قهارمته وقال: أبطأتم بأرزاقهم فأخطأوا في آرائهم. وقال صالح بن عبد القدوس:

ولا مشير كذي نصحٍ ومقدرةٍ ... في مشكل الأمر فاختر ذاك منتصحا

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلْخَامِسَةُ) اَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ ٱلْأَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَٱلْهَوَى صَادٌّ وَٱلرَّأْيَ اِذَا عَارَضَهُ ٱلْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ ٱلْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ اَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يُحْكِمُ ٱلْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي ٱلْهَوَى ذَا ٱلرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ

وَيُحْمَدُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي ٱلْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَإِذَا اسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ اَهْلًا لِلْإِرْشَادِ وَٱلْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱسْتِشَارَتِهِ اعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي ٱلْحَاجَةِ اَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّوَابِ اَقْرَبُ لِخُلُوصِ ٱلْفِكْرِ وَخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ ٱلْهَوَى وَٱرْتِفَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ: اِنَّ رَأْسَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللّٰهِ ٱلتَّوَدُّدُ اِلَى ٱلنَّاسِ وَمَا ٱسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ اَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَإِذَا اَرَادَ ٱللّٰهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ اَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ: ٱلْاِسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ ٱلْحَكِيمُ لِابْنِهِ شَاوِرْ. مَنْ جَرَّبَ ٱلْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِٱلْغَلَاءِ وَاَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ اَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ ٱلرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلْاِنْسَانِ. وَٱلْغَلْوَةُ ٱلْأُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْاِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلْأَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى اِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ اِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَسْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَزْدُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ اِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلْأَذَى. وَاِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ اِلَى ٱلدُّخُولِ فِي اَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلْأَوْصَابِ. وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ ٱلْأَتْعَابِ. فَمَا ٱلثَّدْيُ اِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ اِلَّا اِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حال الفتوة) هذا هو الدور الثاني للحياة الانسانية. والمساحة الاولى لانتشار القوى العقلية او التل الاول في طريق الاجل. ومسلك العمل. فيصعد الانسان عليه وينظر العالم بعينيه. فيراه مشهدا بديع الجمال. وملعبا تلعب به الآمال. وترقص فيه اللذات والاماني. وتحوم حوله البشائر والتهاني. فتشمله شمول هذا الظهور. وتلعب برأسه حمية هذه الامور. فيبيت سكران بالافراح. ومأخوذا برنين تلك الاقداح. فيتبسم مدى الاوقات. ولا يعلم ما الآفات. اذ يظل ملتفا بكساء الآمال. ومحتفا باوهام الاعمال. فلا ينظر الا الى ذاته. ولا يحفل الا بصفاته. هائما في ملاهي دنياه. ومتهافتا على حداثة قواه. وهكذا يهبط في وادي هذا العالم الملم. ويخبط في ذلك البحر الخضم. ولا يزال بين هبوب وانكباب. الى ان ينشله الصواب. ويدركه الشباب

(حال الشبوبية) اما الشبوبية فهي الدور الثالث للاجل. ومحل الكد والعمل. وموقع اليأس والامل. حيثما يوجد الانسان ضائعا في مفازة العمر. حائرا في تنوفة النهي والامر. فيرى نفسه قائما في وسط هذه الدنيا. ممنطقا بكافة الاشياء. ملتطما بامواج العالم واهوائه. مصروعا ومأخوذا بضجاته وضوضائه. وهكذا تنهض في قلبه ثورة الحواس. وتشب في دماغه نار الوسواس. وتصفر في سريرته ريح الاهجاس. فيندفع الى منازلة الاقدار والايام. ومقاتلة الحقائق والاوهام. فتارة تهب به الآمال الى اوج الافراح والمسرات.

وطورا تكب به الخيبات في حضيض الاتراح والحسرات. يرى العالم قريب المنال. فيندفع وراءه على متون الاهوال. حتى اذا ما ظفر بالبعض طمع بالكل. واذا فاز بالشبح رغب في الظل. فلا يكون الا مضغة في افواه المطامع. وكرة تتلقفها القوامع. وذلك انما يوجد مهبطا لحوادث الحدثان. ومسقطا لمصائب الزمان. ولا تزال زهرة هذا الشباب الزاهي بين ذبول وافترار. ولا يبرح بدر هذا العصر الباهي بين خسوف واسفرار. الى ان تنثر الشيخوخة تاج تلك الزهرة. ويصفع الهرم وجه هاتيك القمرة. حيثما يسقط الشباب من فرشه. ويرتفع المشيب على عرشه

(حال الشيخوخة) فلا يزال الانسان سائرا في طريق عمره سير المسافر في القفار. الى ان يبلغ رابع الادوار. وهو دور الدثار. هذا اذا امكنه الخلاص من لصوص الحوادث. والمناص من اسد الكوارث. ونهبة الاعراض. وقتلة الامراض. فيلبث هناك منهوكا من تعب المسير. ومضض التأثير. اذ يعود منحنيا تحت احمال الحياة واثقالها. ومرضوضا من صدمات الدنيا واهوالها. فتصمت ضوضاء حواسه وهواجسه. ويخرس رنين انفاسه ووساوسه. فيكف بصره. ويجف فكره. ويقل ذوقه. ويكثر شوقه. ويبخل حتى بالفلس. ويزيد حرصه على النفس. ويجود بالقلس. فاذا التفت الى ورائه ورأى الدنيا التي قطعها. والطرق التي تتبعها. ظهرت له الاشياء اشباح احلام. وملاعب اوهام. وكلها تجري نظيره الى الزوال.

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ. فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ. ضَحِكَ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ. أَمَّا إِذَا الْتَفَتَ إِلَى الْأَمَامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ الْأَيَّامِ. حَنَّ إِلَى الْوُجُودِ. وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ. وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ. وَالْحَاضِرُ يَرْدَعُهُ. وَالْمُسْتَقْبِلُ يُطْمِعُهُ. حَتَّى تَخْتَطِفَ يَمَامَةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ الْمَنِيَّةِ. وَتَسْلِبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَّةٍ. فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُنْيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبْرِ النِّسْيَانِ. حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ الْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا. وَتَسْتَرِدُّ الْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ الْخَطِيبَ إِذَا مَا أَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوُّنَ أَخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ أَحْوَالِهِمْ. قَالَ أَفْلَاطُونُ: لِكُلِّ أَمْرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالْتَمِسْ مِنَ الْأُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجْرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَازِ وَالْاِخْتِصَارِ. عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْنَعُ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ. إِذِ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ السِّيَاسَاتِ. وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدَّمَاتٍ مِنْهَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَهَا وَأَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ النَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ. وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ أَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. لِأَنَّ الْمَلِكَ الْأَعْظَمَ مَثَلًا وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَإِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعِمًّا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ الْفَضِيلَةِ الْفَضْلِيَّةِ إِذْ لَيْسَ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ. وَكَذٰلِكَ الْوَضِيعُ الْخَامِلُ الذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ. فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا. وَيَنْتَفِعُ الْخَطِيبُ بِاسْتِعْمَالِ السِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ... وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ أَنْفَعَ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَامَى إِلَيْهِ مِنْهَا وَأَنْ يُمْعِنَ النَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا. ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي التَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ النَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي التَّنَكُّبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ

يجب عليه ان يكون ملازماً لما هو في صدده مواظباً على ما فوض اليه ولا يخشى الملال وخصوصاً من الملوك. وان يكون مجتهداً في طلب وجوه حسان لكل ما يطلبه منهم اذ لا شيء من الامور في العالم الا وله وجهان احدهما جميل والآخر قبيح فليطلب لكل امر من اموره وجهاً جميلاً يصرفه اليه ويتكلف لذكره بحضرته فان الخطيب المفوض اليه تدبير ذلك الرئيس كالسيل المنحدر من الربوة ان اراد المرء ان يواجهه اهلك نفسه واتى عليه السيل فاغرقه. وان سعى معه وعلى جانبيه وتلطف ليصرفه الى الناحية بان يطرح في بعض جوانبه مقداراً من السدد ويطرق له من الجانب الآخر لا ينشب ان يصرفه الى حيث شاء. فينبغي له كذلك ان يستعمل مع الرئيس في صرف وجهه عما يريد صرفه عن امر يريد ان يجرى معه فيما هو جار نحوه ولا يواجهه وان كان في غاية الانبساط معه ولا يقر بما يلقي منه الى الناس مما يستقبح فسيان بين الخبر والاقرار.. وينبغي ان يتلطف كل التلطف في مثل المنافع من جهة الرؤساء بان لا يلح في السؤال ولا يدعه ولا يظهر الطمع والشره من نفسه ويجتهد في ان يطلب من الرؤساء اسباب المنافع لا المنافع انفسها.. وليجتهد في ان يظهر في كل ما يقول ويفعل انه انما يفعله زينة وجمالاً للرئيس لا لنفسه وانه يريد وجه الصلاح في خلاف ما يأتيه ويذكر له في الوقت بعد الوقت على سبيل الحكايات عن غيره والحيل اللطيفة

الناس قوتين احداهما ناطقة والاخرى بهيمية ولكل واحدة منهما نزاع غالب. فنزاع القوة البهيمية نحو اللذات العاجلة الشهوانية مثل انواع الغذاء ونزاع القوة النطقية نحو الامور المحمودة العواقب.. فعلى كل من يرشد الجمهور ويحضهم على نيل الفضائل ان لا يتغافل عن تحريضهم على ما هو اصلح لهم وان لا يهملهم فانه متى ما اهملهم تحركوا نحو الطرف الآخر الذي هو البهيمي. واذا تحركوا نحوه تشبثوا ببعض منه حتى اذا اراد ردهم عما تحركوا نحوه لحقه من النصب اضعاف ما كان يلحقه اذا لم يكن اهملهم. ونقول ايضاً ان الخطيب لا يخلو في جميع متصرفاته من ان يلقى الجمهور مائلاً الى امر محمود او امر مذموم. وله في كل واحد من الامرين فائدة وموضع رياضة للتصرف وهو ان يحاول دفع السامعين الى ذلك الامر المحمود الذي يلقاه ان وجد السبيل الى الدفع اليه وينبههم على فضيلته ويوجب عليهم التمسك بها متى وجد الفرصة لذلك. واذا يلقاه الامر المذموم فليجتهد في التحذير منه والتجنيب منه. وان لم يجد الى ذلك سبيلاً فلينبههم على الاعتبار بمن نالهم مضار مثلها. فقد ظهر ان للخطيب في جميع احواله جلها ودقها خيرها وشرها موضع الرياضة لنفسه وارشاد الجمهور. واذا تيقن ذلك فينبغي ان يقدم على سياسة الاحوال بقلب قوي ونية صادقة وصدر واسع وثقة ان ما يأتيه من ذلك وان قل يجدي عليه نفعاً يجل. ونبدأ بتعهد الخطيب للرؤساء انه

بعض ما يعرض مما هو فيه. فانه متى ما استعمل هذه الطريق لا ينشب ان يعود الحال بمراده.. وان يعلم ان للرؤساء هِمماً ينفردون بها عمن سواهم من الناس وهي انهم يعتقدون في جميع من دونهم الاستخدام والاستعباد وفي انفسهم الاصابة في جميع ما يأتون وانما يحدث هذا بهمتهم لكثرة مدح الناس لهم واطرائهم اعمالهم وتصويبهم آراءهم

فهذه قوانين ينتفع باستعمالها الخطيب في معاشر الرؤساء التي ينبغي ان يستعملها المرء مع الاكفاء فسنذكر منها جملًا ونقول ان الاكفاء لا يخلو من ان يكونوا اصدقاء او اعداء او ليسوا باصدقاء ولا اعداء. والاصدقاء صنفان احدهما الاصفياء المخلصون في الصداقة فينبغي للمتكلم ان يديم ملاطفتهم وتعهد اسبابهم واهداء ما يستحسنه وما يتيسر له اليهم في كل وقت. ويجري الحال فيما بينهم وبينه بذلك بغير ان يظهر منه ملالًا او تقصيرًا ويجتهد في الاكثار منهم غاية الجهد فان الصديق زين المرء وعضده وعونه وناصره ومذيع فضائله وكاتم هفواته ومخفي زلّاته ومهما كان هؤلاء اكثر كانت احوال الخطيب فيما بينهم احسن واقوم. والصنف الآخر اي الاصدقاء في الظواهر عن لا صدق فيما يظهرونه بل بتشبه وتصنع فينبغي للخطيب ان يعاملهم بمداراة ويحسن اليهم ولا يطلعهم على شيء من اسراره وخصوصًا من عيوبه. وليجتهد في استمالتهم والصبر معهم ومعاملتهم بحسب الظاهر

دون اخذهم بالباطن ولا يأخذهم بالتقصير فانه مهما عمل ذلك يرجى صلاحهم ورجوعهم الى مراده ولعلهم يصيرون في رتبة الاصفياء له. اما الاكفاء الاعداء فينبغي للخطيب ان يتجلد لهم ويكشف دسائسهم ودغل نياتهم. واما سائر الناس الذين ليسوا بصديق ولا عدو فهم طبقات سنذكر جلها فمنهم النصحاء الذين يتبرعون بالنصيحة فالواجب ان لا يذكر كل ما ينهى اليه ويعزم على قلبه اولًا بان لا يغتر بكل قول يسمعه بل يتأمل اقاويلهم ويتعرف اغراضهم غاية التعرف ليقف مع معرفة اغراضهم على حقيقة اقاويلهم فاذا لاح له وجه الصواب حقيقة بادر الى انفاذ الامر. ومنهم الصلحاء وهم اناس يتبرعون لاصلاح ما بين الناس فيجب على الخطيب ان يمدحهم ابدًا على ما يفعلونه وان يتشبه بهم في جميع احواله فان مذاهبهم مرضية عند كل الناس ومهما مال الخطيب اليهم عرف بالخير وحسن النية. ومنهم السفهاء فيجب على الخطيب ان لا يؤاتيهم ولا يقابلهم بما هم فيه من السفاهة بل يتلقاهم ابدًا بحلم رزين وسكون بليغ ليياسوا من منالاتهم بما هم فيه ولا يؤذوه بعد ذلك متى يلقوه بالمشاتمة فيجب ان يتلقاهم بقلة الاكتراث. ومنهم اهل الكبر والمناقشة فيجب ان يقابلهم بمثله لانه ان تواضع لهم احسوا منه بضعف وتوهموا ان فعلهم ذلك صواب وانه لا بد للناس من التواضع لهم. ومتى تكبر المرء عليهم

وكاثرهم في الاحوال وتاذوا به علموا ان الذنب في ذلك لهم ورجعوا الى التواضع

واما الذي ينبغي للخطيب ان يستعمله مع من دونه من الناس فانا نصف منه ما تيسر ونقول: فمنهم الضعفاء فيجب ان يتعهدهم بالمواساة ورقة الكلام بغاية ما امكنه من غير ان يخل باحوال نفسه. ومنهم المتعلمون فان كانوا اولي طبائع رديئة يقصدون العلوم ليستعملوها في الشرور فعلى الخطيب ان يحملهم على تهذيب الاخلاق ولا يعلمهم شيئاً يعلم انهم يستعملونه فيما لا يجب ويجتهد في كشف ما هم عليه من رداءة الطبع ليحذرهم منه. ومنهم البلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم وبراعتهم فينبغي ان يحثهم على ما هو اعود عليهم. ومنهم المتعلمون ذوو الاخلاق الطاهرة والطبائع الجيدة فيجب ان لا يدخرهم شيئاً مما عنده من العلوم... فهذه اصول وقوانين متى ما استعملها الخطيب في كلامه وقاس عليها في متصرفات اموره واسبابه استقامت به احواله ونجع في القوم كلامه

الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

ان الخلق هو حال به يفعل الانسان افعاله بلا روية ولا اختيار. والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً وفي بعض الناس لا يكون الا بالرياضة والاجتهاد. وقد يوجد في كثير من الناس بغير رياضة ولا تعلم كالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الاخلاق المحمودة وكثير من الناس من يوجد فيهم ذلك. فمنهم من يصير اليه بالرياضة ومنهم من يبقى على عادته ويجري على مسيرته. فاما الاخلاق المذمومة فانها في كثير من الناس كالبخل والجبن والتشرر فان هذه العادات غالبة على اكثر الناس مالكة لهم متسلطة عليهم بل قيل لا يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ويسلم من جميع العيوب ولكنهم يتفاضلون

في ذلك كما يتفاضلون في الاخلاق المحمودة. وقد يختلف الناس في الاخلاق المحمودة بالتفاضل الا ان المجبولين على الاخلاق الجميلة قليلون جدًّا والمبغضين لها كثيرون. فاما المجبولون على الاخلاق السيئة فاكثر الناس لان الغالب على طبيعة الانسان الشر. وذلك ان الانسان اذا استرسل مع طبعه ولم يستعمل الفكر ولا التمييز ولا الحياء ولا التحفظ في جميع اعماله كان الغالب عليه اخلاق البهائم وذلك لان الانسان انما يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز فقط فاذا لم يستعملهما كان مشاركًا لها في عاداتها والشهوات مستولية عليه والحياء غائب عنه والغضب مستقر به والسكينة غير حاضرة عنده والحرص والاحتشاد ديدنه والشره لا يفارقه. واذا كان الناس مطبوعين على الاخلاق الرديئة منقادين للشهوات الدنيئة وقع الافتقار الى الشرائع والسنن والسياسات المحمودة وعظم الانتفاع بالملوك الحسان السيرة ليردعوا الظالم عن ظلمه ويمنعوا الغاصب عن غصبه ويعاقبوا الفاجر على فجوره ويقمعوا الجائر حتى يعود الى الاعتدال في جميع اموره. اما الاخلاق المكروهة في طباع الناس فمنهم من يتظاهر بها وينقاد اليها وهم اشرار الناس. ومنهم من يتنبه بجودة الفكر وقوة التمييز على قبحها فيأنف منها ويتصنع لاجتنابها (١) وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة. ومنهم من لا يتنبه لذلك الا انه

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

اذا نبه عليه احس بقبحه فربما حمل نفسه على تركه. ومنهم من اذا تنبه الى ما فيه من النقائص او نبه عليها ورام العدول عنها تعذر عليه ذلك ولم يطاوعه طبعه ولو كان مؤثرًا للعدول عنها مجتهدًا في ذلك. وهذه الطائفة تحتاج ان ترشد الى طريق التدرب والتعلم بالعادات المحمودة حتى تصير اليها على التدريج. ومن الناس من اذا تنبه على الاخلاق الرديئة او نبه عليها فلا يحن الى تجنبها ولا تسمح نفسه بمفارقتها بل يؤثر الاصرار عليها مع علمه برداءتها وقبحها وهذه الطائفة ليس الى تهذيبها طريق الا بالقهر والعقوبة ان لم يردعها التخويف والترهيب. فاما الاخلاق المحمودة فانها وان كانت في بعض الناس غريزية فليست في جميعهم فعلى الباقين ان يصيروا اليها بالتدرب والرياضة ويرتقوا اليها بالاعتياد والتألف وقد يوجد في بعض الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة ولا الاخلاق الجميلة وذلك يكون لرداءة جوهره وخبث عنصره. وهذه الطائفة من جملة الاشرار الذين لا يرجى صلاحهم. وكثير من الناس من يقبل كثيرًا من الاخلاق المحمودة ويأنف طبعه عن بعضها فلا يعد هذا شريرًا بل تكون رتبته في الخير والتهذيب بحسب محاسنه

البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اما الاخلاق التي تعد فضائل فان منها (العفة) وهي ضبط النفس عن الشهوات وقسرها على الاكتفاء بما يقيم اود الجسد ويحفظ صحته فقط واجتناب السرف والتقصير في جميع اللذات وقصد الاعتدال . وان يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على الارتضاء به. وفي اوقات الحاجة التي لا غناء عنها وعلى القدر الذي لا يحتاج الى اكثر منه . وهذه الحالة هي غاية العفة

(ومنها ايضا القناعة) وهي الاقتصار على ما سنح من العيش والرضى بما تسهل من المعاش وترك الحرص على اكتساب الاموال وطلب المراتب العالية مع الرغبة في جميع ذلك وايثاره والميل اليه وقهر النفس على ذلك والقنع باليسير منه . وهذا الخلق مستحسن من اواسط الناس واصاغرهم فاما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحسنا منهم ولا تعد القناعة من فضائلهم

(ومنها التصون) وهو التحفظ من التبذل . فمن التصون التحفظ

من الهزل القبيح ومخالطة اهله وحضور مجالسه وضبط اللسان عن الفحش وذكر الخنا والمزح والسخيف وخاصة في المحافل ومجالس المحتشمين اذ لا ابهة لمن يسرف في المزح ويفحش فيه . ومن التصون الانقباض عن اذنياء الناس واصاغرهم ومصادقتهم ومجالستهم والتحرز من العيشة الزرية واكتساب الاموال من الوجوه الخسيسة والترفع عن طلب الحاجات من لئام الناس وسفلتهم والتواضع لمن لا قدر له والاقلال من البروز اعني الطواف من غير اضطرار والتبذل بالجلوس في الاسواق وقوارع الطرق من غير حاجة حيث ان الاكثار من ذلك لا يخلو من العيوب فان اعظم الناس قدرا كما قيل من ظهر اسمه وخفي جسمه

(ومنها الحلم) وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك وهذا الحال محمود ما لم يؤد الى ثلم جاه او فساد سياسة وهو بالملوك والرؤساء احسن لانهم اقدر على الانتقام من مغضبيهم . ولا يعد فضيلة حلم الصغير على الكبير وان كان قادرا على مقابلته في الحال فانه وان امسك عنه فانما يعد ذلك منه خوفا لا حلما

(ومنها الوقار) وهو الامساك عن فضول الكلام والعبث وكثرة الاشارة والحركة فيما يستغنى عن التحرك فيه وقلة الغضب والاصغاء عند الاستفهام والتوقف عند الجواب والتحفظ عند السرعة والمبادرة في جميع الامور . ومن قبيل الوقار ايضا الحياء وهو غض الطرف والانقباض من الكلام حشمة للمستحيين منه وهذه

العادة محمودة ما لم تكن صادرة عن عيٍّ او عجز

(ومنها الودّ) وهو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة والود مستحسن من الانسان اذا كان لاهل الفضل والنبل وذوي الوقار والابهة والمتميزين من الناس. فاما التودد الى اراذل الناس واصاغرهم واهل الخلاعة وما شابههم فمكروه جداً. وحسن الود ما نسجته على منوال مناسب للفضائل وهو اوثق الود واثبته فاما ما كان ابتداؤه اجتماعا على هزل او طلب لذة وما شابه ذلك فليس بمحمود ولا باق ولا ثابت وربما افضى الى الشر

(ومنها الرحمة) وهي خلق مركب من الود والجزع والرحمة لا يكون الا لمن يظهر منه لراحمه خلة مكروهة اما نقيصة في نفسه واما محنة عارضة له. فالرحمة هي محبة للمرحوم مع جزع من الحالة التي رحم لاجلها. وهذه الحالة مستحسنة ما لم تخرج بصاحبها عن العدل ولم تنته به الى الجور والى فساد السياسة. وليست بمحمودة رحمة القاتل عند القود والجاني عند القصاص

(ومنها الوفاء) وهو الصبر على ما يبذله الانسان من نفسه ويرهن به لسانه وعدم الخروج مما يضمنه ولو كان مفرطاً ولا يعد وفياً من لم يلحقه بوفائه اذية ولو قليلة وكلما اضر به الدخول تحت ما حكم به على نفسه كان ابلغ في الوفاء. وهذا الخلق محمود ينتفع به جميع الناس فان من عرف بالوفاء كان مقبول القول عند الناس في جميع ما يعد به ومن كان مقبولا كان عظيم

الجاه الا ان انتفاع الملوك بهذا الخلق انفع وحاجتهم اليه اشد لانه متى عرف منهم قلة الوفاء لم يوثق بمواعيدهم ولم تتم اغراضهم ولم تسكن اليهم جندهم واعوانهم

(ومنها اداء الامانة) وهو التعفف عما يتصرف الانسان فيه من مال غيره وما يوثق به عليه من الاعراض والحرم مع القدرة عليه ورد ما يستودع الى مودعه

(ومنها كتمان السر) وهذا الخلق مركب من الوقار واداء الامانة. فان اظهار السر من فضول الكلام. وليس بوقور من تكلم بالفضول والفضولي ناقص الشرف. فكما ان من استودع مالا فاخرجه الى غير مودعه قد حقر الامانة كذلك من استودع سراً فاخرجه الى غير صاحبه فقد حقر الامانة ايضاً. وكتمان السر محمود من جميع الناس وخاصة من يصحب السلطان واولياء الامور فان اخراجه اسرارهم قبيح في نفسه يؤدي الى ضرر عظيم وبلاء جسيم

(ومنها التواضع) وهو ترك الترؤس واظهار الخمول وكراهية التعظيم والزيادة في الاكرام وان يتجنب الانسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالمال والجاه وان يتحرز من الاعجاب والكبر. ولا يحمد التواضع الا من اكابر الناس ورؤسائهم واهل الفضل والعلم واما ما سوى هؤلاء فلا يكونون متواضعين بالتواضع لان الضعة هي محلهم ومرتبتهم ولو كانوا غير متضعين

(ومنها البشر) وهو اظهار السرور لمن يلقاه الانسان من اخوانه واودائه واصحابه واوليائه ومعارفه والتبسم عند اللقاء. وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو من الملوك والعظماء احسن لان البشر من الملوك والولاة تتألف به قلوب الرعية والاعوان والحاشية ويزداد به تحببا اليهم ولا يعد سعيدا من الملوك او الولاة من كان مبغضا لرعيته لان ذلك ربما ادى الى فساد امره وزوال حكمه وملكه

(ومنها صدق اللهجة) وهو الاخبار عن الشيء على ما هو عليه وهذا الخلق مستحسن ما لم يؤد الى ضرر مفرط فانه ليس بمستحسن عند الانسان ان سئل عن فاحشة كان ارتكبها فانه لا يفي حسن صدقه بما يلحقه في ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة. وكذلك ليس يحسن صدقه اذا سئل عن مستجير استجاره فاخفاه ولا ان سئل عن جناية متى صدق عنها عوقب عليها عقوبة مؤلمة. والصدق مستحسن من جميع الناس وهو من الملوك والعظماء احسن فلا يسعهم الكذب ما لم يعد الصدق عليهم بضرر

(ومنها سلامة النية) وهو اعتقاد الخير بجميع الناس وتنكب الخبث والغيلة والمكر والخديعة وهذا الخلق محمود من جميع الناس الا انه ليس يصلح للملوك التخلق به دائما وقد لا يتم الحكم الا باستعمال المكر والحيل والاغتيال مع الاعداء ولكن لا يحسن بهم استعماله مع اخصائهم واصفيائهم واهل طاعتهم

(ومنها السخاء) وهو بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق. وهذا الخلق مستحسن ما لم ينته الى السرف والتبذير فان من بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لا يسمى سخيا بل يسمى مبذرا ومضيعا. والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة واما في الملوك والاولياء فامر واجب لان البخل يؤدي الى الضرر العظيم في الاحكام. والسخاء والبذل ترتبط بهما قلوب الرعية والجند والاعوان فيعظم الانتفاع به

(ومنها الشجاعة) وهي الاقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة الى ذلك وثبات الجاش اي القلب عند المخاوف والاستهانة بالموت. وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو بالملوك واعوانهم اليق واحسن بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة. واكثر الناس اخطارا واحوجهم الى اقتحام الغمرات هم الملوك والحكام فالشجاعة اذا من اخلاقهم الخاصة بهم

(ومنها المنافسة) وهي منازعة النفس الى التشبه بالغير فيما يراه ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي الى درجة اعلى من درجته. وهذا الخلق محمود اذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية او فيما يكسب مجدا وسوددا فاما في غير ذلك من اتباع الشهوات والمباهاة باللذات والزينة وغير ذلك فمكروه جدا

(ومنها الصبر عند الشدائد) وهذا الخلق مركب من الوقار والشجاعة وهو مستحسن جدا ما لم يكن الجزع نافعا والحزن والقلق

مجديًا والاجتهاد دافعة ضرر تلك الشدائد فما احسن الصبر اذا عدمت الحيلة وما اقبح الجزع اذ لم يكن مفيدًا

(ومنها عظم الهمة) وهو استصغار ما دون النهاية من معالي الامور وطلب المراتب السامية واستحقار ما يجود به الانسان عند العطية والاستخفاف باواسط الامور وطلب الغايات والتهاون بما يملكه وبذله لمن يسأله من غير امتنان ولا اعتداد به. وهذا الخلق من خصوصيات الملوك والحكام وقد يحسن بالرؤساء والعظماء ومن تسمو نفسه الى مراتبهم. ومن عظم الهمة الانفة والحمية والغيرة. فالانفة هي بعد النفس عن الامور الدنية والحمية والغيرة معًا والغضب عند الاحساس بالنقص. وتلحق الانسان الغيرة على الحرم لان في التعرض لهن عارًا ومنقصة فان المتعرض للحرم مهتضم لصاحبها ومتصرف في غير حق له والاهتضام نقيصة ومن اعظم الهمة الانفة منه. وهذا الخلق مستحسن جدًا من جميع الناس

(ومنها العدل) وهو التقسط اللازم للاستواء واستعمال الامور في مواضعها واوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غير سرف ولا تقصير ولا تقديم ولا تأخير

البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فاما الاخلاق الرديئة التي تعد نقائص ومعائب فان منها الفجور وهو الانهماك في الشهوات والاستكثار منها وايثار اللذات والادمان عليها وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها وبالجملة السرف في جميع الشهوات. وهذا الخلق مكروه جدًا يهدم الحياء ويذهب بماء الوجه ويخرق حجاب الحشمة

(ومنها الشره) وهو الحرص على اكتساب الاموال وجمعها وطلبها من كل وجه ولو قبح طريق اكتسابها والمناوشة عليها والاستكثار من القنية وادخار الاعراض. وهذا الخلق مكروه من جميع الناس الا من الملوك والحكام فان كثرة الاموال والذخائر والاعراض تعينهم وتزيدهم هيبة في نفوس رعيتهم واعوانهم واعدائهم واضدادهم

(ومنها التبذل) وهو اطراح الحشمة وترك التحفظ والاكثار من الهزل واللهو ومخالطة السفهاء وحضور مجالس السخف والهزل والفحش والتفوه بالخنا وذكر الاعراض والمزح والجلوس في الاسواق وعلى قوارع الطرق والتكسب بالمعايش الزرية والتواضع

للسفلاء وهذا الخلق قبيح بجميع الناس

(ومنها السفه) وهو ضد الحلم وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الامور والمبادرة في البطش والايقاع بالمؤذي والسرف في العقوبة واظهار الجزع من ادنى ضرر والسب الفاحش. وهذا الخلق مستقبح من كل احد الا انه بالملوك والرؤساء اقبح منه بغيرهم

(ومنها الخرق) وهو كثرة الكلام والحركة من غير حاجة وشدة الضحك والمبادرة الى الامور من غير توقف وسرعة الجواب وهذا الخلق مستقبح من كل احد وهو باهل العلم وذوي النباهة اقبح. ومن قبيله قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه والمجاهرة بالاجوبة الغليظة الفظة المستشنعة وهذا الخلق مكروه وخاصة بذوي الوقار

(ومنها الهوى) وهو افراط الحب والسرف فيه. وهذا الخلق مكروه من جميع الناس يحمل صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش وكثرة التبذل وقلة الحياء وهو يشين الانسان كثيرا

(ومنها القساوة) وهذا الخلق مركب من البغض والشجاعة وهو التهاون بما يلحق الغير من الالم والاذى. وهذا الخلق مكروه من كل احد الا من الجند واصحاب السلاح والمتولين الحروب فان ذلك غير مكروه منهم اذا كان في موضعه

(ومنها الغدر) وهو الرجوع عما يبذله الانسان من نفسه ويضمن الوفاء به. وهذا الخلق مستقبح ان كان لصاحبه فيه مصلحة

ومنفعة. وهو بالملوك والحكام اقبح واضر فان من عرف منهم بالغدر لم يركن اليه احد ولم يثق به انسان فاذا كان كذلك فسد نظام ملكه

(ومنها الخيانة) وهي الاستبدال بما يؤتمن الانسان عليه من الاموال والاعراض والحرم وتملك ما يستودع ومجاحدة مودعه. ومن الخيانة ايضا طي الاخبار اذا ندب الانسان لتاديتها وتحريف الرسائل اذا حملها وصرفها عن وجهها. وهذا الخلق اعني الخيانة مكروه من جميع الناس ويثلم الجاه ويقطع وجوه المعاش

(ومنها افشاء السر) وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة فانه ليس بموثوق من لم يضبط لسانه ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر به والسر احد الودائع وافشاؤه نقيصة على صاحبه فالمفشي بالسر خائن وهذا الخلق قبيح جدا وخاصة بمن يصحب الملوك واولياء الامور ويتداخل معهم. ومن قبيل افشاء السر ايضا الغيبة والنميمة وهي ان يبلغ انسان انسانا عن آخر قولا مكروها وهذا الخلق قبيح جدا ولو لم يستسر ايضا بما يسمعه او يبلغه فنقله الى من يكره قبيح لان في ذلك ايقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه وذلك غاية الشر

(ومنها الكبر) وهو استعظام الانسان نفسه واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على ما يجب التواضع له. وهذا الخلق مكروه جدا ومضر بصاحبه لان

من اعجبته نفسه لم يستزد من اكتساب الادب ومن لم يستزد بقي على نقصه اذ ان الانسان لا يخلو من النقص قبل ما ينتهي الى غاية الكمال. وايضاً فان هذا الفعل يبغضه عند الناس ومن تبغضه الناس ساءت احواله

(ومنها العبوس) وهو التقطب عند اللقاء وقلة التبسم واظهار الكراهية. وهذا الخلق مركب من الكبر وغلظ الطبع. فان قلة البشاشة هي استهانة بالناس والاستهانة بالناس تكون من الاعجاب والكبر وقلة التبسم ايضاً خاصة عند لقاء الاخوان تكون من غلظ الطبع. وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والافاضل

(ومنها الكذب) وهو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه. وهذا الخلق مكروه وهو بالملوك والرؤساء اكثر قبحاً لان اليسير من النقص يشينهم

(ومنها الخبث) وهو اضمار الشر للغير واظهار الخير له رياء واستعمال الحيلة والمكر والخديعة في المعاملات وهذا الخلق مكروه جداً. (ومن قبيل الخبث الحقد) وهو اضمار الشر للجاني اذا لم يتمكن من الانتقام منه فيخفى الى وقت الفرصة وهذا الخلق من اخلاق الاشرار وهو مذموم جداً

(ومنها البخل) وهو منع المستعطي مع القدرة على اعطائه. وهذا الخلق مكروه من جميع الناس وخاصة الملوك والعظماء وذلك لان البخل يبغض منهم اكثر مما يبغض من غيرهم ويقدح

في حكمهم ويبغضهم الى رعيتهم

(ومنها الجبن) وهو توهم المخاوف وتمكينها في العقل بدون طائل وعدم الاقدام على الامور عند اللزوم والرعب من مواجهة ذوي الامر عند الاقتضاء. وهذا الخلق مكروه الا انه بالجنود واصحاب الحروب مضر جداً

(ومنها الحسد) وهو التألم مما يراه الانسان لغيره من الخير ويجده فيه من الفضائل والاجتهاد في اعدام الغير ما هو له. وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل احد

(ومنها الجزع عند الشدة) وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن. وهو مستقبح جداً اذا لم يكن مجدياً نفعاً واما اظهاره للحيلة عند الوقوع في الشدة او لاستغاثة مغيث او اجتلاب معين للمساعدة فغير مكروه ولا يعد نقيصة

(ومنها صغر الهمة) وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الامل عن بلوغ الغايات واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد بذلك والرضى باواسط الامور واصاغرها. وهذا الخلق قبيح بكل احد وهو بالملوك والعظماء اقبح بل ليس بمستحق للاعتبار من صغرت همته

(ومنها الجور) وهو الخروج عن العدل في جميع الامور كاخذ الاموال من غير وجوهها الحلال والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الاشياء في غير مواضعها ولا اوقاتها ولا على القدر

اَلَّذِي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذٰلِكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبْذِيرُ ايضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ انْ يُسَرَّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلْأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ انَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ اِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَتْ فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا اِلَى ٱلِازْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَامَّا ٱلْأَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً. لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ اِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ اِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ امَّا اِذَا كَانَ مِنْ اهْلِ ٱلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي انْ يُسَرَّ اوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْإِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ اِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْأَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَامَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَٱلشُّيُوخُ وَاهْلُ ٱلْعِلْمِ وَخَاصَّةً ٱلْخُطَبَاءُ وَٱلْوَاعِظُونَ وَرُؤَسَاءُ ٱلدِّينِ فَإِنَّ ٱلتَّصَنُّعَ بِٱلزِّينَةِ مُسْتَقْبَحٌ مِنْهُمْ وَٱلْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبْسُ ٱلْخَشِنِ وَكَرَاهِيَةُ ٱلتَّنَعُّمِ وَلُزُومُ بُيُوتِ ٱلصَّلَاةِ

(وَمِنْهَا ٱلْمُجَازَاةُ عَلَى ٱلْمَدْحِ) وَهُوَ مُجَازَاةُ مَنْ يَمْدَحُ ٱلْإِنْسَانَ وَيَشْكُرُهُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمَحَافِلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ لِأَنَّهُ يَدْعُو ٱلْمَادِحَ اِلَى ٱلِازْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكْتَسِبُ ٱلْمَمْدُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى اِلَى ٱلدَّهْرِ. وَمِنْ فَضَائِلِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ بَقَاءُ ذِكْرِهِمِ ٱلْجَمِيلِ. وَامَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ ٱلْمَدْحِ مِنَ ٱلْمَادِحِ مُوَاجَهَةً فَذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَلَقِ وَحُبُّ ٱلْمَلَقِ مَكْرُوهٌ لِكَوْنِهِ مِنْ قَبِيلِ ٱلْخَدِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. فَامَّا اِيثَارُهُمُ ٱنْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ وَمَدَائِحِهِمْ وَتَنَاوُلَ ٱلنَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ. وَمُجَازَاةُ ٱلْمَادِحِ مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَقْبَحٌ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو اِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى ايضًا اِلَى ٱلدَّهْرِ فَيُنْشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا وَذٰلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ. امَّا اصَاغِرُ ٱلنَّاسِ فَمَحَبَّتُهُمْ جَزَاءَ ٱلْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِأَنَّ ٱلْمَادِحَ اِذَا مَدَحَ ٱلدَّنِيءَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَإِذَا اجَازَهُ ٱعْتَقَدَ انَّهُ اخَذَ مِنْهُ تِلْكَ ٱلْجَائِزَةَ بِٱلْحِيلَةِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ اِذَا مُدِحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ اِلَى مُجَازَاةِ ٱلْمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا ٱلشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ اِلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَاهْلِ ٱلْمَسْكَنَةِ كَانَ ذٰلِكَ اجْمَلَ بِهِمْ وَالْيَقَ

(وَمِنْهَا ٱلزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلِادِّخَارِ وَغَيْرِهَا

وايثار القناعة بما يقيم الرمق والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها وقلة الاكتراث بالمراتب العالية واستصغار الملوك وممالكهم وارباب الاموال واموالهم. وهذا الخلق مستحسن جدًّا من العلماء ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت. فاما الملوك والعظماء فان ذلك غير مستحسن منهم ولا لائق بهم لان الملك اذا اظهر الزهد صار ناقصا اذ ان ملكه لا يتم الا باحتشاد الاموال والاعراض وادخارها ليدبر بها ملكه ويصون بواسطتها حوزته ويفتقد بها رعيته وهذا مضاد للزهد فانه اذا ترك الادخار ابطل ملكه وصار معدودا في جملة الملوك الحائدين عن طريق السياسة

فهذه الاقسام التي ذكرناها هي اخلاق جميع الناس. اما الممدوحة منها المعدودة فضائل فقلما تجتمع كلها في انسان واحد واما المذمومة منها المعدودة نقائص ومعائب فقلما يوجد انسان يخلو من جميعها حتى لا يكون فيه خلق مكروه وخاصة من يروض نفسه ويؤدبها. فان من لا يتعمل لضبط نفسه وتفقد عيوبه لم يخل من عيوب كثيرة وان لم يحس بها ولم يفطن اليها. واذا كان الحال على ما ذكرناه كان اولى الامور بالانسان ان يتفقد اخلاقه ويتأمل عيوبه ويجتهد في اصلاحها ونفيها عن نفسه ويتبع الاخلاق المحمودة ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها لان الناس انما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا فقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيّء العادات فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معائبه عيوبا اخرى. ولا يعد بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلْمَحْظُورَاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِٱلْأَمْوَالِ فَٱلْفَقِيرُ ٱلْمُعْسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ. وَبِنَاءً عَلَيْهِ يَكُونُ ٱلْغِنَى مُكْسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلْفَقْرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ. فَيُنْتَجُ مِنْ ذٰلِكَ إِذًا أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ. فَٱلْخَلِيقُ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلْآدَابِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلْمَحْمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَقْبُولًا لَدَيْهِمْ مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوَقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عَظِيمَ ٱلْجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلْعَظَمَةِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمُكْتَسَبَةِ بِٱلْأَمْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمَالَ قَدْ تَلْحَقُهُ ٱلْمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلْعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُعَظَّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفْسَهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلْمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ أَجْلِهِ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ ٱلْعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلْفَاضِلُ ٱلْمُهَذَّبُ ٱلْأَخْلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ أَجْلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ

البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

وَبِمَا أَنَّ ٱلرَّاغِبَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ ٱلْمُؤْثِرَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِ إِذَا نُبِّهَ عَلَى خُلْقٍ مَذْمُومٍ وُجِدَ فِيهِ وَأَحَبَّ ٱجْتِنَابَهُ رُبَّمَا صَعُبَ عَلَيْهِ ٱلِٱنْتِقَالُ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَرُبَّمَا لَمْ يَنَلِ ٱلتَّخَلُّصَ مِنْهُ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ أَوْ رُبَّمَا ٱسْتَحْسَنَ أَيْضًا خُلُقًا مَحْمُودًا لَا يَجِدُهُ لِنَفْسِهِ وَآثَرَ ٱلتَّخَلُّقَ بِهِ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ عَادَتُهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مُرَادِهِ. لِذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ نَرْسُمَ لِلرَّاغِبِينَ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ طُرُقًا يَتَدَبَّرُونَ بِهَا وَيَتَدَرَّجُونَ فِيهَا حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مُرَادِهِمْ مِنِ ٱعْتِيَادِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلِٱنْطِبَاعِ عَلَيْهَا وَتَجَنُّبِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلتَّفَرُّغِ مِنْهَا وَلِهٰذَا نَذْكُرُ طَرِيقَ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّعَمُّلَ لِٱعْتِيَادِهَا لِكَيْ يُمْكِنَ لِلرَّاغِبِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهَا فَنَقُولُ:

إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُقَرَّرٌ أَنَّ سَبَبَ ٱخْتِلَافِ ٱلْأَخْلَاقِ فِي ٱلنَّاسِ هُوَ ٱخْتِلَافُ قُوَى ٱلنَّفْسِ ٱلثَّلَاثِ فِيهِمْ وَهِيَ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلنَّاطِقَةُ وَأَنَّ إِصْلَاحَ ٱلْأَخْلَاقِ هُوَ تَذْلِيلُ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِنْهَا وَٱلْغَضَبِيَّةِ وَتَمْيِيزُ

(*) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكريا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيرهِ. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور مفوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عادات النفس الناطقة واستعمال المحمود من افعالها. فطريق التدرج لاستعمال العادات الجميلة والعدول عن العادات القبيحة هو التدرج في تذليل هاتين القوتين

اما النفس الشهوانية فالطريق الى قمعها ان يتذكر الانسان في اوقات شهواته وعند شدة العزم الى لذاته انه يريد تذليل نفسه الشهوانية فيعدل عما تاقت نفسه اليه من الشهوة الرديئة الى ما هو مستحسن من جنس تلك الشهوة ومتفق على ارتضائه ويقتصر عليه. فان لم تنكسر شهواته يعللها ويعدها فان سكنت انتصر والا عاود الفعل من الوجه المستحسن. فانه اذا فعل ذلك وكرره كفت النفس واذا استمر على هذا الحال الفت هذه العادة وتأنست بها واستوحشت مما سواها. وينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك واهل الورع والواعظين ويلازم مجالس الرؤساء واهل العلم. فان هؤلاء وخاصة رؤساء الذين يعظمون من كان معروفا بالعفة ويسترذلون من كان فاجرا متهتكا. فمجالسته وملازمته لهذه المجالس تضطره الى التصون والتعفف والتجمل لذوقهم لئلا يسترذلوه ويغضبوا منه ويلحق برتبة من يعظم في المحافل والمجالس. وينبغي له ايضا ان يديم النظر في كتب الاخلاق والسياسة واخبار الزهاد والرهبان والنساك واهل الورع. ويتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء والمنهمكين ومن يكثر الهزل واللعب وحينئذ يلحق برتبة ويعظم في المحافل. واكثر ما

يجب له ان يتجنب السكر فانه مما يثير نفسه الشهوانية ويقويها ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها.. وينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يقل من استماع الغناء وخاصة من النساء المتصنعات والشبان الظرفاء فان للسماع قوة عظيمة في اثارة الشهوة... اما الطعام فينبغي ان تعلم ان غايته هو الشبع لدفع الم الجوع. وفاخر الطعام ودنيئه جميعهما مشبعان فليس للمبالغة في تجويد الطعام الكثير حظ ولا فائدة. والاولى هو التوسط في انواع المآكل وان يكون من الجنس الذي نشأ عليه الانسان واعتاده والفه... وطريق التدرج الى الاقتصار في الطعام هو ان يبادر ذو الشهوة الى اي شيء وجده من المآكل فان كان المشتهى الذي تاقت نفسه اليه حلوا فالا اي حلاوة وجدها وان كان غير ذلك فالا ما يشتهيه من الطعام فانه اذا تناول الانسان من ذلك تكرارا وشبع منه سكنت شهوته وكفت نفسه بعد ذلك

وينبغي لمن احب العفة ان يكون ابدا متيقظا ذاكرا لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار في الدنيا جاعلا ذلك ديدنه وشعاره ومداوما على ذكره. فان نفسه حينئذ تبغض الشهوات الرديئة وتشتاق الى التعفف والقناعة وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها وترتاح لما ينشر عنها وما يبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها. فهذا هو طريق رياضة النفس

الى قهر القوة الشهوانية وتذليلها وقمعها اعني طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية فيما يتعلق بالشهوات واللذات الدنيئة

فاما النفس الغضبية فان طريق قمعها وتذليلها هو ان يصرف الانسان همته الى تفقد السفهاء الذين يسرع اليهم الغضب في اوقات طيشهم وحدتهم ويلاحظ تسفههم على اخصامهم وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم فانه يشاهد اذ ذاك منظرا شنيعا يأنف منه الخاص والعام وان يتذكر في اوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ووثوب اخوانه واودائه في جميع محاوراته ومعاملاته ما شاهده من اولئك . فانه اذا تفكر فيما كان استخفه منهم فتنكسر بذلك سورة غضبه ويحجم عما هم بالاقدام عليه من السب والوثوب فان لم يكف بالكلية قصر ولم ينته الى غاية الفحش

وينبغي لمن اراد ان يقهر نفسه الغضبية ان يتذكر في اوقات غضبه على من يؤذيه او يتجنى عليه انه لو كان هو الجاني ما الذي كان يستحق ان يقابل به على جنايته فانه بهذا الفعل يعتقد ان دَرَك تلك الجناية وذلك الاذى يسير . جدا فاذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني المؤذي بحسب اعتقاده خفيفة وحينئذ لا يسرف في الانتقام ولا يفحش في الغضب فمتى فعل ذلك دائما وجعله ديدنا وتفقد معايب السفهاء ومن يسرع اليه الغضب لم يبعد ان تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد اليه واذا استمر على هذا

العمل مدة صار له خلقا وعادة

وينبغي لمن رغب في تذليل قوته الغضبية ان يتجنب حمل السلاح في مجالس الشراب وحضور مواضع الفتن ومقامات الحروب وفي مجالسة الاشرار ويتجنب معاشرتهم ومخالطة الشرط فان هذه المواضع تكسب قساوة القلب وتغلظه وتعدمه الرأفة فتشتد لذلك القوة الغضبية فاذا اراد تذليلها وتسكينها يجب ان يجعل مجالسته لاهل الوقار والشيوخ والرؤساء والافاضل ومن يقل غضبه ويكثر حلمه ووقاره

وينبغي له ان يتجنب المسكر من الشراب فانه يهيج القوة الغضبية اكثر مما يهيج القوة الشهوانية . . .

وينبغي لمن اراد تذليل قوتيه الغضبية والشهوانية معا ان يستعمل في جميع ما يفعله الفكر ولا يقدم على شيء الا بعد ان يروي فيه ويجعل الفكرة واتباع الرأي ديدنه وعادته فان الرأي وجودة الفكر يقتجان له السفه وسرعة الغضب والانهماك في الشهوات واتباع اللذات . فاذا استقبح ذلك احجم عنه وعدل الى ما يقتضيه الرأي والفكر وان لم يرتدع بالكلية لا بد ان يؤثر فيه ذلك فيقتصر عما يريد التسرع اليه

وملاك الامر في تهذيب الاخلاق وضبط القوة الشهوانية والقوة الغضبية هي القوة الناطقة فان بهذه القوة تكون جميع السياسات فاذا كانت قوية متمكنة من صاحبها امكنه ان

يسوس بها قوتيه الباقيتين ويكف نفسه عن جميع القبائح ويتبع ابدا محاسن الاخلاق واذا لم تكن قوية في صاحبها كانت مغمورة خافية

فاول ما ينبغي ان يعتمده في سياسة اخلاقه هو ان يروض هذه القوة. وترويضها انما يكون بالعلوم العقلية فانه اذا نظر في هذه العلوم ودقق النظر فيها ودرس كتب الاخلاق والسياسة وداوم عليها تيقظت نفسه وتنبهت من شهواتها وانتعشت من خمولها واحست بفضائلها وانفت من رذائلها لان هذه القوة انما تضعف وتنحف اذا عدمت الفضائل والمناقب واستولت عليها الرذائل. اما اذا اقتنت الفضائل واكتسبت الآداب تيقظت من غشيتها وثارت من سكرها وقويت بعد ضعفها. وفضائل هذه القوة هي العلوم العقلية وخاصة ما دق منها فاذا ارتاض الانسان بها شرفت نفسه وعظمت همته وقوي فكره وتمكن من نفسه وملك اخلاقه وقدر على اصلاحها وانقاد له طبعه وسهل عليه تهذيبه واذعنت له القوة الغضبية والشهوانية وهان عليه قمعهما وتهذيبهما

واول ما ينبغي ان يبتدئ به من يحب سياسة اخلاقه هو النظر في كتب الاخلاق والسياسات ثم الارتياض بعلوم الحقائق فان اشرف ما يكون للنفس ادراكها حقائق الامور واطلاعها على هيئات الموجودات فمتى شرفت نفس الانسان وعلت همته رقي الى مراتب الفضل

ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها ايضا مجالسة اهل العلم ومخالطتهم والاقتداء باخلاقهم وعوائدهم وخاصة اصحاب علوم الحقائق والمتيقظون منهم المستعملون في جميع امورهم ما تقتضيه علومهم وتوجبه عقولهم

اما تمييز عادات النفس الناطقة واستعمال ما حسن فيها واطراح ما قبح فانما يمكن ويتسهل اذا راض الانسان نفسه الناطقة. فانها اذا ارتاضت بالعلوم الحقيقية وتيقظت وتشرفت انفت من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنيس بها فيهون حينئذ على الانسان تجنب ما يستكره من العادات ويغلب عليه استحسان الاخلاق الحميدة الجميلة والتخلق بها

فقد تبين من جميع ما ذكرناه ان طريق الارتياض بالاخلاق المحمودة والتصنع لاعتيادها واتباع المحمود المرضي منها وترك المذموم المستقبح وتذليل قوة الشهوة الغضبية وضبطها وقهرها هو اصلاح القوة الناطقة وتقويتها وتحليتها بالفضائل والآداب والمحاسن فان ذلك هو آلة السياسة ومركب الرياضة

ومن يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والامعان فيها وتعذر عليه ذلك فليبذل جهده في تدقيق الفكرة ومجاهدة النفس ويصور الفرق ما بين عادته القبيحة والجميلة وينظر ايهما اجدى عليه وانفع وايهما اجدر عاقبة وابقى على الايام فانه اذا صدق ما تاكدته نفسه وجد ان شهواته ولذاته انما هي مدة

وقت استعمالها فقط اما بعد مفارقتها فليست بباقية عليه ولا نافعة له ويجد عارها وشينها باقيا الى الدهر متداولا فيما بين الناس يعاب به ويزرى عليه. وكذلك في شدة الغضب والانسراع الى الانتقام والسب والفحش فمتى انحلت غمرته وسكنت ثورته تأمل امره فرأى ان ما فعله كان قبيحا ولم يجده مجديا ولا مفيدا وقد صار ما فعله وقت الغضب نقيصة يوسم بها ومعيرة يسب عليها. وربما ارتكب حال الغضب جنايات كثيرة يعاقب عليها ويؤدب من اجلها . كذلك العادات المكروهة في النفس الناطقة هي ايضا غير نافعة ولا مجدية للانسان نفعا كالحسد مثلا والحقد والخبث وامثال هذه اذ لا ينتفع بها صاحبها وان انتفع كان شر منفعة ومع ذلك فهي مضرة له لان من تشرر قصده الناس بالشر واستعدوا لاذيته وتعمدوا للاضرار به وتوقوه واحترزوا منه وكرهوا نفعه وقصروا عليه وجوه الخير.. فاذا حاسب الانسان نفسه واجاد فكرته وتمييزه علم ان الضرر في مساوئ الاخلاق اكثر من النفع بها وان الذي يعده فيها نفعا فليس هو بنفع على الحقيقة واذا كان نفعا فهو يسير جدا وغير باق ولا مستمر وان هذا اليسير الذي يعده نفعا لا يفي بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل...

وينبغي لمن اراد سياسة اخلاقه ان يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ولا يقنع منها بما دون الغاية ولا يرضى الا

باعلى درجة فانه اذا جعل ذلك غرضه كان حريا ان يتوسط في الفضائل ويبلغ فيها رتبة مرضية ان فاتته الدرجة العليا واما ان قنع بالتوسط يأمن ان يقصر عن بلوغه فيبقى في ادنى المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع ابدا في التمام.

فهذا الذي ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الاخلاق ومنهج التدرج في محمودها وكيفية تهذيبها فاذا اخذ الانسان بتدريب نفسه به واكثر من مراعاته وتعهده صارت له الفضائل ديدنا والمحاسن خلقا وطبعا

هذا وقد بقي علينا ان نذكر اوصاف الانسان التام الجامع لمحاسن الاخلاق... فنقول ان الانسان التام هو الذي لم تفته فضيلة من الفضائل ولم تشنه رذيلة من الرذائل وهذا الحد قلما ينتهي اليه انسان واذا انتهى اليه افتراضا كان اشبه منه بالناس. وذلك لان الانسان مضروب بانواع النقص مستول على طبعه ضروب الشر وبناء على ذلك فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط به كل فضيلة ومنقبة حسنة فالتمام وان كان عزيزا بعيد التناول الا انه ممكن وهو غاية ما ينتهي اليه الانسان فاذا صدقت عزيمته واعطى الاجتهاد حقه كان ممكنا له ان ينتهي الى الغاية المقصودة المتهيء هو لها تلك التي تسمو نفسه اليها

اما تفصيل ذلك هو ان يكون متفقدا لجميع اخلاقه متيقظا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ أَقَلَّ أَوْصَافِهِ . .

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُتِنَ فِي أَبْوَابِهِ وَٱجْتَهَدَ كُلَّ ٱلِٱجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ . وَمَا أَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدْرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ

الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاوّل

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرُّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ : أَمَعَاشِرَ ٱلْكُتَّابِ أَحْسِنُوا ٱلِٱبْتِدَاءَاتِ فَإِنَّهُنَّ دَلَائِلُ ٱلْبَيَانِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَأَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِإِلْقَائِهِ فَيَنْظُرَ إِلَى ٱلْغَرَضِ ٱلْمَطْلُوبِ فَيَجْعَلَ ٱلتَّحْمِيدَ أَوِ ٱلدُّعَاءَ أَوِ ٱلتَّضْمِينَ مُشْعِرًا بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْبَلَاغَةِ وَإِنَّمَا خُصَّتِ ٱلِٱبْتِدَاءَاتُ بِٱلِٱخْتِيَارِ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يَطْرُقُ ٱلسَّمْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا كَانَ ٱلِٱبْتِدَاءُ مُونِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدِ بَعْدَهُ تَوَفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِٱسْتِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعْدَهُ فَيَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيْسَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ فَيَرْغَبُونَ أَنْ يَسْتَمِعُوا مَا بَعْدَهُ لِفَهْمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْوَاعِظُونَ أَكْثَرَ ٱلِٱبْتِدَاءَاتِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ لِأَنَّ ٱلنَّفْسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

إِلَى ٱلْاسْتِمَاعِ. وَقَدْ قِيلَ: كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِٱلْحَمْدَلَةِ فَهُوَ أَبْتَرُ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْبَابِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْخُطَبِ أَوِ ٱلرَّسَائِلِ أَوِ ٱلشِّعْرِ دَالًّا عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ. إِنْ فَتْحًا فَفَتْحًا وَإِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي. وَفَائِدَتُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ بِهِ وَيَسْتَفْتِحَ ٱلْمُتَكَلِّمُ أَبْوَابَ ٱلْأَسْمَاعِ وَيَسْتَحْضِرَ ٱلْأَذْهَانَ لِلْاسْتِمَاعِ. وَهٰذَا ٱلشِّعْبُ عَظِيمُ ٱلنَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ إِلَّا لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِبَرَاعَةِ ٱلْاسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي عَنْهُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْمَجْمُوعِ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ إِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ أَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ مَجْمُوعُ ٱلْمَعْلُومَاتِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ وَٱلنِّسْبَةُ ٱلْحُكْمِيَّةُ وَٱلْحُكْمُ وَإِدْرَاكُ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ. وَٱلْقَضِيَّةُ إِمَّا حَمْلِيَّةٌ وَإِمَّا شَرْطِيَّةٌ. قَالُوا: إِنْ كَانَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ أَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلنِّسْبَةِ

الحكمية سميت شرطية والا سميت حملية. فان قولنا مثلا: (زيد نائم). قضية حملية. لان طرفيها مفردان عند التحليل ويسمى الطرف الاول من القضية الحملية وهو المخبر عنه موضوعا والثاني محمولا. وقولنا: (ان كانت الشمس طالعة فالنهار موجود) قضية شرطية. لانه اذا حذفنا (ان والفاء) الموجبتين للربط بقي: (الشمس طالعة) (والنهار موجود) وهما قضيتان. والقضية الحملية اما شخصية وهي التي يكون المحكوم عليه فيها جزئيا معينا كقولك: زيد كاتب. واما كلية وهي التي يكون المحكوم عليه فيها كليا يشمل جميع افراد الموضوع. وتكون كلاهما اما موجبة واما سالبة. وانما يحكم في القضية الشرطية على التعليق وهو وجود احدى قضيتيها معلق على وجود الاخرى او على نفيها وهي قسمان متصلة وهي التي يحكم فيها بلزوم قضية اخرى او لا لزومها وهي التي توجب التلازم بين جزئيها نحو: لو كان في السماء والارض آلهة الا الله لفسدتا. ومنفصلة وهي التي يحكم فيها بامتناع اجتماع قضيتين فاكثر في الصدق وهي التي جزءاها متعاندان نحو: العالم اما قديم او حادث. ويسمى الطرف الاول من القضية الشرطية مقدما والثاني تاليا. ولا بد من رابط بين الموضوع والمحمول

وللقضية اقسام غير هذه منها (القضية البسيطة) وهي التي حقيقتها او معناها اما ايجاب فقط نحو: كل انسان حيوان بالضرورة.

وأمّا سلبٌ فقط نحو: لا شيءَ من الانسان بحجرٍ بالضرورة. ومنها (القضيّة المركّبة) وهي التي حقيقتها ملتئمة من ايجابٍ وسلبٍ معًا نحو: كلُّ انسانٍ ضاحكٌ لا دائمًا. ومنها (القضيّة النظريّة) وهي التي يُسأل عنها ويُطلب بالدليل اثباتها في العلم. فهي من حيث انها يُسأل عنها تُسمّى مسألةً. ومن حيث يُطلب حصولها مطلبًا. ومن حيث تُستخرج من البراهين نتيجةً. ومن حيث يُبتنى عليها الشيءُ أُصولًا. ومن حيث انها منطبقةٌ على جزئيّاتٍ موضوعةٍ تتعرّف احكامها منها قاعدةً. ومن حيث يتألّف منها الحجّة مقدّمةً وقضيّةً. ومن حيث تحتمل الصدق والكذب خبرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامه وانواعه

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليّات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وأمّا القياس فهو قولٌ مؤلّفٌ من قضايا اذا وُضعت لزم عنها بذاتها لا بالعرض قولٌ آخر اضطرارًا كقولنا: العالم متغيّرٌ وكلُّ متغيّرٍ حادثٌ فانّه مؤلّفٌ من قضيّتين ولزم عنهما انّ العالم حادثٌ وهو القياس العقليّ والمنطقيّ. والقول الآخر يسمّى مطلوبًا قبل اقامة الدليل عليه. ونتيجةً بعد تركيب القياس له واقامة الدليل

عليه ويسمّى بالردف ايضًا. وموضوع النتيجة هو الحدّ الاصغر والمحكوم فيها هو الحدّ الاكبر. وما كُرّر في القضيّتين الاوليين يسمّى حدًّا اوسط. ويدعون القضيّة المشتملة على الحدّ الاكبر مقدّمةً كبرى والمشتملة على الحدّ الاصغر مقدّمةً صغرى. ومجموع المقدّمة الصغرى بالكبرى في القياس يُعرف بالضرب. ونسبة الحدّ الاوسط الى الاصغر والاكبر هو الشكل. واشكال القياس اربعةٌ لانّ الاوسط ان كان محمولًا في الصغرى موضوعًا في الكبرى فهو (الشكل الاوّل) كقولك: كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ وكلُّ ضلالةٍ في النار. وشرط انتاج هذا الشكل ايجاب الصغرى وكليّة الكبرى وهو يختصّ بانّه يُنتج الموجبة الكليّة. وباقي الاشكال لا يُنتج الموجبة الكليّة بل امّا موجبةً جزئيّةً او سالبةً. وان كان الحدّ الاوسط محمولًا في الصغرى والكبرى فهو (الشكل الثاني) كقولك: كلُّ انسانٍ حيوانٌ ولا شيءَ من الجماد بحيوانٍ فلا شيءَ من الجماد بانسانٍ. وكقول البعض: كلُّ غائبٍ مجهول الصفة وكلُّ ما يصحّ بيعه ليس بمجهول الصفة فالنتيجة كلُّ غائبٍ لا يصحّ بيعه. وشرط انتاجه اختلاف مقدّمتيه في الايجاب والسلب وكليّة كبراه ومن خواصّه انّه لا يُنتج الّا سالبةً. وان كان الاوسط موضوعًا في الصغرى والكبرى فهو (الشكل الثالث) نحو كلُّ انسانٍ حيوانٌ وكلُّ انسانٍ ناطقٌ فبعض الحيوان ناطقٌ. وشرط انتاجه ان تكون صغراه موجبة

وان تكون احدى مقدمتيه كلية ومن خواصه ان نتيجته لا تكون الا جزئية. وان كان الحد الاوسط عكس الاول بان يكون موضوعا في الصغرى محمولا في الكبرى فهو (الشكل الرابع) كقولك: كل انسان حيوان وكل ناطق انسان فبعض الحيوان ناطق

والقياس يقسم الى كامل وغير كامل فالقياس الكامل هو القياس الذي يكون لزوم ما يلزم عنه بينا عند وضعه فلا يحتاج ان نبين ان ذلك لازم عنه. والغير الكامل هو الذي يلزم عنه شيء ولكن لا يكون بينا في اول الامر ان ذلك يلزم عنه. بل اذا اريد ان نبين ذلك بين بشيء آخر لكنه غير خارج من جملة ما قيل بل اما نقيض ما قيل او عكسه تغيير شيء منه وافتراضه. والقياس اما ان يكون ما يلزمه ليس هو ولا نقيضه مقولا فيه بالفعل بوجه بل بالقوة ويسمى قياسا اقترانيا كقولك: كل جسم مؤلف وكل مؤلف محدث سمي به لاقتران الحدود فيه. واما ان يكون ما يلزمه هو او نقيضه مقولا فيه بالفعل ويسمى قياسا استثنائيا كقولك: ان كانت النفس لها فعل بذاتها فهي قائمة بذاتها لكن لها فعل بذاتها فهي قائمة بذاتها

البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وللاقسام القياس ملحقات اخر يقسم اليها. (اولها) القياس المركب وهو قياس ركب من مقدمات ينتج مقدمتان منها نتيجة وهي مع المقدمة الاخرى نتيجة اخرى ولا تزال نتائج بعضها مقدمات لبعض الى ان يحصل المطلوب. فان صرح بنتائج تلك الاقيسة سمي موصول النتائج لوصل تلك النتائج بالمقدمات كقولك: كل كاتب انسان وكل انسان حيوان فكل كاتب حيوان. وكل حيوان ذو حس فكل كاتب ذو حس. وكل ذو حس جسم فكل كاتب جسم. وان لم يصرح بنتائج تلك الاقيسة سمي مفصول النتائج ومطويها كقولك: كل كاتب انسان. وكل انسان حيوان. وكل حيوان ذو حس. وكل ذي حس نام. وكل نام جسم فكل كاتب جسم. (والثاني) قياس الخلف. وهو قياس استثنائي يقصد فيه اثبات المطلوب بابطال نقيضه كما اذا قيل كل نبات نام ولا شيء من الجماد بنام. فلا شيء من النبات بجماد. فيقال لو لم يكن المطلوب حقا اي لا شيء من النبات بجماد لصدق نقيضه اي بعض النبات جماد. لكن لو كان هذا

النقيض حقًا لما صدق كون كل نبات ناميًا. وقد سُمّي هذا القياس خلفًا لأن المتمسك به يُثبت مطلوبه من خلفه اي من ورائه. (والثالث) قياس الاستقراء وهو قول مؤلّف من قضايا تشتمل على الحكم على الجزئيات لاثبات الحكم الكلي. ويُحدّ ايضًا الحكم على كليّ لوجوده في اكثر جزئياته وقيل ايضًا: هو تصفّح الجزئيات لاثبات حكم كليّ ثم الاستقراء قسمان (تامّ) ويُسمّى قياسًا مقسّمًا وهو ان يُستدلّ بجميع الجزئيات ويُحكم على الكلّ وهو قليل الاستعمال كما يقال: كلّ جسم اما حيوانٌ او نباتٌ او جمادٌ وكلّ واحد منها متحيّزٌ فينتج انّ كلّ جسم متحيّزٌ وهو يفيد اليقين. (وناقصٌ) وهو ان يُستدلّ باكثر الجزئيات فقط ويُحكم على الكلّ وهو قسيم القياس ولذا عدّوه من لواحق القياس وتوابعه وهو يفيد الظنّ كقولنا: كلّ حيوان يتحرّك فكّه الاسفل عند المضغ لانّ الانسان والفرس والحمار والبقر وغير ذلك ممّا تتبّعناه كذلك. فانّه يفيد الظنّ بجواز التخلّف كما في التمساح. (والرابع) قياس التمثيل وهو اثبات حكم في جزئيّ لثبوته في جزئيّ آخر لمعنى مشترك بينهما مؤثّر في ذلك الحكم كقولك: العالم مؤلّفٌ فهو محدثٌ كالمدينة لانّ كليهما مركّبٌ من اجزاء وهو يُقسم الى تمثيل قطعيّ يفيد اليقين والى غير قطعيّ يفيد الظنّ

امّا انواع القياس فخمسةٌ. (احدها) القياس البرهانيّ وهو

ما رُكّب من مقدمات يقينيّة كقولك: زيدٌ انسانٌ فهو قابل العلم. (والثاني) الجدليّ وهو ما رُكّب من مقدمات مشهورة يسلّم بها الخصم ولا يقوى على انكارها لشهرتها بين الجمهور نحو: العالم متغيّرٌ فهو محدثٌ. (والثالث) الخطابيّ وهو ما رُكّب من مقدّمات مقبولة يُراد بها ترغيب السامع او ترهيبه نحو: الصلاة برٌّ فهي منجاةٌ للانسان. واهمالها معصيةٌ فهو مهلكٌ. (والرابع) الشعريّ وهو ما رُكّب من مقدمات مخيّلة تؤثّر في النفس بسطًا او قبضًا صادقةً كانت او كاذبةً نحو: الخمر قرمزيّةٌ ساطعةٌ فهي تبهج النظر او هي مُرّةٌ مهوّعةٌ فهي تزعج النفس. (والخامس) المغالطيّ وهو ما رُكّب من مقدمات كاذبة شبيهة بالصادقة كقولك عن برج الاسد: هذا اسدٌ فهو يزأر. والعمدة في الخطابة على البرهان الخطابيّ اي ذي المقدمات المقبولة

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نقول انّ الاقاويل التي يكون بها الاثبات والابطال كما انها في صناعة الجدل صنفان احدهما الاستقراء وما يُظنّ به انّه

استقراء والصنف الثاني القياس وما يظن به انه قياس كذلك الاقاويل المثبتة في الصناعة والمبطلة صنفان احدهما شبيه بالاستقراء وهو المثال والآخر شبيه بالقياس وهو الضمير. والضمير الذي يظن به انه ضمير وليس بضمير يشبه الذي يظن به هنالك انه قياس وليس بقياس. وكذلك المثال الذي يظن به انه مثال وليس بمثال يشبه الاستقراء الذي يظن به انه استقراء وليس باستقراء. فالضمير هو القياس الخطبي والمثال هو الاستقراء الخطبي. والخطباء اذا تؤمل امرهم ظهر انهم يفعلون جميع التصديقات التي تكون بالقول بهذين الصنفين اعني اما بالمثال واما بالضمير. وذلك انهم يؤمون بفعلهم هذا ان يتشبهوا بالاستقراء والقياس. والذي يفعلون من ذلك انما يفعلونه بما هو مثال في الحقيقة او بما يظن به انه كذلك وتبين في كتاب القياس ان كل تصديق فانه يكون بالقياس وان الاستقراء والمثال انما يفيدان التصديق بما فيهما من قوة القياس. فاما ما هو القياس وما الفصل بينه وبين البرهان فقد قيل في كتاب الجدل وقد تبين هنالك ايضا الفرق بين القياس والاستقراء. والاستقراء والمثال يشتركان في ان كليهما يثبتان ان هذا الشيء موجود كذا او غير موجود كذا من اجل وجود ذلك الشيء او لا وجوده في شبيهه. والضمير والقياس يشتركان في ان كليهما قول يوضع فيه شيء فيلزم عنه شيء آخر. واذا كان الامر هكذا فهو بين ان في كل واحد من

هذين الجنسين من القول نوعا خطبيا ونوعا جدليا ونوعا برهانيا ونوعا سوفسطائيا. فانه كما يوجد الاستقراء والقياس في هذه الصنائع كذلك يوجد في الخطابة المثال والضمير وانما يختلف في هذه الصنائع بجهة الاستعمال اعني في صناعة البرهان وصناعة الجدل. والقياس في الجدل اوثق من الاستقراء والمثال في الخطابة اقنع من الضمير لان الضمير يتطرق اليه العناد اكثر من تطرقه الى المثال وسبب هذا سنخبر به فيما بعد وكذلك كيف نستعمل هذه الاشياء. فاما الآن فينبغي ان نحدد هذين الطريقين من الاقناع اعني الضمير والمثال فنقول :

ان القول المقنع اما ان يكون مقنعا لواحد من الناس او لجماعة من الناس او لاكثر الناس. وايضا منه ما يكون اقناعه في امر كلي ومنه ما يكون في امر جزئي. وكلا هذين منه ما يكون اقناعه بينا بنفسه ومنه ما يكون اقناعه بغيره. والذي يكون اقناعه بغيره في الجزئيات ضربان (احدهما) ان يقول القائل : ان كذا انما هو كذا لموضع كذا. مثل قول القائل : ان شراب السكنجبين ينفع فلانا لانه محموم. وهذا هو الذي يسمى الضمير. (والضرب الثاني) ان يقول : ان كذا انما كان كذا لانه مثل كذا. مثل ان يقول. ان فلانا ينتفع بشراب السكنجبين لان فلانا انتفع به. وهذا هو الذي يسمى المثال. والمقنعات التي هي مقنعة عند واحد من الناس فليس تستعملها

هذه الصناعة لان ذلك غير متناه وغير معلوم عند المستعمل لها ولذلك ليست تستعمل هذه الصناعة من المقدمات المحمودة اعني المقبولة ما كان مقبولا عند واحد من الناس . وتلك هي الآراء الحادثة للناس عند الشوق والهوى بل انما تستعمل المحمود عند الاكثر او الجميع على مثل ما تستعمله صناعة الجدل . واذا كان الامر هكذا فالذي يفترق به القياس المستعمل في صناعة الجدل وفي صناعة البرهان من الضمير المستعمل في هذه الصناعة ان القياس يرتب الترتيب الذي يكون به القول منتجا بالضرورة . واما الضمير فانه تترتب مقدماته الترتيب الذي هو معتاد عند الجمهور ان يقبل . وذلك هو بخلاف الترتيب الصناعي فان الناس يستريبون بالقول اللازم عن القول الصناعي ويرون ان ذلك انما لزم من جهة الصناعة لا من جهة الامر في نفسه . وايضا فان الترتيب الصناعي يقتضي ان يصرح فيه بجميع المقدمات الضرورية في بيان ذلك المطلوب والجمهور لا يستطيعون ان يفهموا لزوم النتيجة التي تلزم عن مقدمات كثيرة . وايضا فانهم لا يباعدون بين النتيجة والشيء الذي تلزم عنه النتيجة اعني انهم لا يصرحون في المقاييس بالمقدمتين جميعا مع النتيجة بل انما يأتون بمقدمة واحدة ثم يردفونها بالنتيجة . مثل انهم يقولون : هذا يدور بالليل فهو لص . ولا يقولون : كل من يدور بالليل فهو لص وهي المقدمة الكبرى . وايضا فان الضمائر لما

كانت تصنع في الاكثر في الامور الممكنة وذلك بين في الامور المشاورية فانه ليس يشير احد على احد بامر ضروري الوجود ولا ممتنع الوجود وكانت المقدمة الكبرى في امثال هذه المواد كاذبة بالجزء لم يصرحوا بها في المقاييس التي يستعملونها في هذه الصناعة لئلا يفطن لكذبها . وايضا فلما كانت المقاييس الجيدة الصنعة في هذه الصناعة انما هي احد صنفين اما المقاييس التي تؤلف من المقدمات البينة اقناعها بنفسه واما من مقدمات تتبين مقدماتها بمقدمات اخر تخلط بها والا لم يتبين حمدها . فقد يلحق ضرورة في هذا الصنف الثاني ان يعسر تأليف المقدمات وترتيبها الترتيب الصناعي لمكان كثرة المقدمات وطول الزمان الذي يصرح فيه بجميعها وترتب ترتيبا صناعيا وذلك الشيء لا يساعد عليه الحكام بل يحملون المتكلم بين ايديهم ان يكون كلامه بسيطا غير متكلف فيه صنعة على الجمهور في ذلك فانه متى كان الكلام ليس على هذه الصفة كان غير مقنع . وذلك في الامرين اللذين يكون فيهما الاقناع اعني في ان الشيء موجود او غير موجود وفي انه اذا وجد محمود او غير محمود . وكذلك اذا استعمل التصديق بطريق اخذ الاشباه فاستقصي وجعل على طريق الاستقراء عرض العسر الذي وصفناه من الطول والكثرة . واذا كان هذا هكذا فاذن القياس الخطبي وهو الضمير والمثال انما يكونان في الاشياء التي يكون فيها القياس والاستقراء باطلاق وتلك

الأشياء مأخوذةٌ بحالٍ غيرِ الحالِ التي أُخِذَت بها في القياس والاستقراء. فإذا استُعمِلَت تلك الأشياء بالحال التي بُيِّن في كتابِ القياس عادَ المثالُ استقراءً والضميرُ قياساً. وإذا أُخِذَت بهذه الحالِ التي ذكرنا عادَ الاستقراءُ مثالاً والقياسُ ضميراً. وتلك الحالُ هي أخذُ القياس والاعتبارُ بمقدّماتٍ قليلةٍ وجيزةٍ فإنّ الإقناعَ إنّما يكونُ أكثرَ ذلك بالمقدّمات التي هي في غايةِ الظهورِ وحذفِ ما خفِيَ منها وأيضاً فإنّ المحمودَ في هذه الصناعةِ أن يُحذَفَ اللازمُ عنه ويُؤتى بالشيءِ الذي يلزمُ إذا أُخبِرَ باللازمِ والملزوم فكأنّه قد ذكرَ الشيءَ مرّتين فيكونُ هذراً في بادي الرأي. وعلى هذا فلا يُصرَّحُ بالحدِّ الأوسطِ في القياسِ إلّا مرّةً واحدةً ولا في الاعتبارِ إلّا بشبيهٍ واحدٍ فيكونُ القياسُ ضرورةً ضميراً أي محذوفاً إحدى مقدّمتيه وبهذا سُمّي ضميراً إذ كانت إحداهما مضمرةً ويكونُ الاستقراءُ ضرورةً تمثيلاً

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسه)

(قالَ) ومقدّماتُ القياساتِ الخطبيّةِ قد تكونُ ضروريّةً وذلك في الأقلِّ وتكونُ ممكنةً وذلك في الأكثرِ لأنّ أكثرَ الفحص الجمهوريِّ إنّما هو فيما يُمكنُ أن يكونَ بحالٍ ويُمكنُ ألّا يكونَ

بتلك الحالِ. وذلك بيّنٌ في الأشياء التي يُشارُ بها وذلك أنّها كلّها أمورٌ مفعولةٌ للإنسانِ لا ضروريّةُ الوجودِ ولا ممتنعةُ الوجودِ. والنتائجُ الضروريّةُ فإنّها تكونُ بالذاتِ عن مقدّماتٍ ضروريّةٍ والممكنةُ عن مقدّماتٍ ممكنةٍ. والضمائرُ منها ما يكونُ عن مقدّماتٍ محمودةٍ ومنها ما يكونُ من الدلائلِ. وأعني بالمقدّماتِ المحمودةِ التي ليست دلائلَ. مثل أنّه ينبغي أن يُشكَرَ المنعِمُ وأن يُساءَ إلى المسيءِ. وأعني بالدلائلِ الأشياءَ التي تدلُّ على وجودِ شيءٍ لشيءٍ. وهذانِ الصنفانِ من المقدّماتِ يوجدانِ في الموادِّ الضروريّةِ والممكنةِ أعني المحموداتِ والدلائلَ. وليس يوجدانِ في الممكنةِ على الأكثرِ فقط بل وفي الممكنةِ على التساوي. وهي التي نسبتُها إلى المقدّماتِ الممكنةِ على الأكثرِ نسبةُ التي على الأكثرِ إلى الضروريِّ وهي نسبةُ الكلِّ من البعضِ وذلك أنّ الصدقَ في الضروريّةِ أعمُّ من الصدقِ في الممكنةِ على الأكثرِ إذ كانت الضروريّةُ توجدُ لكلِّ الموضوعِ والممكنةُ على الأكثرِ لا توجدُ لكلّه. وكذلك نسبةُ الممكنةِ على التساوي إلى الممكنةِ على الأكثرِ هي هذه النسبةُ أعني أنّ الممكنةَ على الأكثرِ تصدقُ من موضوعاتِها على أكثرَ ممّا تصدقُ الممكنةُ على التساوي. والدلائلُ المأخوذةُ حدّاً أوسطَ منها ما هو أعمُّ من الطرفِ الأصغرِ وأخصُّ من الأكبرِ ومنها ما هو أعمُّ من الطرفينِ. ومنها ما هو أخصُّ منهما. أمّا الذي هو أعمُّ من الطرفِ

الأصغر وأخص من الأكبر فإنه يأتلف ضرورة في الشكل الأول. وإذا كان في المادة الممكنة على الأكثر فهو الذي يعرفه القدماء بالأشبه. ومثاله في المادة الضرورية: هذه أنثى الحيوان لها لبن فهي قد ولدت. وفي الممكنة على الأكثر. فلان يعد السلاح ويجمع الرجال وليس قربه عدو فهو يريد أن يعصي الملك. ومثال الممكنة على التساوي: فلان قد تعب والمتعوب محموم ففلان محموم. وهذا هو الذي يعرف بالمشبه. وأما ما هو أعم من الطرفين فإنه يأتلف في الشكل الثاني إلا أنه غير منتج إلا في بادي الرأي. مثال ذلك في المادة الممكنة على الأكثر قول القائل: سقراط يتنفس متواترًا والمحموم يتنفس متواترًا فسقراط محموم. فهاتان المقدمتان صادقتان والنتيجة قد تكون كاذبة إذ قد يمكن أن يكون تنفس سقراط متواترًا لموضع إحضاره. ولما كان ذلك خافيًا على كثير من الناس إذا رأوا في أمثال هذه المقدمات الصادقة أنها تنتج كذبًا ظنوا لذلك أنه قد انطوى فيها كذب فيرومون أن يعاندوا المقدمات فيعسر ذلك عليهم لمكان صدقها فيتحيرون لذلك. وأما التي هي أخص من الطرفين فتنتج في الشكل الثالث جزئيًا لا كليًا لكن تؤخذ نتيجته في هذه الصناعة كلية. مثال ذلك في المادة الضرورية قول القائل: الأشياء كلها في كرة العالم والأشياء كلها في الزمان فالزمان كرة العالم. وفي الممكنة قول القائل: الحكماء عدول لأن سقراط حكيم وعدل.

والدلائل التي تكون في الشكل الثالث والثاني تخص باسم العلامة وما كان منها في الشكل الأول يخص باسم الدليل. والذي في الشكل الثاني هو أخص باسم العلامة من الثالث كما أنه ما كان من ذلك في الممكنة الأكثرية يخص باسم الأشبه وإن كان في الممكنة على التساوي خص باسم الضمير المشتبه. فقد تبين من هذا القول ما هي المحمودات والدلائل والعلامات وما الفرق بينهما. لكن الذي تبين من الأقاويل القياسية على الحقيقة إنما هو في كتاب القياس فإنه هنالك تبين ما هو القياس وكم أجناس الأقاويل القياسية وتبين في جنس جنس منها ما هو قياس وما ليس بقياس. وأما (المثال) فقد بينا فيما تقدم أنه استقراء ما لكن يباين الاستقراء بأنه ليس يصار فيه لا من الجزئي إلى بيان الأمر الكلي كما يصار في بعض أنواع الاستقراء ولا من الكلي إلى الجزئي كما قد يصار في بعض أنواع الاستقراء. وذلك إذا بينا بالكلي الذي أثبتناه بالاستقراء جزئيًا آخر غير الجزئيات التي أثبتها الكلي باستقرائها ويوافقه في أنه يصير من جزئي إلى جزئي لاجتماعهما في أمر كلي. وذلك إذا جمعنا في الاستقراء الأمرين جميعًا أعني أن نصير فيه من الجزئي إلى الكلي ثم من الكلي إلى جزئي آخر فإنا في هذا الفعل قد صرنا من جزئي إلى جزئي يتوسط الكلي كالحال في المثال فإن المثال إنما يصير فيه من جزئي إلى جزئي

لاشتراكهما في امر كلي اذا كان الحكم المنقول من احدهما الى الآخر موجودا للجزئي الاعرف من اجل ذلك الكلي او يظن به انه يوجد له من جهته والا لم تصح النقلة من جزئي الى جزئي اعني ان لم يكن هنالك كلي وكان وجود ذلك الحكم من اجله للجزئي الاعرف. ومثال ما يعرض من هذا في الاستقراء اعني اذا كانت النقلة من جزئي الى جزئي بتوسط النقلة الى الكلي قول من قال: ايها الملك ان فلانا طلب ان يكون من جملة العسس وقد كان من جملة عدوك فلا تبح له ذلك فانه يريد ان يفتك بالملك لان فلانا طلب ذلك من فلان الملك وفلانا من فلان الملك لاقوام يعددهم ففتكوا بملوكهم. فان قائل هذا القول قد جعل النقلة فيه من جزئي الى جزئي بتوسط الكلي الذي هو: ان كل من طلب ان يدخل في الحرس ممن كان في جملة عدو الملك فهو يريد ان يفتك به. الا ان هذا الكلي الذي ارتسم في النفس بالقوة وان لم يصرح به يستعمل النقلة من جزئي الى جزئي اذا كانت النقلة اليه في الذهن من اكثر الجزئيات كان استقراء وان كان من واحد منها او من الاقل كان تمثيلا. (قال) فاما القول في هذه الاشياء التي يقال لها مثالات فقد يكتفى ها هنا بهذا القدر المعطى منها

واما القول في فصول الضمائر من جهة الاشياء التي منها تعمل فان القول فيها غامض وخفي وهو عظيم الغناء فيما نقصده

ها هنا. وسبب غموضه ان الضمائر تكون في جميع المقولات العشر كما تكون القياسات الجدلية لكن من الضمائر ما يكون في المواد التي في الصنائع مثل الضمائر التي تستعمل في الامور الكلية والجزئية في صناعة الطب وغيرها من الصنائع. وهذه فينبغي ان تستعمل في هذه الصنائع على نحو استعمال البراهين في تلك الصناعة لا على ما يستعملها الخطيب في المادة التي تخص الخطابة مثل ان يأتي بها جزءا من خطبة. وسائر الاشياء التي تكون بها الاقاويل الخطبية اتم فعلا وانفذ مما يذكر بعد. ومن الضمائر ما يكون في الامور التي تخص هذه الصناعة بحسب ما تبين من منفعتها وهي الامور الارادية وهذه هي التي ينبغي ان تستعمل على جهة ما يستعمل الخطباء الاقاويل الخطبية. ومن هذه الاشياء ينبغي ان تعدد في هذه الصناعة الاشياء التي هي فصول الضمائر لا من تلك المواد التي تحتوي عليها صناعة صناعة

الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

المناظرة علم يعرف به كيفية اثبات المطلوب ونفيه او نفي دليله مع الخصم. والآداب الطرق. وموضوع هذا العلم الادلة من حيث انها يثبت بها المدعي على الغير. ومبادئه امور بيّنة بنفسها. والغرض منه تحصيل ملكة طرق المناظرة لئلا يقع الخبط في البحث فيتضح الصواب. وتطلق المناظرة ايضاً في اصطلاح اهل هذا العلم على النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين اظهاراً للصواب. وقيل ايضاً هي توجه الخصمين في النسبة بين الشيئين اظهاراً للصواب اي توجه المتخاصمين اللذين مطلب احدهما غير مطلب الآخر اذا توجها في النسبة وان كان ذاك التوجه في النفس كما كان للحكماء الاشراقيين وكان غرضهم من ذلك اظهار الحق والصواب. والمسائل العلمية تتزايد يوماً فيوماً بتلاحق الافكار

والانظار فلتفاوت مراتب الطبائع والاذهان لا يخلو علم من العلوم عن تصادم الآراء وتباين الافكار وادارة الكلام من الجرح والتعديل والرد والقبول الا انه بشروط معتبرة مشروط وبرعاية الاصول منوط والا لكان مكابرة غير مسموعة. فلا بد من قانون يعرف مراتب البحث على وجه يتميز به المقبول عما هو مردود وتلك القوانين هي علم آداب البحث

اما الجدال فهو علم يبحث عن الطرق التي يقتدر بها على ابرام ونقش وهو من فروع علم النظر ومبنى لعلم الخلاف مأخوذ من الجدل الذي هو احد اجزاء مباحث المنطق. ومبادئه بعضها مبينة في علم النظر وبعضها خطابية وبعضها امور عادية. وله استمداد من علم المناظرة المشهور بآداب البحث. وموضوعه تلك الطرق والغرض منه تحصيل ملكة النقش والابرام وفائدته كثيرة في الاحكام العلمية والعملية من جهة الالزام على المخالفين. ولا يبعد ان يقال ان علم الجدل هو علم المناظرة لان المآل منهما واحد الا ان الجدل اخص منه. ويؤيده كلام ابن خلدون في المقدمة حيث قال: واما الجدال فهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين اهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج. ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأً فاحتاج الائمة الى ان يضعوا آداباً واحكاماً يقف المتناظران

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصاً مُنْقَطِعاً وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اَوْ مُعَارَضَتِهِ وَايْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ اِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا اِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اَوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْاِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ ايِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَاِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اَشْبَهَ بِٱلقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ. اِلَّا انَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ اِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْاِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَاخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْاِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ اِرَادَتُكَ فِيهَا اَنْ تَظْهِرَ ٱلْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ ٱلْبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ ٱلْاِرَادَةِ عَلَامَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تُفَرِّقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ ٱلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ ٱلْبَحْثُ فِي ٱلْخَلَاءِ اَحَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَلَاِ وَٱسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اَعْلَمْ اَنَّ ٱلسُّؤَالَ عَنِ ٱلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ ٱلْقَلْبِ اِلَى ٱلطَّبِيبِ وَٱلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِاِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْجَاهِلِينَ ٱلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَٱلْعُلَمَاءَ ٱلْاَطِبَّاءُ. وَٱلْعَالِمَ ٱلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْعَالِمَ ٱلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ ٱلْمُعَالَجَةِ وَٱلصَّلَاحِ وَاِذَا كَانَتِ ٱلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ ٱلطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ: هٰذَا لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِاَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ ٱلْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ ٱلْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ. وَامَّا ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ

فَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا عَالِمًا عَاقِلًا فَهِمًا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ ٱلْحَسَدِ وَٱلْغَضَبِ وَمُحِبَّ ٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ وَٱلشَّهْوَةِ وَيَكُونَ طَالِبَ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وَٱمْتِحَانٍ وَبَحْثٍ. وَهٰذَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَيَجُوزُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ • أَمَّا ٱلَّذِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ أَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَٱلْحَسَدُ لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْعِلَّةِ ٱلْمُزْمِنَةِ فَكُلَّمَا تُجِيبُهُ بِأَحْسَنِ ٱلْجَوَابِ وَأَفْصَحِهِ وَأَوْضَحِهِ لَا يَزِيدُ لَهُ ذٰلِكَ إِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَٱلطَّرِيقُ أَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ:

كُلُّ ٱلْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا   إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ

فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرُكَهُ مَعَ مَرَضِهِ قَالَ: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ وَٱلدُّنْيَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى وَٱلْحَسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ ٱلنَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ كَمَا جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: ٱلْحَسَدُ يَأْكُلُ ٱلْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ ٱلنَّارُ ٱلْحَطَبَ. وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ وَهُوَ أَيْضًا كَٱلْحَسُودِ لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (١) إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ إِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ ٱلْأَحْمَقِ وَذٰلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ فَيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى ٱلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في التقليد. ولا نعلم عمَّنْ رواهُ الغزّالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ. وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ. وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلِٱسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلِٱشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا. وَفِي ٱلْحَدِيثِ: نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ: إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضِيعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ:

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا   أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلِمْ لِمْ

إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ   سِوَى حَرْفَيْنِ لِمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ. وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضِيعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ • قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ: إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ. وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ. وَيَجْلُبُ ٱلضَّغَائِنَ. وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ. وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا. سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ. وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ اَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَاَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَاَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَاَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِاَنَّ صَاحِبَهُ يُعَجِّلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا اَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ اُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْاَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَاهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ • وَلَا سِيَّمَا اِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ اَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ اَنْ رَاَى فِيهِ وَٱحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِتْمَامِهِ حَتَّى اِذَا اَطْمَاَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ اَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَاَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ. فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ اَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى اَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَدَتْ عَجَاجَتَهُ فَلَا شَيْءَ اَعْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا اَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْاَلَدِّ ٱلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاس فَاسِدٌ اِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ اَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ اَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْغَرَضِ اِذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِاحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ اَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلِاقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًا. قَالَ شَارِحُ اِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ: مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشْبِهَاتُ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلْاَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالَطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: اِنَّ اَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ اِلَى

امر واحد وهو عدم التمييز بين الشيء واشباهه ثم انها تنقسم الى ما يتعلق بالالفاظ والى ما يتعلق بالمعاني. (والاول) ينقسم الى ما يتعلق بالالفاظ لا من حيث تركبها والى ما يتعلق بها من حيث تركبها. (والاول) لا يخلو اما ان يتعلق بالالفاظ انفسها وهو ان تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشباه بين ما هو المراد وبين غيره . ويدخل فيه الاشتراك والتشابه والمجاز والاستعارة وما يجري مجراها ويسمى جميعا بالاشتراك اللفظي . واما ان يتعلق باحوال الالفاظ وهي اما احوال ذاتية داخلة في صيغ الالفاظ قبل تحصلها كالاشتباه في اللفظ المختار بسبب التصريف اذا كان بمعنى الفاعل او المفعول. واما احوال عارضة لها بعد تحصلها كالاشتباه بسبب الاعجام والاعراب. (والمتعلقة بالتركيب) تنقسم الى ما يتعلق الاشباه فيه بنفس التركيب كما يقال: كل ما يتصوره العاقل فهو كما يتصوره . فان لفظ (هو) يعود تارة الى المعقول وتارة اخرى الى العاقل والى ما يتعلق بوجوده وعدمه اي بوجود التركيب وعدمه . وهذا الآخر ينقسم الى ما لا يكون التركيب فيه موجودا فيظن معدوما ويسمى تفصيل المركب . والى عكسه ويسمى تركيب المفصل واما (المتعلقة بالمعاني) فلا بد ان تتعلق بالتأليف بين المعاني اذ الافراد لا يتصور فيها غلط لو لم يقع في تأليفها بنحو ما ولا يخلو من ان تتعلق بتأليف يقع بين القضايا او بتأليف يقع في قضية واحدة . والواقعة بين القضايا اما قياسي

او غير قياسي . والمتعلقة بالتأليف القياسي اما ان تقع في القياس نفسه لا بقياسه الى نتيجته او تقع فيه بقياسه الى نتيجته . والواقعة في نفس القياس اما ان تتعلق بمادته او بصورته . اما (المادية) فكما تكون مثلا بحيث اذا رتبت المعاني فيها على وجه يكون صادقا لم تكن قياسا واذا رتبت على وجه يكون قياسا لم يكن صادقا كقولنا: كل انسان ناطق من حيث هو ناطق ولا شيء من الناطق من حيث هو ناطق بحيوان اذ مع اثبات قيد (من حيث هو ناطق) فيهما تكذب الصغرى ومع حذفه عنهما تكذب الكبرى. وان حذف من الصغرى واثبت في الكبرى تنقلب صورة القياس لعدم اشتراك الاوسط. واما (الصورية) فكما تكون منه على ضرب غير منتج تكون ايضا على ضرب منتج وهذا يسمى سوء التأليف باعتبار البرهان وسوء التركيب باعتبار غيره. واما (الواقعة في القياس بالقياس الى النتيجة) فتنقسم الى ما لا يكون النتيجة مغايرة لاحد اجزاء القياس فلا يحصل بالقياس علم زائد على ما في المقدمات وتسمى مصادرة على المطلوب. والى ما تكون مغايرة لكنها لا تكون ما هي المطلوب من ذلك القياس ويسمى وضع ما ليس بعلة علة كقولنا: الانسان وحده ضحاك كل ضحاك حيوان. واما (الواقعة في قضايا ليست بقياس) فتسمى جمع المسائل في مسئلة كما يقال: زيد وحده كاتب. فانه قضيتان لافادته انه ليس غيره كاتبا. واما (المتعلقة

بِٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِما انْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئَيِ ٱلْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِوُقُوعِ احَدِهِمَا مَكَانَ ٱلْآخَرِ وَيُسَمَّى إِيهَامَ ٱلْعَكْسِ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْجِنْسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٍ تَحْتَهُ نَحْوَ: هٰذَا لَوْنٌ وَٱللَّوْنُ سَوَادٌ فَهٰذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْمُطْلَقِ بِحُكْمِ ٱلْمُقَيَّدِ بِحَالٍ اَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هٰذِهِ رَقَبَةٌ وَٱلرَّقَبَةُ مُؤْمِنَةٌ • وَإِمَّا انْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بَدَلَ ٱلْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا يُشْبِهُهُ كَعَوَارِضِهِ اَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى اَخْذَ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ كَمَنْ رَاَى ٱلْإِنْسَانَ انَّهُ يَلْزَمُ لَهُ ٱلتَّوَهُّمُ وَٱلتَّكْلِيفُ فَظَنَّ اَنَّ كُلَّ مُتَوَهِّمٍ مُكَلَّفٌ • وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ ٱلْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلٰكِنْ لَا عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ ٱلْكَاتِبُ إِنْسَانٌ. اَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ ٱلشُّرُوطِ اَوِ ٱلْقُيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ غَيْرَ ٱلْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ ٱعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَقَدْ حَصَلَ مِنَ ٱلْجَمِيعِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَوْعًا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلْبَسَائِطِ هِيَ ٱلِٱشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ ٱللَّفْظِ وَفِي اَحْوَالِهِ ٱلذَّاتِيَّةِ وَفِي اَحْوَالِهِ ٱلْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلتَّرْكِيبِ وَهِيَ ٱلَّتِي فِي نَفْسِ ٱلتَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ ٱلْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ ٱلْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. اَرْبَعَةٌ مِنْهَا بِٱعْتِبَارِ ٱلْقَضَايَا ٱلْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ ٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْمُصَادَرَةُ عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَثَلَاثَةٌ بِٱعْتِبَارِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَهِيَ إِيهَامُ ٱلْعَكْسِ وَاَخْذُ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ وَسُوءُ ٱعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاَجْزَاءُ

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَاَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ اَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ اَوْ يُجْبِنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ اَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي اَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ اَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ اَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْاَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرْكِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنَازِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّآلِئِ بِهَا نِظَامٌ. وَقَالَ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ اَنْ تَخْلُطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بمراضع الفصل والوصل. وقال الاحنف بن قيس ما رأيت رجلا تكلم فاحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده الا عمرو بن العاص كان اذا تكلم تفقد مقاطيع الكلام واعطى حق المقام وغاص في استخراج المعاني بالطف مخرج حتى كان يقف عند المقاطيع وقوفا يحول بينه وبين ما يبتغيه من الالفاظ وكان كثيرا ما ينشد :

اذا ما بدا بين المنابر قائلا   اصاب بما يوحى اليه المفاصيلا

ولا اعرف فضلا في كلام منثور احسن مما اخبر عن شبيب ابن شبة فانه اذ كان يوما قاعدا بباب المهدي اقبل عبد الصمد بن الفضل الرقاشي فلما رآه شبيب قال : اتاكم والله كليم الناس فلما جلس قال له شبيب: تكلم يا ابا العباس. فقال: أمعك يا ابا معمر وانت خطيبنا وسيدنا. قال : نعم فوالله ما رأيت قلبا اقرب من لسان من قلبك من لسانك. فقال اي شيء تحب ان اتكلم. (قال) واذا شيخ معه عصا يتوكأ عليها فقال شبيب: صف هذه العصا. فحمد الله عز وجل واثنى عليه ثم ذكر السماء فقال: رفعها الله بغير عمد وجعل فيها نجوم رجم ونجوم اهتداء وادار فيها سراجا وقمرا منيرا لتعلموا عدد السنين والحساب وانزل منها ماء مباركا احيا به الزرع والضرع وادر به الاقوات وحفظ به الارواح وانبت به انواعا مختلفة يصرفها من حال الى حال تكون حبة ثم يجعلها عرقا ثم يقيمها على ساق. فبينا نراها خضراء ترفة اذ

صارت يابسة تتقصف بها العباد ويعمر بها البلاد وجعل من نسلها هذه العصا. (ثم اقبل على الشيخ فقال) : فكان هذا اوجده الله بعد عدم وانشأه امرد وشابا وبعده مكتهلا ثم شيخا حتى صار الى هذه الحال من الكبر فاحتاج في آخر حالاته الى هذه العصا فتبارك الله المدبر للعباد. قال شبيب بن شبة : فما سمعت كلاما على يديه احسن منه. ولما اقام ابو جعفر صالحا خطيبا بحضرة شبيب بن شبة واشراف قريش فتكلم اقبل شبيب فقال : يا امير المؤمنين ما رأيت كاليوم ابين بيانا ولا اربط جنانا ولا افصح لسانا ولا ابل ريقا ولا اغمض عروقا ولا احسن طريقا الا ان الجواد عسير لم يرض فحملته القوة على تعسف الآكام وخبطها وترك الطريق الاحب وايم الله ان لو عرف في خطبته مقاطع الكلام لكان افصح من نطق بلسان. وقال المأمون : ما اعجب بكتاب احد كاعجابي بكتاب القسم بن عيسى فانه في غرة عمره ويصيب مفاصل الكلام ولا تدعوه المقدرة الى الاطناب ولا تميل به الغزارة الى الاسهاب يجلي عن مراده في كتبه ويصيب المغزى في الفاظه. وكان يزيد بن معاوية يقول : اياكم ان تجعلوا الفصل وصلا فانه اشد واعجب واعيب من اللحن. وليكن التفقد لمقاطع الكلام منكم على بال. وكان اكثم بن صيفي اذا كانت ملوك الجاهلية تستكتبه قال لكاتبه : افصلوا بين منقضى فصل وصلوا اذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض. وكان

الحارث بن ابي شمر الغساني يقول لكاتبه المرقش : اذا نزع بك الكلام الى ابتداء معنى غير ما انت فيه فصل بينه وبين ما تتبعه من الالفاظ فانك ان مذقت الفاظك بغير ما يحسن ان تمذق به نفرت القلوب عن وعيها وملته الاسماع واستثقلته الرواة. وكان بزرجمهر يقول : اذا مدحت رجلا وهجوت آخر فاجعل بين القولين فصلا حتى تعرف المدح من الهجاء كما تفعل في كتبك اذا استأنفت القول واكملت ما سلف من اللفظ. وقال الحسن بن سهل لكاتبه الحراني : ما منزلة الكاتب في قوله وفعله. قال : ان يكون مطبوعا محتنكا بالتجربة سالما بحلال الكتاب والسنة وحرامها بالدهور في تداولها وتصرفها وبالملوك في سيرها وايامها مع براعة اللفظ وحسن النسق وتأليف الاوصال بمشاكلة الاستعارة وبشرح المعنى حتى ينصب صورها. وبمقاطع الكلام ومعرفة الفصل من الوصل واذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مجيد. وقال المأمون : ما اتحفظ من رجل شيئا كتحفظي عن الفصل والوصل في كتابه والتخلص من المحلول الى المعقود وان لكل شيء جمالا وحلية الكتاب وجماله ايقاع الفصل وقعه وشحذ الفكر واجالتها في لطف التخلص من المعقود الى المحلول. (قلنا) : ومعنى المعقود والمحلول ها هنا هو انك اذا ابتدأت مخاطبة ثم لم تنته الى موضع التخلص فما عقدت عليه كلامك سمي الكلام معقودا. واذا شرحت المستور وابنت عن الغرض المنزوع اليه

سمي الكلام محلولا مثال ذلك ما كتب بعضهم انظر سدد الله رأيك ان لا تدعوك مقدرتك على الكلام الى اطالة المعقود فان ذلك منساة ما اكننته في صدرك واوردت تضمينه في كتابك. واعلم ان اطالة المعقود تورث نسيان ما عقدت عليه كلامك وارتهنت به فكرتك. وكان شبيب بن شبة يقول لم ار متكلما قط اذكر لما عقد عليه كلامه ولا احفظ لما سلف من نطقه من خالد بن صفوان يشيع المعقود بالمعاني يصعب الخروج منها الى غيرها ثم يأتي بالمحلول واضحا بينا ومشروحا منورا وكان السامع لا يعرف مغزاه ومقصده في اول كلامه حتى يصير الى آخره. وقال بعضهم : لبئس عمل من القائل ان يكتم مغزاه عن السامع لكلامه في اول ابتدائه حتى ينتهي الى آخره بل الاحسن ان يكون في صدر كلامه دليل على حاجته ومبين لمغزاه ومقصده كما ان اخير ابيات الشعر ما اذا سمعت صدره عرفت قافيته. وكان شبيب بن شبة يقول : الناس موكلون بتعظيم جودة الابتداء وبمدح صاحبه وانا موكل بتعظيم جودة المقطع وبمدح صاحبه وخير الكلام ما وقف عند مقاطعه وبين موقع فصوله

الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاوّل

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مرَّ بِشرُ بنُ ٱلمعتمرِ بإبراهيمَ بنِ جبلةَ بنِ مخرمةَ ٱلسَّكونيّ ٱلخطيبِ وهو يعلّمُ فتيانَهم ٱلخطابةَ فوقف بشرٌ يستمعُ فظنَّ إبراهيمُ انّهُ إنّما وقف ليستفيدَ او يكونَ رجلًا من ٱلنظّارةِ فقال بشرٌ: اضرِبوا عمّا قال صفحًا وٱطووا عنهُ كشحًا. ثمّ دفع اليهم صحيفةً من تنميقهِ وتحبيرهِ فيها: خذْ من نفسكَ ساعةَ نشاطكَ وفراغِ بالكَ واجابتِها إيّاكَ فإنَّ نفسكَ تلكَ ٱلساعةَ اكرمُ جوهرًا وأشرفُ حسبًا وأحسنُ في ٱلاستماعِ وأحلى في ٱلصدورِ وأسلمُ من فاحشِ ٱلخطإِ وأجلبُ لكلِّ عينٍ من لفظٍ شريفٍ ومعنًى بديعٍ. وٱعلمْ انَّ ذلكَ اجدى عليكَ ممّا يعطيكَ يومُكَ ٱلأطولُ بٱلكدِّ وٱلمطاولةِ وٱلمجاهدةِ بٱلتكليفِ وٱلمعاودةِ. ومهما اخطاكَ

لم يخطئكَ ان يكونَ مقبولًا قصدًا وخفيفًا على ٱللسانِ سهلًا وكما خرجَ من ينبوعهِ ونجمَ من معدنهِ. وإيّاكَ وٱلتوعّرَ فإنَّ ٱلتوعّرَ يسلمُكَ الى ٱلتعقيدِ وٱلتعقيدُ هو ٱلذي يستهلكُ معانيكَ ويشينُ الفاظكَ ومن اراغ معنًى كريمًا فليلتمسْ لهُ لفظًا كريمًا فإنَّ حقَّ ٱلمعنى ٱلشريفِ ٱللفظُ ٱلشريفُ ومن حقّها ان تصونَها عمّا يفسدُها ويهجّنُها وعمّا تعودُ من اجلهِ الى ان تكونَ اسوأَ حالًا منكَ قبلَ ان تلتمسَ اظهارَها وترهنَ نفسكَ بملابستِها وقضاءِ حقّها. فكنْ في ثلاثةِ منازلَ فأوّلُ ذلكَ ان يكونَ لفظُكَ رشيقًا عذبًا او فخمًا سهلًا ويكونَ معناكَ ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا إمّا عندَ ٱلخاصّةِ إنْ كنتَ للخاصّةِ قصدتَ وإمّا عندَ ٱلعامّةِ إنْ كنتَ للعامّةِ اردتَ. وٱلمعنى ليسَ يتّضعُ ان يكونَ من معاني ٱلعامّةِ. وإنّما مدارُ ٱلأمرِ على ٱلشرفِ معَ ٱلصوابِ وإحرازِ ٱلمنفعةِ معَ موافقةِ ٱلحالِ وما يجبُ لكلِّ مقامٍ من ٱلمقالِ. وكذلكَ ٱللفظُ ٱلعاميُّ وٱلخاصيُّ فإنْ امكنكَ ان تبلغَ من بيانِ لسانكَ وبلاغةِ لفظكَ ولطفِ مداخلكَ وقدرِكَ في نفسكَ على ان تفهمَ ٱلعامّةَ معانيَ ٱلخاصّةِ وتكسوَها ٱلألفاظَ ٱلمتوسّطةَ ٱلتي لا تلطفُ عن ٱلدهماءِ ولا تجفو عن ٱلأكفاءِ فأنتَ ٱلبليغُ ٱلتامُّ. فقال لهُ إبراهيمُ بنُ جبلةَ جُعلتُ فداكَ انا احوجُ الى تعلّمِ هذا ٱلكلامِ من هؤلاءِ ٱلغلمةِ

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ۲۰۷ من علم الادب)

كُنْتُ ذَكَرْتُ لَكَ أَسْعَدَكَ ٱللهُ إِكْثَارَ ٱلنَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصْفِ ٱلْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِمِ ٱلْقَوْلَ فِي أَقْسَامِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَأَنَّهَا أَلْفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّثْرِ وَيَكُونُ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَٱلرَّسَائِلِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْأَوْصَافِ وَفِي ٱلسُّؤَالِ وَٱلْجَوَابِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. فَأَمَّا بَلَاغَةُ ٱلشِّعْرِ فَعُذُوبَةُ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي وَٱتِّسَاقُ ٱلنَّظْمِ وَرَشَاقَةُ ٱلْمَعْرِضِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَٱلتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ). وَقَوْلِ ٱلْأَعْشَى : (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَقَرْعِ ٱلْحُجَّةِ وَٱلْأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا أَنَّهَا أَلْفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَأَحْسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ ٱلْمَعْنَى مَعَ ٱخْتِصَارِهِ بِأَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْعِبَارَةِ بِأَعْذَبِ ٱلْأَلْفَاظِ وَأَحَقِّهَا عَلَى ٱلْأَسْمَاعِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى ٱلْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلْأَلْسِنَةِ فَهُمْ فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ ٱلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَكَلَامِ ٱلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي ٱلْعَرَبِ أَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي ٱلنَّثْرِ وَٱلنَّظْمِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلْكُتُبِ وَٱلسَّجْعِ وَٱلْمُزْدَوَجِ وَٱلرَّجَزِ. وَهُمْ أَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ ٱلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ ٱلْأَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَٱلْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي أَعْرَابِ ٱلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا ٱلصَّبِيُّ وَٱلْمَرْأَةُ... قَالَ ٱلشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ : وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ أَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ أُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَدِيعَ وَٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُصِيبَ وَٱلسُّؤَالَ ٱللَّطِيفَ وَٱلْمَدْحَ ٱلشَّرِيفَ وَٱلْغَزَلَ ٱلرَّقِيقَ وَٱلْهِجَاءَ ٱلْمُوجِعَ وَٱلذَّمَّ ٱلْمُقْلِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَأَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَأَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَأَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا أَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي أَنْ يُحَاضِرَ أَهْلَ ٱلْمُرُوءَاتِ بِهَا مُتَمَثِّلًا أَوْ شَاكِرًا أَوْ عَاتِبًا أَوْ مُهَنِّئًا أَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى ٱلدَّهْرِ إِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ ٱلْأَدَبِ وَٱلْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ : فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ : لَا يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللهِ وَٱلنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ ٱلْعَارِفُ ٱلْمُصِيبُ وَٱلْعَالِمُ ٱلْأَدِيبُ وَٱلرَّيِّضُ ٱلْحَاذِقُ أَنْ يُدْرِكَ شَأْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ : سُئِلَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ فَقَالَ :

ٱلتَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى ٱلْبُغْيَةِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ. قَالَ ٱلشَّيْخُ: وَأَكْثَرُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّهَا ٱلِاخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقِصَارِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى ٱلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ. وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ: لَمْحَةٌ دَالَّةٌ. وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ فِي ٱلْحَذْفِ وَٱلِاخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لِحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَأَنَّ ٱلْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي ٱلتَّخَلُّصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ: (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ). وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ: (إِنَّ ٱلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ). فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ. كَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى: فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا أَوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ ٱلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلْحَذْفِ وَٱلِاخْتِصَارِ. وَمِنْ هٰذَا أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ أَمَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ ٱلْكَاتِبَ أَنْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ ٱلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَأَنْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو: كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كُتِبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٍّ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ. وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَٱعْتَمِدْ عَلَى أَيِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ. وَسَأَذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ. ثُمَّ أَذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ. فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا. وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا. وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فكرك وارشدك عقلك حين حيرك سمعك وغشك مخبرك وان الانسان باختلاف المسموع يتحير ويضل بغش المخبرين ويسومهم في ما يخبرون به فيميز له عقله الصواب من الخطإ ويرشده الى الحقائق ويخرجه من الحيرة. وقال مطلب العرائي للاسكندر: اخلاقك تجعل العدو صديقا واحكامك تجعل الصديق عدوا ويشهد لك عدم مثلك في ما يكون. (قال الشيخ) فانظر الآن كم معنى حسن تحت هذه الالفاظ القليلة يعني ان حسن خلقه يرد عدوه الى صداقته وان عدل حكمه لا يفرق بين عدو وصديق وان عدم مثله في ماضي الدهور قد شهد بان مثله لا يكون في مستقبل العصور. وهذا كلام منقول الى العربية ولعله بلغته كان افصح واحسن. ولما شاور ابو مسلم بعض الفرس في امره قال له: قل ما يقبل وخذ ما يسهل واعمل ما يجمل. فجمع له بهذه الكلمات الثلاث اكثر معاني السياسة. وفي ما يروى ان بعضهم راى شابا لا ادب له وعليه خاتم ذهب فقال: حمار عليه لجام ذهب. ونظر الى شاب احمق قاعدا على حجر. فقال: هذا حجر قاعد على حجر. وقال ارسطاطاليس: الحاجة الى العقل اقبح من الحاجة الى المال. وقال: غير محب الشرف هو الذي يتعب نفسه بالنظر في العلم. وقال سقراط: اللذة خناق من عسل. وراى سقراط طبيبا جاهلا فقال: هذا مستحث. يعني يعجل بمن يعالج الى الموت. وقيل لبعض تلامذته: قد مات استاذك. فقال: الويح لي

لقد ضاع مسن عقلي

(قال الشيخ) وهذا اكثر من ان يحصى في كلام العجم ولا سيما في علمائهم ووزرائهم الذين اخرجوا كلامهم مخرج التوقيع. فمن ذلك ما يحكى ان انوشروان وقع في ولاية الخراج: الخراج عمود الملك وما استنزر بمثل الجور ولا استغزر بمثل العدل. ووقع ايضا في رقعة رجل وكيل له امره ببناء قصر فاخره: انت ماش والايام راكضة والعمل باع والعناية فتر. (قال الشيخ) وابيات الشعر كثرت امثال العرب وزادت على امثال سائر الامم وان كان في غير العرب الشعر ايضا على قديم الوقت فللفرس اشعار لا تضبط كثرة ولليونانيين اشعار دون الفرس. وكان افلاطون بعض من يقول الشعر ويقول في ذمه: ان الشاعر مصور للسمع والمزوق مصور للبصر. فاما الفرس ففي منثور اخبارهم وذكر حروبهم اشعار كانت تدون وتخلد في الخزائن التي كانت بيوت الحكمة ثم درس اكثرها مع درس كلامهم وبقي من اشعار العرب السوائر من الامثال تجري على افواه اهل زمانهم. وحكى ابو حاتم عن ابي عبيدة انه اوصل الى احمد بن سعيد بن سهل الباهلي اربعة عشر الف مثل عربي بعضها في الجلود وبعضها في القطني وبعضها في القرطاس فتفردت العرب من بين الامم بكثرة الامثال... ومن توقيعات العجم توقيع اردشير بن بابك وكان اهل زمانه قحطوا فرفعوا اليه قصة يشكون ذلك فوقع

إِلَى صَاحِبِ بَيْتِ ٱلْمَالِ: إِذَا قَحِطَ ٱلْمَطَرُ جَادَتْ سَحَائِبُ ٱلْمَلِكِ. فَفَرِّقْ فِيهِمْ مَا قَاتَهُمْ وَمَانَهُمْ. وَشُكِيَ مِثْلُ ذٰلِكَ إِلَى قُبَاذَ بْنِ كِسْرَى فَوَقَّعَ لِيَكُنْ بِنَا ٱلْبِرُّ لِلرَّعِيَّةِ وَٱلْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ فَإِنِّي وَإِيَّاهُمْ فِي نَفْعِ ذٰلِكَ مُسْتَوُونَ. وَمَدَحَ رَجُلٌ مِنَ ٱلْخَاصَّةِ كِسْرَى بْنَ قُبَاذَ بِمَدْحٍ أَطْنَبَ فِيهِ وَأَسْهَبَ وَذَهَبَ كُلَّ مَذْهَبٍ وَكَانَ ٱلْمَدْحُ فِي رُقْعَةٍ. فَوَقَّعَ فِيهَا كِسْرَى إِنِّي لِلْمَدْحِ مُسْتَصْغِرٌ لِعِلْمِي بِأَشْيَاءَ قَدْ مُدِحَتْ وَكَانَتْ بِأَنْ تُذَمَّ مَحْقُوقَةً. وَوَقَّعَ أَنُوشِرْوَانُ فِي رُقْعَةِ مُتَنَصِّحٍ: ثَمَرَاتُ ٱلنَّصَائِحِ شُكْرُ ٱلْجَوَارِحِ. وَخَرَجَ ٱلتَّوْقِيعُ إِلَى وَزِيرٍ لَهُ أَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: قَدْ جَمَعْنَا إِلَى شُكْرِ ٱللِّسَانِ شُكْرَ ٱلْيَدِ وَهُوَ ٱلْبَذْلُ. وَوَقَّعَ كِسْرَى فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ سَأَلَهُ فِيهَا ٱلنُّقْلَةَ عَنْ صِنَاعَتِهِ إِلَى صِنَاعَةٍ غَيْرِهَا وَكَانَتْ صِنَاعَتُهُ خَسِيسَةً فَٱخْتَارَ صِنَاعَةً رَفِيعَةً فَوَقَّعَ فِي رُقْعَتِهِ: أَنَا حَامِلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَلَى لُزُومِ مَنَازِلِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلِنَفْسِي عَلَى مَا يُحْمَلُ عَلَى ٱللُّزُومِ لَهَا

وَمِنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ جَمْعُ ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ فَقَدْ سُئِلَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ فَقِيلَ لَهُ: مَا لَنَا نَرَى فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْقَلِيلِ عِدَّةَ مَعَانٍ. فَقَالَ: إِنَّ كَلَامَ ٱلْعَرَبِ أَوْعِيَةٌ وَٱلْمَعَانِي أَمْتِعَةٌ فَرُبَّمَا جُعِلَتْ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلْأَمْتِعَةِ فِي وِعَاءٍ وَاحِدٍ... وَحُكِيَ عَنْ جَعْفَرِ ٱبْنِ يَحْيَى وَكَانَ قَرِيعَ دَهْرِهِ بَلَاغَةً فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَجُودَةَ لِسَانٍ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا كَانَ ٱلْإِيجَازُ كَافِيًا كَانَ ٱلتَّطْوِيلُ عِيًّا وَإِنْ كَانَ ٱلتَّطْوِيلُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَحَكَى ٱلْمُفَضَّلُ قَالَ: قُلْتُ

لِأَعْرَابِيٍّ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: ٱلْإِيجَازُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْإِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ. وَوَصَفَ ٱلْجَاحِظُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَدْعِي مَعْنًى مِنْ بُعْدٍ. قَالُوا: وَٱلْبَلِيغُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَٱلْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحْصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا. وَحَالًا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱسْمِهَا. وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا. أَحَدُهَا ٱلْمُسَاوَاةُ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ كَٱلْقَالَبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ. وَٱلثَّانِي ٱلْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى ٱلْمَعْنَى بِٱللَّمْحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّبْدِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِعَيْنِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقْتٌ لَا يَصْلُحُ فِيهِ غَيْرُهُ وَسَأَذْكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلْفِقَرَ ٱلْمُخْتَارَةَ وَٱلْمَعَانِيَ ٱلْمَجْمُوعَةَ بِٱللَّفْظِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمِنَ ٱلْأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلْأُولَى قَوْلُهُ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدْتَهُ.

ٱلْعَيْشِ يَكْدُرُ. ٱلْمُرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي نَجِيُّ ذِكْرِكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلِٱسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: أَعْلَمْ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ مِنْكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلِٱنْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: أَشْكُرُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتَى مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

ٱلرَّابِعَةُ: رَحِمَ ٱللّٰهُ ٱمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ. ٱلْخَامِسَةُ: لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ. ٱلسَّادِسَةُ: ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ٱلشِّعْرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ وَٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ. وَقَوْلُ عُمَرَ: هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمْ: ٱلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ. وَقَوْلُهُمْ: إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُمْ: رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ. رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ. رُبَّمَا قَتَلَ ٱلْبَلِيغَ لِسَانُهُ. ٱلْعُيُونُ عُنْوَانُ ٱلْقُلُوبِ. ٱلْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ ٱلْعُيُونِ. مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ ٱتَّسَعَ لِسَانُهُ. وَقَوْلُ ٱلْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ: يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا. وَقَالَ آخَرُ: يَسْبِقُ ٱلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْوَصْفَ. عُوجُ ٱللَّبَانِ طَوْعُ ٱلْعِنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ. وَقَوْلُهُمْ: ٱلْفِكْرَةُ مُخُّ ٱلْعَمَلِ. وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ ٱلْكُدْيَةَ. فَقَالَ: ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللّٰهِ عِنْدِي. وَقَوْلُهُمْ: حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ ٱسْتِمَاعُهُ. دَلَّ ٱلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ. ٱلْبَادِئُ أَظْلَمُ. حِفْظُ ٱلْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ ٱلْمَفْقُودِ. مَنْ عَزَّ بَزَّ. سَرَّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ. سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ: سَلَامَتِي. ٱلْمَلَقُ شُكْرُ ٱلضَّعِيفِ. ٱلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَٱلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ. اِقْضِ دُيُونَ ٱلْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِٱللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ ٱلْإِمْكَانِ. مَنْ وَاكَلَكَ فِي ٱلرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي ٱلْبَلَاءِ. عَجَبًا لِلْخَيْرِ ٱلْمَمْدُوحِ ٱلْمَتْرُوكِ وَٱلشَّرِّ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمَفْعُولِ. مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ. مَنْ أَسَاءَ ٱسْتَوْحَشَ. سَاعَاتُ ٱللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ ٱلْغَفْلَةِ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. عِنْدَ صَفْوِ

خيبة امل او عدولا عن اغتفار زلل او فتورا عن لمّ شعث واصلاح خلل . كتب آخر : انا اسأل الذي رحم العباد بك على حين افتقارهم اليك ان يرحمهم من بعدك فلا يعيدهم الى المكاره التي استنقذهم منها بيدك . وقال الحسن بن وهب للمأمون في رجل مذنب : هبهُ لي . فقال : كيف لا اهبهُ لمن به قدرت عليه . وقال عبد الله بن طاهر : القلم يحرك وشي المملكة . ونظر الى خط بعض كتّابه فلم يرضهُ فقال : نحّوا هذا عن مرتبة الديوان فانهُ عليل الخط ولا نأمن ان يعدي غيره . وقال ابراهيم بن العباس الصولي : الخطّ لسان اليد . وقال يحيى بن خالد : مطل الغريم احسن من مطل الكريم . وكان يحيى يقول : من حقوق النبل ان تتواضع لمن هو دونك وتتصدق على ضعيفك وتنصف من هو مثلك وتتنبل على من هو فوقك

الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قد توجد اجناس الاشياء التي تنظر فيها الخطابة من الامور الارادية ثلاثة كما يوجد عدد اصناف السامعين للقول الخطبي ثلاثة . وذلك ان الكلام مركب من ثلاثة من قائل وهو الخطيب ومن مقول فيه وهو الذي يعمل فيه القول ومن الذين يوجَّه اليهم القول وهم السامعون . والغاية بالقول انما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين . والسامعون لا محالة اما مناظر واما حاكم واما المقصود اقناعهُ . والحاكم اما ان يكون حاكما في الامور المستقبلة وهي النافعة والضارة . واما في الامور التي قد كانت . والامور التي قد كانت منها ما توجد في الانسان باختياره وتلك هي الفضائل والرذائل ومنها ما توجد في الانسان بغير اختياره بل من انسان آخر وهو الجور والعدل . والحاكم في الامور المستقبلة هو

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هذِهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ). وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخُطْبِيَّةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ. وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ. وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لٰكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَمْدَحُونَ وَيَذُمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مَدَحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَامِّهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسهِ)

وَأَمَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ أَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ أَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ أَنَّ هٰذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

الثلاثة إنما تكون الفصول المعطاة فيها من قبل هذه الغايات. وقد يدل على أن هذه الغايات هي خاصة بواحد واحد من هذه الأجناس الثلاثة من الأقاويل أنه إذا أقنع كل واحد منها في غاية الجنس الآخر ربما لم يكن للمناظر في ذلك معاسرة ومشاكسة بل كثيرًا ما يسلم له ذلك ولكن لا يسلم له غاية ذلك القول التي تخصه. مثال ذلك أن المدعي إذا ادعى أن فلانًا أخذ المال من فلان وذلك لا شك ضرر به فربما يسلم له الخصم أن ذلك كان ولكن لا يسلم له أن أخذه المال منه كان على جهة الجور. وكذلك المشير قد يسلم أن الفعل الممكن جور ولا يسلم أنه ضار ولمكان تداخل هذه الغايات يعرض للمشيرين كثيرًا أن يشيروا بأشياء ضارة على جهة المغالطة من قبل أنها عدل أو أنها ليست بجور ولكن لا يقرون بأنها ضارة بل ربما احتالوا في دعوى وجود النفع فيها. مثال ذلك أنهم قد يشيرون بالصبر على الموت في الحرب وألا يفرون لكون الفرار جورًا في الشريعة. وكذلك متى قهر قوم قومًا واستولوا عليهم ربما أشار المشير عليهم ألا يمتعضوا لذلك القهر لأنه لم يكن جورًا وربما أوهم فيه أنه غير ضار لهم. وكذلك المادح قد يسلم أن الشيء ضار ولكن يدعي أنه فضيلة مثل من يخلص إنسانًا من الموت ويعلم أنه يموت بتخليصه ذلك الإنسان. فالموت يسلم الخصم أنه ضار ولكن يرى أنه فضيلة. وكذلك ربما مدح بالرذيلة على جهة

المغالطة من جهة أنها نافعة لكن لا يقر أنها رذيلة بل يدعي فيها أنها فضيلة ما لمكان النفع الذي فيها فإذن كل واحدة من هذه المخاطبات قد تستعمل غاية صاحبتها بالعرض ولذلك لا تشاكس فيها وتشاكس ولا بد في غايتها. وإذا استعملت الواحدة غاية صاحبتها فعلى جهة المغالطة. (قال) ولما كانت هذه الصناعة قياسية فمعلوم أنه يجب أن تكون فيها مقدمات ومقدماتها هي الثلاث التي وصفنا: المحمودات والدلائل والعلامات. وذلك أن القياس المطلق يكون من المقدمات المطلقة والقياس الخاص بصناعة صناعة يكون من مقدمات خاصة. ولذلك كان الضمير قياسًا يأتلف من هذه المقدمات التي ذكرنا ولأن الأمر الذي يشير به يحتاج أن يعرف من أمره أولًا أنه ممكن لأن الأمور الغير الممكنة لا يستطاع أن تفعل لا في الحاضر ولا في المستقبل. وكذلك يحتاج في الجنسين الباقيين من أجناس هذه الصناعة أعني إن نميز أولًا أن الأمر قد كان ووقع أعني الجنس التثبيتي والجنس المشاجري. فإذن لا بد لصاحب هذه الصناعة أن تكون عنده مقدمات يقنع بها في أن الأمر ممكن أو غير ممكن وفي أنه قد كان أو لم يكن سوى المقدمات التي يبين بها تلك الغايات الثلاث. ثم أيضًا لما كان الخطباء ليس يقتصرون على المدح والذم والإذن والمنع والشكاية والاعتذار بل يتكلفون مع هذا أن يثبتوا أن الأمر الذي هو خير أو شر عظيم أو صغير

شَرِيفٌ أَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ أَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ إِمَّا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ أَعْنِي أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَشْرَفُ أَوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا أَنَّ ٱلْخَيْرَ أَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ أَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ أَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَبْتَدِئَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ أَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَأَوَّلُ مَا يَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ أَوْ أَنْ لَا تَكُونَ فَأَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا أَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلِاضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا أَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَإِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي إِلَيْنَا أَنْ تَكُونَ أَوْ أَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْأَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِنْ قِبَلِ ٱلْاخْتِيَارِ وَٱلْإِرَادَةِ. وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ أَوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَأَفْعَالِنَا عَلَى ٱلْأَكْثَرِ وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلِاتِّفَاقِ وَأَقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْأَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا إِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِشَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ أَوَّلًا هَلِ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ إِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِأَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نَرْوِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي أَيِّ ٱلْأَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْأُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْأُمُورُ ٱلِاضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ إِلَيْنَا وُجُودُهَا وَإِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ أَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى أَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا أَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا أَصْدَقُ وَأَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ هُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْأَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي أَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ أَعْنِي أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمِ

المنطق ومن علم السياسة الخلقية وان فيها اشياء جدلية او شبيهة بالاشياء الجدلية وايضا سوفسطائية او شبيهة بالسوفسطائية. والاشياء التي في صنائع كثيرة انما تكون اجزاء لصناعة واحدة متى اخذ جميعها بالجهة والحال التي بها تكون تلك الاشياء الكثيرة متعاونة ونافعة في غرض تلك الصناعة الواحدة وطرح منها الاحوال التي بها تختلف اعني الاشياء التي ليست تكون بها معنية في غرض تلك الصناعة الواحدة. واذا كان ذلك كذلك فالاشياء الخلقية انما صارت جزءا من هذه الصناعة من حيث هي معدة نحو الكلام والمخاطبة وهي من صناعة السياسة من حيث هي احد الموجودات التي نقصد معرفتها وعلمها. والاشياء الجدلية والسوفسطائية انما صارت جزءا من هذه الصناعة من حيث انه الذي تستعمل منها هذه الصناعة هو سابق المعرفة الاولى للانسان لا ما هو بعيد عن معرفة الجمهور مثل انها انما تستعمل من القياس القياس المعروف عند الجمهور وهو التمثيل والضمير وكذلك الحال في الامور السوفسطائية انما تستعمل منها ما جرت العادة باستعماله عند الجمهور مثل مواضع الاطلاق والتقييد وغير ذلك مما يستعمله بطباعهم الجمهور فهي انما تخالف هذه بمقدار النظر وقد تخالف ايضا بمقدار النظر هذه الصناعة في الامور الارادية النظر الذي للعلم السياسي فيها اعني انها انما تنظر في الامور الارادية النظر الذي هو في سابق المعرفة للانسان وتدع تقصي النظر في ذلك

للعلم السياسي منها. والامور التي يشير بها الخطيب منها ما يشير به على اهل مدينة باسرهم ومنها ما يشير به على واحد من اهل تلك المدينة او جماعة

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قال): فاما الاشياء التي تكون فيها المشورة في الامور العظام من امور المدن فهي قريبة من ان تكون خمسة. احدها الاشارة بالعدة المدخرة من الاموال للمدينة. والثاني الاشارة بالحرب او السلم. والثالث الاشارة بحفظ البلد مما يرد عليه من خارج. والرابع الاشارة بما يدخل في البلد ويخرج عنه. والخامس الاشارة بالتزام السنن. فالذي يشير بالعدة يحتاج ان يعرف ثلاثة امور احدها ان يعرف غلات المدينة ما هي اعني هل هي نبات او حيوان او معدن او جميع هذه او اثنان منها كيما ان نقص من الفاضل منها للعدة شيء اشار بالزيادة فيها. والثاني ان يعرف مع ذلك نفقات اهل المدينة كلها. والثالث ان يعرف اصناف الناس الذين في المدينة فان كان فيها انسان بطال

وهو الذي لا فضيلة عنده او عاطل وهو الذي لا صناعة له اشار بتنحيته من البلد. وان كان هنالك عظيم النفقات في غير الجميل او غير الضروري اشار بأخذ ذلك الفضل من المال منه فانه ليس يكون الغناء بالزيادة في المال بل وبالنقصان من النفقة ولذلك قيل : قلة العيال احد اليسارين

(قال) ومن الضرورة الداعية الى هذه الاشياء ومقدار الحاجة اليها يقف الخطيب على ما يحتاج ان يشير به في واحد واحد من هذه الاشياء. وليس يحتاج عند الاشارة بالزيادة في النبات ان يكون فلاحا ولا في الحيوان ان يكون راعيا لكن يكفيه في ذلك معرفته بمقدار الحاجة اليها لكن يحتاج مع هذا ان يكون عالما بالسير المتقدمة في هذه الاشياء وما عند الناس فيها. واما المشير بالحرب او السلم فانه يحتاج ان يعرف قوة من يحارب وقوة من يحارب ومقدار الامر الذي ينال بالمحاربة هل هو يسير او عظيم وحال المدينة في وثاقتها وحصانتها وضعف اهلها وقوتهم. وفي صغر المدينة او في عظمها اعني هل مقدارهم مقدار من يستطيع المحاربة ام ليس مقدارهم ذلك المقدار. وهل هم بصفة من تمكنهم المحاربة ام ليس هم. وان يعرف مع ذلك شيئا من الحروب المتقدمة ليصف لهم كيف يحاربوا ان اشار عليهم بالحرب ويهون عليهم امر الحرب. او يعرفهم بما في الحرب من مكروه ان اشار عليهم بترك الحرب. وقد يحتاج ان يعرف ليس

حال اهل مدينته فقط بل وحال من في تخومه وثغره اعني كيف حالهم في هذه الاشياء وحالهم مع عدوهم في الظفر به او العجز عنه فانه يأخذ من هاهنا مقدمات نافعة في الاشارة عليهم بالحرب او السلم. ويحتاج مع هذا ان يعلم الحروب الجميلة من الحروب الجائرة وان يعلم حال الاجناد هل هم متشابهون في القوة والشجاعة والرأي واجادة ما فوض الى صنف صنف منهم من القيام بجزء جزء من اجزاء الحرب. اعني ان يكونوا في ذلك متشابهين فانه ربما كثروا وتناسلوا حتى يكون فيهم من لا يصلح للحرب او للجزء من الحرب الذي فوض اليه القيام به. وقد ينبغي مع هذا ان يكون ناظرا ليس فيما افضت اليه محاربتهم بل وفيما افضت اليه حروب سائر الناس من المتقدمين المشابهين لهم فان الشبيه يحكم منه على الشبيه. اعني انه ان كان افضت الحروب الشبيهة بحربهم الى مكروه ان يشير بالسلم وان كانت افضت الى الظفر ان يشير بالحرب. واما حفظ البلاد فانه يحتاج المشير بالحفظ ان يعرف كيف تحفظ البلاد وما مقدار الحفظ المحتاج اليه في طارئ طارئ وكم انواع الحفظ. ويعرف مع هذا المواضع التي يكون حفظها بالرجال وهي التي تسمى المسالح. فان كان الحفظ لتلك المواضع قليلا زاد فيهم وان كان فيهم من لا يصلح للحفظ نحاه ممن ليس يقصد قصد المحاماة عن المدينة بل يقصد قصد نفسه. وينبغي له ان يحفظ اكثر من ذلك المواضع الخفية

اعني التي المنفعة بحفظها اكثر . فمن عرف هذا فقد يمكنه ان يشير بالحفظ وان يكون خبيرا بالبلاد التي يشير بحفظها . واما الاشارة بالقوت وسائر الاشياء الضرورية التي تحتاجها المدينة فانه يحتاج المشير فيه ان يعرف مقدارها وكم يكفي المدينة منها وكم الحاضر الموجود في المدينة من ذلك وهل ادخل الكافي من ذلك في المدينة واحرز ام لم يدخل . وما الاشياء التي ينبغي ان تخرج من المدينة وهو الفاضل عن اهل المدينة . وما الاشياء التي ينبغي ان تدخل وهو ما قصر عن الضروري لتكون مشورته وما يعهد به على حسب ذلك فانه قد يحتاج المرء ان يحفظ اهل مدينته لامرين: احدهما لمكان ذوي الفضائل والثاني لمكان ذوي المال الذين من اجل ذوي الفضائل . والحافظ للمدن يحتاج بالجملة الى ان يكون عارفا بجميع هذه الانواع الخمسة عند حفظه لها

(قال) واما النظر في وضع السنن والاشارة بها فليس بيسير في امر المدن فان المدن انما تسلم ويلتئم وجودها بالسنن ولذلك قد ينبغي لواضع السنن ان يعرف كم اصناف السياسات واي سنة تنفع في سياسة سياسة واي سنة لا تنفع واي ناس تصلح بهم سنة سنة وسياسة سياسة واي ناس لا تصلح بهم وان يكون يعرف الاشياء التي يخاف ان يدخل منها الفساد على المدينة . وذلك اما من الاضداد من خارج واما من اهل المدينة فان سائر المدن ما عدا المدينة الفاضلة قد تفسد من قبل السنن

الموضوعة فيها وذلك اذا كانت السنة مفرطة الضعف واللين او مفرطة الشدة وسواء كانت في رأي او في خلق او في فعل وذلك ان السياسة التي تسمى الحرية قد يظهر من امرها انها تنتقل كثيرا من قبل هذا المعنى الى رئاسة الخسة اعني رئاسة الشهوات او رئاسة المال والذي قاله ظاهر عندنا من امر ذوي السياسات التي وصلتنا اخبارهم

(قال) وليس يؤول الامر في هذه السياسة اعني سياسة الحرية الى سياسة الاخساء من قبل استرخاء السنن ولينها وان كان ذلك هو الاكثر بل ومن قبل الافراط فان كثيرا من الاشياء اذا افرطت بطل وجودها كما يبطل وجودها من قبل الضعف والتقصير . ومثال ذلك ان الفطس اذا افرط وتفاقم كان قريبا من ان يظن انه ليس هنالك انف واذا كان غير مفرط قرب من الاعتدال

(قال) ويحتاج مع ذلك ان يعرف السنن التي وضعها كثير من الناس فانتفعوا بها في سياسة سياسة من السياسات المشهورة وفي امة امة ليستعمل منها النافع الذي يخصه والامة التي تخصه . ولذلك تبين ان معرفة واضع السنن بامزجة الناس واخلاقهم وعاداتهم مما ينتفع به في وضع السنن فان من ها هنا يمكن ان يضع السنن النافعة لجميع الامم المختلفة الطبائع . واما الفساد الداخل على المدن من خارج اعني من الاعداء فامر ظاهر بنفسه

وقد كتب الناس في الاوجه التي يتوقع منها غلبة الاعداء والاوجه التي يتحرز بها منهم . ومن هذه الاشياء يأخذ المقدمات التي يشير بها على اهل مدينته بالتحفظ من الاعداء وما قلنا في وضع السنن وما يحتاج اليه واضعها هو من علم السياسة لا من علم الخطابة . وانما يذكر منها هاهنا ما يكفي في هذه الصناعة

البحث الخامس

في السبب الذي من اجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قال) فهذه هي الامور العظمى التي بها يشير المشيرون على اهل المدن وفيها دلالة على الاشياء التي منها يشار على واحد واحد من الناس . ونحن قائلون الآن في الاشياء التي منها يكون الاذن والمنع لواحد واحد من الناس ومبتدئون اولا بالاخبار عن الاشياء التي من اجلها يشير المشيرون فيأذنون فيها او يمنعون من اضدادها . ويشبه ان يكون لكل واحد من الناس انفعال ما وتشوق بالطبع للخير الذي يتشوقه الكل لنفسه ويشير به على غيره من غير ان يعرف واحد منهم ما هو ذلك الخير فيختارونه ويؤثرونه على غيره . او اذا سئل عنه اجاب فيه بجواب منبئ عن

طبيعته بل انما عند كل واحد منهم وجوده فقط . واذا سئل واحد واحد منهم عما يدل عليه اسمه اجاب فيه بجواب غير الجواب الذي يجيب فيه الآخر . وانما يؤثره الجميع لمكان هذا الانفعال الموجود له بالطبع عند الجميع وهذا الخير في الجملة هو صلاح الحال واجزاء صلاح الحال . ولذلك فقد ينبغي ان نفصل اولا ما هو صلاح الحال بقول عام ثم نفصل اجزاءه ونخبر عن اضدادها وعن الاشياء التي يكون فيها الاذن والمنع وهي النافعة في صلاح الحال او الانفع فيه او الضارة فيه او الاضر فيه فان بهذا يتم لنا القول في الاشياء التي منها تلتئم الاقاويل المشورية المستعملة مع جميع الناس

(قال) والذين تكلموا في هذه الصناعة فلم يتكلموا من هذه الاشياء الا فيما يجري مجرى الامور الكلية مثل انهم قالوا : ينبغي للخطيب ان يعظم الشيء الصغير اذا اراد تفخيمه ويصغر الشيء الكبير اذا اراد تهوينه . وينبغي له ان لا يأذن في الاشياء التي تفسد صلاح الحال وفي الاشياء التي تعوق عن صلاح الحال او تتجاوز صلاح الحال الى ضده . ولم يقولوا ما هي الاشياء التي بها يعظم الشيء او يصغر ولا ما هي الاشياء التي توجب اختلال صلاح الحال او تعوقه او تتجاوزه الى ضده

(قال) فاما صلاح الحال فهو حسن الفعل مع فضيلة وطول من العمر وحياة لذيذة مع السلامة والسعة في المال وحسن الحال

عند الناس مع تحصيل الأشياء الحافظة لهذه الأشياء والفاعلة لها . وقد يشهد أن هذا هو رسم صلاح الحال المشهور أن جميع الناس يرون أن صلاح الحال هو هذا أو شيء قريب من هذا وإذا كان صلاح الحال هو هذا فأجزاؤه هي كرم الحسب وكثرة الإخوان والأولاد واليسار وحسن الفعل والشيخوخة الصالحة وفضائل الجسد مثل الصحة والجمال والجلد والجزالة والبطش والنجد والجلالة والسعادة والفضيلة وأجزاؤها مثل العقل والشجاعة والعفاف والعدالة والبر فإنه هكذا أحرى أن يكون الإنسان موفورا مكفيا أعني إذا كانت له الخيرات الموجودة من خارج . والخيرات الموجودة فيه النفسانية والجسدانية والتي من خارج هي الحسب والإخوان والمال والكرامة وقد يظن أنه يعد مع هذه نفوذ الأمر والنهي والاتفاقات الجميلة وهي المسماة عند الناس سعادة فإن بهذه الأشياء تكون حياة المرء في سيرته حياة من لا ينقصه شيء من خارج ولا يشوب خيره شيء مضاد . وإذا كان هذا هكذا فيجب أن ننظر في كل واحد من هذه ما هو بحسب النظر المقصود هنا وهو النظر المشهور . فأما الحسب فهو أن يكون القوم الذين هو منهم هم أول من نزل المدينة أو يكونوا قدماء النزول فيها ويكونوا مع هذا حكاما أو رؤساء ذوي ذكر جميل وكثرة عدد وأن يكونوا مع هذا أحرارا لم يجز عليهم سباء أو يكونوا ممن نال الأمور الجميلة المقبولة عند الناس وإن لم

يكونوا حكاما ولا رؤساء . فأما النظر في الحسب هل هو من الرجال فقط أو من النساء فالظاهر من ذلك والمتفق عليه عند الجميع أنه يكون أتم إذا كان من كليهما . وينبغي أن يستعمل الخطيب من ذلك المشهور في أمة أمة . ومن شروط الحسب أن يكون الرؤساء والأحرار من أولئك القوم الذين شهروا بالفضيلة واليسار وغير ذلك من المكرمات لم ينقطع وجودهم في القوم الذين هو منهم إلى وجوده هو بل يوجد في ذلك الجنس أبدا أشياخ بهذه الصفة يخلفهم غلمان في تلك الخصال . فإنه إن انقطع الشرف في ذلك الجنس الذي هو منهم لم يكن حسيبا وإن لم ينقطع منهم فهو حسيب وإن انقطع فيمن ولد منهم . وأما حسن الحال بالأولاد وكثرتهم فهو مما لا خفاء به وحسن الحال بالأولاد المشترك للجميع هو كثرة الفتيان وصلاحهم في فضائل الجسد وفضائل النفس . أما في فضائل الجسد فأربع إحداها الجزالة وهي أن تكون خلقهم خلقا طبيعية يفوقون فيها كثيرا من الناس . والثانية الجمال . والثالثة الشدة . والرابعة البطش فبهذه الأربع يكون الغلمان صالحين في فضائل أجسامهم . وأما في فضائل النفوس فيكونون باثنتين بالعفاف والشجاعة . وأما ما قد يكون به صلاح حال بعض الناس فكثرة الأولاد من الذكور والإناث . وصلاح الحال بالإناث أيضا يكون بفضيلتين في الجسد والنفس . أما في الجسد فاثنتان العبالة وهو عظم الأعضاء العظم الطبيعي

وكثرة اللحم الطبيعي لا اللون والجمال . واما في النفس فثلاث العفاف وحب الالفة وحب الكد فان بهذه الفضائل يكمل المنزل وهذه الفضائل التي قلنا سبيلها ان توجد في النساء كلهن اللاتي من نسب ذلك الرجل على العموم وفي الرجال كلهم على العموم وفي اولاده الذكور خاصة اذ كان الولد به الصق . وقد ينبغي للخطيب ان ينظر هل الفضائل التي هو منها هي هذه الفضائل عندهم اعني في اولادهم ام ليس هي هذه فان كثيرا من الامم يربون اولادهم الذكور والاناث بالزينة والسمن وهؤلاء يقول فيهم ارسطو انه قد فاتهم النصف من صلاح الحال بالابناء . فاما اجزاء اليسار فبكثرة الدنانير والارضين والعقار والاثاث والامتعة والمواشي وجميع الاشياء المختلفة في النوع والجنس . وكل ذلك اذا كانت هذه الاشياء في حفظ ومع حرية وان يكون فيها متمتعا اي ملتذا لا حافظا لها فقط او منميا

(قال) ومن الامور النافعة في اليسار والفاعلة له الاشجار المثمرة والغلات من كل شيء . واللذيذ من هذه هو ما يجنى بغير تعب ولا نفقة وحد الحفظ والاحراز للمال هو ان يكون في الموضع الذي لا يتعذر منه عليه وان يكون بالحال التي يمكن ان ينتفع بها مثل ان اذا كانت ارضا الا تكون سبخة وان كان فرسا الا يكون جموحا . وحد الحرية في المال ان يكون اليه التصرف في المال بالاعطاء والبيع والشراء واما التنعم بالمال

فهو استعماله على طريق التلذذ به . وانما اشترط في الغنى هذا الشرط لانه ان يكون الغنى في استعمال المال احرى منه ان يكون في اقتنائه لان الاقتناء هو فاعل الغنى واما الاستعمال فهو الغنى بعينه واما حسن الفعل على الرأي الصواب فهو الذي يظنه الكل فاضلا وهو الذي يقتني الشيء الذي يتشوقه الاكثر لا محالة او الاخيار من الناس وذوو الكيس والفطنة

(قال) واما الكرامة فانها في زماننا هذا للمعتني بحسن الفعل واكرام الناس اللذين لهم العناية الحسنة بهم هي مكافاة على طريق العدل والحق اذ كانت هذه الافعال ليس تكافئها الدنانير والدراهم . وليس يكرم الذين لهم العناية الحسنة بالناس فقط بل ود الذين يستطيعون ان تكون لهم العناية الحسنة اعني الذين لهم قوة على ذلك وان لم يفعلوا ذلك في حال الاكرام والعناية بالناس التي تستوجب الكرامة هي العناية تخلصهم من الشرور التي ليس التخليص منها بهين او افادتهم الخيرات التي ليس افادتها بالسهل . وهذه الافعال الجميلة هي نكون عن الغنى او السلطان او ما اشبه ذلك مما يكون للانسان به القدرة على امثال هذه الافعال وقد يكرم كثير من الناس على خيرات يسيرة لكنها تكون كثيرة بالاضافة الى ذلك الزمان والى تلك الحال . فكان الكرامة على الاشياء اليسيرة هي بالعرض اي من جهة ما عرض لتلك الاشياء ان تكون كثيرة بالاضافة

الى ذلك الوقت او الحال. واما الاشياء التي تكون بها الكرامة فمنها مشتركة لجميع الامم ومنها خاصة. فالخاصة مثل الذبائح والقرابين التي كانت قد جرت عادة اليونانيين ان يكرموا بها الاموات. ومنها عامة وهي المراتب في المجالس والمسارعة الى اقواله وترك مخالفته والهدايا التي توجب المحبة والقرب. فان الهدية جمعت امرين بذل المال والكرامة ولذلك كانت مستحبة لجميع الناس وكل انسان يجد فيها ما يتشوقه وذلك ان الناس ثلاثة اصناف اما صنف يحب الكرامة واما صنف يحب المال واما صنف يجمع الامرين. والهدية قد جمعت متشوق هذه الاصناف الثلاثة

(قال) واما فضيلة الجسد فالصحة وذلك ان يكونوا عريين من الاسقام البتة وان يستعملوا ابدانهم لان من لا يستعمل صحته فليس تغبط نفسه بالصحة اي ليس هو حسن الحال بها وهو بعيد من جميع الافعال الانسانية او من اكثرها

(قال) واما الحسن فانه مختلف باختلاف اصناف الاسنان فحسن الغلمان وجمالهم هو ان تكون ابدانهم وخلقهم بهيئة يعسر بها قبولهم الآلام والانفعال اي لا يكونون غير محتملين للاذى وان يكونوا بحيث يستلذ ان ينظر اليهم عند الجري والغلبة

(قال) ولذلك ما يرى الناس الغلمان الذين هم مهيأون نحو الخمس

المزاولات واللعبات حسانا جدا ونعني بالخمس المزاولات واللعبات الاشياء التي كان اليونانيون يروضون بها صبيانهم وهي العدو والركوب والمثاقفة والصراع والملاكزة

(قال) وانما كان الناس يرون فيمن كان مهيأ نحو هذه الافعال الخمسة انه جميل لانه مهيأ بها نحو الخفة والغلبة واذا شب امثال هؤلاء الغلمان كانوا لذيذي المنظر عند العمل في الحرب وذلك بحسب الهيئة التي كانوا معدين بها نحو الحرب. واما الشيوخ فجمالهم هو استلذاذ افعالهم في الاعمال التي هي جد وهي التي من اجلها يراض الصبيان على هذه اللعبات الخمس وهي الحروب وان يكونوا مع ذلك يرون غير ذوي احزان ولا غم. وذلك ان الحزن والغم اذا ظهر بالشيخ ظن به ان ذلك الطارئ الذي طرأ عليه مما يضر في شيخوخته مثل الفقر والهوان او غير ذلك

(قال) واما البطش فانه قوة يحرك المرء بها غيره كيف شاء. فانه اذا جذب غيره او دفعه او اشاله او اخرجه او ضغطه وكان هذا الفعل منه بكل من يتصدى له او باكثرهم فهو ذو بطش

(قال) واما فضيلة الضخامة فهو ان يفوت كثيرا من الناس ويجاورهم في الطول والعرض والعمق وتكون مع ضخامته حركاته غير متكلفة لجودة هذه الفضيلة وتكون ضخامته ليس سببها سمنا

وَلَا أَمْرًا مُكْتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا الْهَيْئَةُ الَّتِي تُسَمَّى الْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ الضَّخَامَةِ وَالْجَلَدِ وَالْخِفَّةِ وَذَٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا اقْتَرَنَتِ الْخِفَّةُ مَعَ الْقُوَّةِ أَمْكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِالسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبْلُغْ بِالسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذَٰلِكَ أَنَّ الَّذِي جَمَعَ الضَّخَامَةَ وَالْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَالَّذِي جَمَعَ الضَّخَامَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا الَّذِي جَمَعَ الصِّرَاعَ وَالْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِاسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ الْحِذْقِ بِاسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ وَالْخِفَّةِ وَأَمَّا الَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ الْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا الْخَمْسِ اللُّعَبِ

(قَالَ) وَأَمَّا الشَّيْخُوخَةُ الصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ الْكِبَرِ مَعَ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْحُزْنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ الْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى الشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ الْأَحْزَانِ وَلَا أَنْ أُمْهِلَ إِلَى مُنْتَهَى الشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ الْأَحْزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ الْجَدِّ وَفَضَائِلِ الْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذَٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِمْرَاضًا أَوْ كَانَ الْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدِ اعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحِ الشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذَٰلِكَ إِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ الْعُمْرِ مَعَ الْأَمْرَاضِ لَكِنْ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ الْعُمْرِ غَيْرَ قُوَّةِ الصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

أَعْمَارُهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ مِسْقَامُونَ. وَتَصْحِيحُ هٰذَا هُوَ لِلْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَلَيْسَ فِي تَصْحِيحِهِ فِي هٰذَا الْعِلْمِ مَنْفَعَةٌ وَالْخَطِيبُ إِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذَٰلِكَ بِالشَّيْءِ الظَّاهِرِ

(قَالَ) وَأَمَّا كَثْرَةُ الْخُلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ الْإِنْسَانِ بِالْإِخْوَانِ فَذَٰلِكَ أَيْضًا غَيْرُ خَفِيٍّ إِذَا حُدَّ مَا هُوَ الْخَلِيلُ وَالصَّاحِبُ. وَهُوَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْفَعُ بِهِ الْآخَرَ لَا الْخَيْرَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ. وَإِذَا كَانَتِ الْخُلَّةُ وَالصُّحْبَةُ هِيَ هٰذِهِ فَبَيِّنٌ أَنَّ الْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ الْحَالِ بِالْإِخْوَانِ الْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا صَلَاحُ الْجَدِّ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْاِتِّفَاقُ لِإِنْسَانٍ مَا عِلَّةً لِوُجُودِ الْخَيْرِ لَهُ. وَذَٰلِكَ إِمَّا مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَإِمَّا مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجٍ. وَعِلَّةُ الْاِتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ الصِّنَاعَةَ وَقَدْ تَكُونُ الطَّبِيعَةَ وَهُوَ الْأَكْثَرُ. فَمِثَالُ مَا يَكُونُ عَنِ الْاِتِّفَاقِ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُولَدَ الْإِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ الْأُمُورَ الْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ. فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ صَحِيحًا فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ الْاِتِّفَاقَ الطَّبِيعِيَّ مِثْلَ أَنْ يُولَدَ صَحِيحًا. وَقَدْ يَكُونُ الْاِتِّفَاقَ الصِّنَاعِيَّ مِثْلَ أَنْ يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَأَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ. وَأَمَّا الْجَمَالُ وَالضَّخَامَةُ فَعِلَّتُهُمَا الْاِتِّفَاقُ الصِّنَاعِيُّ وَالطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْخَيْرَاتِ الَّتِي سَبَبُهَا الْجَدُّ الَّذِي هُوَ حُسْنُ الْاِتِّفَاقِ هِيَ الْخَيْرَاتُ الَّتِي يَكُونُ الْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا. وَقَدْ يَكُونُ

الجدُّ علةَ لخيراتٍ ليستْ هيَ خيراتٍ بالحقيقةِ وإنما تُرى خيراتٍ بالاضافةِ والمقايسةِ الى الغيرِ. كما قد يكونُ القُبحُ في حقِّ انسانٍ خيرًا ما اذا رُئِيَ غيرُهُ اقبحَ منهُ ومثلَ ان يكونَ انسانانِ وقفا منَ الحربِ في موضعٍ واحدٍ فاصابَ احدَهما السهمُ ولم يصبِ الثاني فانَّ الذي لم يصبْهُ السهمُ يرى انَّهُ قد نالَهُ بالاضافةِ الى صاحبِهِ خيرٌ كثيرٌ . وبخاصَّةٍ ان كانَ ذلكَ الذي لم يصبْهُ السهمُ من عادتِهِ ان يشهدَ الحروبَ كثيرًا والآخرُ لم يشهدْ قطُّ الَّا تلكَ الحربَ وكذلكَ اذا وجدَ الكنزَ واحدٌ ممَّن طلبهُ . قد يرى انَّهُ خيرٌ بالاضافةِ الى من لم يصبْهُ وانْ كانَ الكنزُ يسيرًا فمن هذا ونحوِهِ ينظرُ الخطيبُ في سعادةِ الجدِّ. وامَّا تعريفُ الفضيلةِ فاولى المواضعِ بذكرِها هوَ عندَ القولِ في الاشياءِ التي يُمدَحُ بها. لانَّ الفضيلةَ خاصَّةٌ بالمادحِ ولذلكَ وجبَ ان يكونَ المادحُ هوَ الذي يعرفُ باستقصاءِ الفضيلةَ والفضائلَ وانْ كانَ منها مستقبلٌ وحاضرٌ فالمادحُ انَّما ينظرُ فيها من جهةِ ما هيَ حاضرةٌ والمشيرُ من جهةِ انَّها مستقبلةٌ اي نافعةٌ

البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويهِ)

نبدأُ بمعونةِ اللهِ تعالى في هذهِ المقالةِ بذكرِ الفرقِ بينَ الخيرِ والسعادةِ بعدَ ان نذكرَ الفاظَ ارسطاطاليسَ اقتداءً بهِ وتوفيةً لحقِّهِ فنقولُ : انَّ الخيرَ على ما حدَّهُ واستحسنهُ من آراءِ المتقدمينَ هوَ المقصودُ منَ الكلِّ وهيَ الغايةُ الاخيرةُ وقد يُسمَّى الشيءُ النافعُ في هذهِ الغايةِ خيرًا فامَّا السعادةُ فهيَ الخيرُ بالاضافةِ الى صاحبِها وهيَ كمالٌ لهُ فالسعادةُ اذًا خيرٌ ما. وقد تكونُ سعادةُ الانسانِ غيرَ سعادةِ الفرسِ وسعادةُ كلِّ شيءٍ في تمامِهِ وكمالِهِ الذي يخصُّهُ . فامَّا الخيرُ الذي يقصدُهُ الكلُّ بالشوقِ فهوَ طبيعةٌ تُقصَدُ ولها ذاتٌ وهوَ الخيرُ العامُّ للناسِ من حيثُ هم ناسٌ فهم باجمعِهم مشتركونَ فيها. فامَّا السعادةُ فهيَ خيرٌ ما لواحدٍ واحدٍ منَ الناسِ فهيَ اذًا بالاضافةِ ليسَ لها ذاتٌ معيَّنةٌ وهيَ تختلفُ بالاضافةِ الى قاصديها. فلذلكَ يكونُ الخيرُ المطلقُ غيرَ مختلفٍ فيهِ وقد يُظَنُّ بالسعادةِ انَّها تكونُ لغيرِ الناطقينَ فانْ كانَ ذلكَ فانَّما هيَ استعداداتٌ فيها لقبولِ تماماتِها وكمالاتِها من غيرِ قصدٍ ولا رويَّةٍ ولا ارادةٍ وتلكَ الاستعداداتُ هيَ الشوقُ او ما يجري مجرى الشوقِ

من الناطقين بالارادة. فاما ما يتأتى للحيوانات في مآكلها ومشاربها وراحاتها فينبغي ان يسمى بختاً او اتفاقاً ولا يؤهل لاسم السعادة كما يسمى في الانسان ايضاً. وانما استحسن الحد الذي ذكرنا للخير المطلق لان العقل لا يطلق السعي والحركة الى لا نهاية وهذا اول في العقل. ومثال ذلك ان الصناعات والهمم والتدابير الاختيارية كلها يقصد بها خير ما وما لم يقصد به خير ما فهو عبث والعقل يحتذره ويمتنع منه وبالواجب صار الخير المطلق هو المقصود اليه من كل الناس. ولكن بقي ان يعلم ما هو وما الغاية الاخيرة منه التي هي غاية الخيرات التي ترتقي الخيرات كلها اليها حتى نجعله غرضنا ونتوجه اليه ولا نلتفت الى غيره ولا تنتشر افكارنا في الخيرات الكثيرة التي تؤدي اليه اما تأدية بعيدة واما تأدية قريبة ولا نغلط ايضاً فيما ليس بخير فنظنه خيراً ثم تفنى اعمارنا في طلبه والتعب به وكلاً سنبين بمشيئة الله وعونه

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

الخير على ما قسمه ارسطاطاليس وحكاه عنه فرفوريوس وغيره هكذا قال: الخيرات منها ما هي شريفة ومنها ما هي

ممدوحة ومنها ما هي بالقوة كذلك وما هي نافعة فيها. فالشريفة منها هي التي شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها شريفاً وهي الحكمة والعقل. والممدوحة منها مثل الفضائل والافعال الجميلة الارادية. والتي هي بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الاشياء التي تقدمت. والنافعة هي جميع الاشياء التي تطلب لا لذاتها بل ليتوصل بها الى الخيرات. (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هي غايات ومنها ما هي ليست بغايات. والغايات منها ما هي تامة ومنها ما هي غير تامة. فالتي هي تامة كالسعادة وذلك انا اذا وصلنا اليها لم نحتج ان نستزيد اليها شيئاً آخر. والتي هي غير تامة فكالصحة واليسار من قبل انا اذا وصلنا اليها احتجنا ان نستزيد فنقتني اشياء اخر. واما التي ليست بغاية البتة فكالعلاج والتعلم والرياضة. (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو مؤثر لاجل ذاته ومنها ما هو مؤثر لاجل غيره ومنها ما هو مؤثر للامرين جميعاً ومنها ما هو خارج عنهما. (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو خير على الاطلاق ومنها ما هو خير عند الضرورة والاتفاقات التي تتفق لبعض الناس وفي وقت دون وقت وايضاً منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه وفي جميع الاوقات ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ولا من جميع الوجوه. (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الكمية ومنها ما هو في الكيفية وفي سائر المقولات فمنها كالقوى والملكات ومنها

كالاحوال ومنها كالافعال ومنها كالغايات ومنها كالمواد ومنها كالآلات. ووجود الخيرات في المقولات كلها يكون على هذا المثال اما في الجوهر اعني ما ليس بعرض فالله تبارك وتعالى هو الخير الاول فان جميع الاشياء تتحرك نحوه بالشوق اليه ولان مآل الخيرات الالهية من البقاء والسرمدية والتمام منه. واما في الكمية فالعدد المعتدل والمقدار المعتدل واما في الكيفية فكاللذات. واما في الاضافة فكالصدقات والرئاسات. واما في الاين والمتى فكالمكان المعتدل والزمان الانيق البهج. واما في الوضع فكالقعود والاضطجاع والاتكاء الموافق. واما في الملك فكالاموال والمنافع. واما في الانفعال فكالسماع الطيب وسائر المحسوسات المؤثرة. واما في الفعل فمثل نفاذ الامر ورواج الفعل. (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها معقولات ومنها محسوسات

(واما السعادة) فقد قلنا انها خير ما وهي تمام الخيرات وغاياتها والتمام هو الذي اذا بلغنا اليه لم نحتج معه الى شيء آخر فلذلك نقول ان السعادة هي افضل الخيرات ولكنا نحتاج في هذا التمام الذي هو الغاية القصوى الى سعادات اخر وهي التي في البدن والتي خارج البدن. (وارسطاطاليس) يقول انه يعسر على الانسان ان يفعل الافعال الشريفة بلا مادة مثل اتساع اليد وكثرة الاصدقاء وجودة البخت

(واما اقسام) السعادة على مذهب هذا الحكيم فهي خمسة

اقسام: (احدها) في صحة البدن ولطف الحواس ويكون ذلك من اعتدال المزاج اعني ان يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس. (والثاني) في الثروة والاعوان واشباهها حتى يتسع لان يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويواسي منه اهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه. (والثالث) ان تحسن احدوثته في الناس وينشر ذكره بين اهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الاحسان والمعروف. (والرابع) ان يكون منجحا في الامور وذلك اذا استتم كل ما روى فيه وعزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه. (والخامس) ان يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات في دينه بريئا من الخطإ والزلل جيد المشورة في الآراء. فمن اجتمعت له هذه الاقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك. (واما الحكماء) قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط وافلاطون واشباههم فانهم اجمعوا على ان الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في اول الكتاب (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة). واجمعوا على ان هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن

ولا ما هو خارج البدن فان الانسان اذا حصل تلك الفضائل لم يضره في سعادته ان يكون سقيماً ناقص الاعضاء مبتلى بجميع امراض البدن اللهم الا ان يلحق النفس منها مضرة في خاص افعالها مثل فساد العقل ورداءة الذهن وما اشبههما . واما الفقر والخمول وسقوط الحال وسائر الاشياء الخارجة عنها فليست عندهم بقادحة في السعادة البتة . واما الرواقيون وجماعة من الطبيعيين فانهم جعلوا البدن جزءاً من الانسان ولم يجعلوه آلة كما شرحناه فيما تقدم فلذلك اضطروا الى ان يجعلوا السعادة التي في النفس غير كاملة اذا لم يقترن بها سعادة البدن وما هو خارج البدن ايضاً اعني الاشياء التي تكون بالبخت والجد . والمحققون من الفلاسفة يحقرون امر البخت وكل ما يكون به ومعه ولا يؤهلون تلك الاشياء لاسم السعادة لان السعادة شيء ثابت غير زائل ولا متغير وهي اشرف الامور واكرمها وارفعها فلا يجعلون لاخس الاشياء وهو الذي يتغير ولا يثبت ولا يتحصل بروية ولا فكر ولا يتأتى بعقل وفضيلة فيها نصيباً

ولهذا النظر اختلف القدماء في السعادة العظمى فظن قوم انها لا تحصل للانسان الا بعد مفارقة البدن والطبيعيات كلها . وهؤلاء هم القوم الذين حكينا عنهم ان السعادة العظمى هي في النفس وحدها وسموا الانسان ذلك الجوهر وحده دون البدن ولذلك حكموا انها ما دامت في البدن ومتصلة بالطبيعة وكدرها

ونجاسات البدن وضروراته وحاجات الانسان به وافتقاراته الى الاشياء الكثيرة فليست سعيدة على الاطلاق . وايضاً لما راوها لا تكمل لوجود الاشياء العقلية لانها لا تستتر عنها بظلمة الهيولى اعني قصورها ونقصانها ظنوا انها اذا فارقت هذه الكدورة فارقت الجهالات وصفت وخلصت وقبلت الاضاءة والنور الالهي اعني العقل التام . ويجب على رأي هؤلاء ان الانسان لا يسعد السعادة التامة الا في الآخرة بعد موته . واما الفرقة الاخرى فانها قالت انه من القبيح الشنيع ان يظن ان الانسان ما دام حياً يعمل الاعمال الصالحة ويعتقد الآراء الصحيحة ويسعى في تحصيل الفضائل كلها لنفسه اولاً ثم لابناء جنسه ثانياً ويخلف رب العزة تقدس ذكره في خلقه بهذه الافعال المرضية فهو شقي ناقص حتى اذا مات وعدم هذه الاشياء صار سعيداً تام السعادة وارسطاليس يتحقق بهذا الرأي . وذلك انه تكلم في السعادة الانسانية والانسان هو المركب عنده من بدن ونفس ولذلك حد الانسان بالناطق المائت وبالناطق الماشي برجلين وما اشبه ذلك . وهذه الفرقة وهي التي رئيسها ارسطاليس رات ان السعادة الانسانية تحصل للانسان اذا سعى لها وتعب بها حتى يصير الى اقصاها . ولما راى الحكيم ذلك وان الناس مختلفون في هذه السعادة الانسانية وانها قد اشكلت عليهم اشكالاً شديداً احتاج ان يتعب في الابانة عنها واطالة الكلام فيها . وذلك ان الفقير يرى ان السعادة العظمى

في الثروة واليسار والمريض يرى انها في الصحة والسلامة والذليل يرى انها في الجاه والسلطان والخليع يرى انها في التمكين من الشهوات كلها على اختلافها والعاشق يرى انها في الظفر بالمعشوق والفاضل يرى انها في افاضة المعروف على المستحقين والفيلسوف يرى ان هذه كلها اذا كانت مرتبة بحسب تقسيط العدل اعني عند الحاجة وفي الوقت الذي يجب وكما يجب وعند من يجب فهي سعادات كلها وما كان منها يراد لشيء آخر فذلك الشيء احق باسم السعادة

ولما كان كل واحدة من هاتين الفرقتين نظرت نظرا ما وجب ان نثبت في ذلك ما نراه صوابا وجامعا للرأيين فنقول: ان الانسان ذو فضيلة روحانية يناسب بها الارواح الطيبة التي تسمى ملائكة وذو فضيلة جسمانية يناسب بها الانعام لانه مركب منهما فهو بالخير الجسماني الذي يناسب به الانعام مقيم في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ليعمره وينظمه ويرتبه حتى اذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال انتقل الى العالم العلوي واقام فيه دائما سرمدا في صحبة الملائكة والارواح الطيبة وينبغي ان يفهم من قولنا العالم السفلي والعالم العلوي ما ذكرناه فيما تقدم فانا قد قلنا هناك انا لسنا نعني بالعلوي المكان الاعلى في الحس ولا بالعالم السفلي المكان الاسفل في الحس بل كل محسوس فهو اسفل وان كان محسوسا في المكان الاعلى وكل معقول فهو

اعلى وان كان معقولا في المكان الاسفل. وينبغي ان يعلم انه ليس يحتاج في صحة الارواح الطيبة المستغنية عن الابدان الى شيء من السعادات البدنية التي ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعني المعقولات الابدية التي هي الحكمة فقط. فاذا ما دام الانسان انسانا فليس تتم له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الابدية. فالسعيد اذا من الناس يكون في احدى مرتبتين اما في مرتبة الاشياء الجسمانية متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها. واما ان يكون في رتبة الاشياء الروحانية متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور البدنية معتبرا بها ناظرا في علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سابقا لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها. واي امرىء لم يحصل في احدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الانعام بل هو اضل وانما صار اضل لان تلك غير معرضة لهذه الخيرات ولا اعطيت استطاعة تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية وانما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها والانسان معرض لها مندوب اليها مزاح العلة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها وهو مع ذلك مؤثر لضدها يستعمل قواه الشريفة في

الامور الدنيئة وتلك محصلة لكمالاتها التي تخصها. فاذا الانعام اذا منعت الخيرات الانسية حرمت جوار الارواح الطيبة ودخول الجنة التي وعد بها المتقون فهي معذورة والانسان غير معذور. ومثل الاول مثل الاعمى اذا جار عن الطريق فتردى في بئر فهو مرحوم غير ملوم. ومثل الثاني مثل بصير يجور على بصيرة حتى يتردى في البئر فهو ممقوت ملوم. واذ قد تبين ان السعيد لا محالة في احدى المرتبتين اللتين ذكرناهما فقد تبين ايضاً ان احدهما ناقص مقصر عن الآخر وان الانقص منهما ليس يخلو ولا يتعرى من الآلام والحسرات لاجل خدائع الطبيعة والزخارف الحسية التي تعترضه فيما يلابسه وتعوقه عما يلاحظه وتمنعه من الترقي فيها على ما ينبغي وتشغله بما يتعلق به من الامور الجسمانية فصاحب هذه المرتبة غير كامل على الاطلاق ولا سعيد تام. وان صاحب المرتبة الاخرى هو السعيد التام وهو الذي توفر حظه من الحكمة فهو مقيم بروحانيته بين الملإ الاعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ويستنير بالنور الالهي ويستزيد من فضائله بحسب عنايته بها وقلة عوائقه عنها ولذلك يكون ابداً خالياً من الآلام والحسرات التي لا يخلو صاحب المرتبة الاولى منها. ويكون مسروراً ابداً بذاته مغتبطاً بحاله وبما يحصل له دائماً من فيض نور الاول فليس يسر الا بتلك الاحوال ولا يغتبط الا بتلك المحاسن ولا يهش الا لاظهار تلك الحكمة بين اهلها ولا يرتاح الا لمن ناسبه او قاربه

واحب الاقتباس منه . وهذه هي المرتبة التي من وصل اليها فقد وصل الى آخر السعادات واقصاها وهو الذي لا يبالي بفراق الاحباب من اهل الدنيا ولا يتحسر على ما يفوته من التنعم فيها وهو الذي يرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا التي عددناها في السعادات التي في بدنه والخارجة عنه كلها كلاً عليه الا في ضرورات يحتاج اليها لبدنه الذي هو مربوط به لا يستطيع الانحلال عنه الا عند مشيئة خالقه وهو الذي يشتاق الى صحبة اشكاله وملاقاة من يناسبه من الارواح الطيبة والملائكة المقربين وهو الذي لا يفعل الا ما اراده الله منه ولا يختار الا ما قربه اليه ولا يخالفه الى شيء من شهواته الرديئة ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ولا يلتفت الى شيء يعوقه عن سعادته وهو الذي لا يحزن على فقد محبوب ولا يتحسر على فوت مطلوب. الا ان المرتبة الاخيرة تتفاوت تفاوتاً عظيماً اعني ان من يصل اليها من الناس يكون على طبقات كثيرة غير متقاربة وهاتان المرتبتان هما اللتان ساق الحكيم الكلام اليهما واختار المرتبة الاخيرة منهما..

(واذ قد لخصنا امر هاتين المنزلتين من السعادة القصوى) فقد تبين بياناً كافياً ان احداهما بالاضافة الينا اولى والاخرى ثانية ومن المحال ان نسلك الى الثانية من غير ان نمر بالاولى.. ثم اعلم ان من عني ببعض القوى التي ذكرناها دون بعض او تعمد لاصلاحها في وقت دون وقت لم تحصل له السعادة التامة...

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِالشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ.

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ ٱلْاِنْسَانُ هٰذَا ٱلِاعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكْتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ اِلَى شَيْءٍ اَصْلًا. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ اَرْبَعَةُ اَجْنَاسٍ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْحَافِظَةُ لَهُ وَمَا يَلْزَمُ ٱلْفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ اَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيْءِ وَكَذٰلِكَ اَيْضًا لَازِمُ ٱلْمُفْسِدِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلْمُفْسِدِ. وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَنْهِي عَنْهَا وَلُزُومُ ٱلْغَايَةِ لِلْفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثْلَ مَا يَلْزَمُ ٱلْمَدْحَ اقْتِنَاءُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَمْدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَاَخِّرًا مِثْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي يَتْبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ اِمَّا بِٱلذَّاتِ وَاِمَّا بِٱلْعَرَضِ. وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ ٱثْنَانِ اِمَّا قَرِيبٌ مِثْلُ فِعْلِ ٱلْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَاِمَّا بَعِيدٌ مِثْلُ ٱلطَّبِيبِ. وَٱلَّذِي بِٱلْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَاِذَا كَانَ وَاجِبًا اَنْ تَكُونَ اَصْنَافُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ فَبِٱضْطِرَارٍ اَنْ تَكُونَ ٱلْاُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا مِثْلُ نَفْعِ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيْرٌ مَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا فِي ٱلْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنْفَعُ فِي ٱلْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ اَحَدُهُمَا اَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا مِثْلَ ٱسْتِفَادَةِ ٱلصِّحَّةِ عَنْ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثْلُ ٱلْمَشَقَّةِ ٱلْيَسِيرَةِ فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ. وَمِنْهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنْهَا مِثْلُ مَا يَنَالُ رُكَّابُ ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ اِذَا طَرَحُوا اَمْتِعَتَهُمْ فَاِنَّ

فاعلات اشياء اخر من صلاح الحال مثل فاعلات اللذة وفاعلات السيرة الحسنة. ولذلك ما يظن باليسار انه خير اذ كان سببا لهذين الامرين الشريفين احدهما اللذة والآخر حسن السيرة وصلاح الحال بكثرة الاخوان قد يوجد فاعلا لاشياء كثيرة من الخيرات وذلك اذا كانت الصداقة التي بينهما من اجل المحبة نفسها لا ان تكون المحبة بينهما من اجل شيء آخر فان الاخوان الذين بهذه الصفة هم يفعلون الكرامة والتمجيد وغير ذلك مما يجري مجراهما من الخيرات وذلك يكون منهم بالقول والفعل فان الاقوال والافعال التي تفعل بها الكرامة والتمجيد وغير ذلك مما يجري مجراهما هي خير ونافع

(قال) ومن النافعات بذاتها الملكات الطبيعية التي يكون الانسان بها مستعدا لاشياء حسنة. مثل الذكاء والحفظ والتعلم وخفة الحركات. وكذلك الكمالات مثل العلوم والصنائع وكذلك السير المحمودة وهذه كلها مع انها نافعة في غيرها هي خير في نفسها وان لم يتصل بها خير آخر فهي خيرات منفردة بانفسها مختارة لذاتها والبرء ايضا خير نافع

(قال) فهذه هي الخيرات التي يعترف بها ويجتمع انها خيرات ونافعات ومتى بين في شيء منها انها خير فذلك بيان لا على طريق المراء والمغالطة المستعملة في هذه الصناعة. واما اذا بين في شيء من اضداد هذه انها خير وفيها انها شر فذلك يكون في هذه

طرح امتعتهم شر لكن تستفاد منه السلامة من شر هو اعظم وهو العطب. والخيرات التي تستفاد من الخيرات يسميها ارسطو فوائد باطلاق واما تلك فيسميها انتقالا ويعني بذلك انها انتقال من شر الى ما هو اخف شرا منه او انتقال من شر الى ما هو خير

(قال) والفضائل وان كانت غايات فهي ايضا خيرات في انفسها ونافعة في الخير فان المقتنين لها هم بها حسنو الاحوال وهي مع هذا فاعلة للخير ومستعملة فيه

(قال) وقد ينبغي ان نخبر عن كل واحد من هذه وكيف هي خير في نفسها وكيف هي فاعلة للخير ونفصل الامر في ذلك. واللذات ايضا هي خير بنفسها لان جميع الحيوان يشتاق اليها. والامور اللذيذة انما تكون خيرا اذا كان بها الملتذ حسن الحال وقد يستبين من التصفح انها خير وانها قد تكون نافعة في الخير واجزاء صلاح الحال. وبالجملة منها ما هي غايات فقط. ومنها ما قد تعد غايات وهي نافعة ايضا في الغايات. وذلك ان لبعضها ترتيبا عند بعض اعني ان بعضها علة لوجود بعض ومتقدم عليه. ومثال ذلك ان الشجاعة والحكمة والعفاف وكبر النفس والنبل وما اشبهها من فضائل النفس قد تختار اشياء كثيرة من اجزاء صلاح الحال من اجلها. وكذلك الصحة والجمال من فضائل الجسد قد تختار اشياء من اجلها هي من صلاح الحال وهي فاعلاتها وكذلك تختار

الصناعة على طريق المراء اعني ببيان سوفسطائي. وذلك ان الشر انما ينفع بالعرض مثل ان يبين خطيب لاهل مدينة ما ان الجبن لهم خير لانهم ان شجعوا خرجوا عن المدينة فنال منهم العدو ولكن الجبن ليس هو خيرًا على الاطلاق وانما كان خيرًا بالاضافة الى اهل المدينة الذين عرض لهم هذا. واما النافع في الاكثر وبالذات للانسان فهو الخير كما ان الشر المضاد للخير هو نافع للاعداء وذلك ان الجبن لما كان شرًا لاهل المدينة بالعرض كان نافعًا للاعداء. والشجاعة لما كانت بالذات خيرًا لهم كانت ضارة بالاعداء الا انه قد يلحق ما هو شر ما للانسان ان يكون ضارًا لعدوه وما هو خير ما له ان يكون نافعًا لعدوه مثل الجبن لاهل المدينة الذين اذا خرجوا عن المدينة لم تكن لهم قوة يقاومون بها عدوهم. فينبغي للخطيب ان يتحرى في كل وقت النافع من هذه الاشياء وهذه القضية ايضًا ليست كلية اعني القائلة ان كل ما يضر العدو ويكرهه نافع وكل ما ينفع العدو ويسره ضار فان كثيرًا ما يكون الامر الواحد ضارًا للانسان وعدوه ونافعًا للانسان وعدوه. فمثال ما هو نافع لكليهما ويسر به كل واحد منهما مفارقة العدو عدوه اذا كانت بعد مقاتلة شديدة بينهما ومقاومة اشفى كل واحد منهما على العطب منها من غير ان يظفر احدهما بصاحبه فانهما اذا افترقا في اثر هذه الحال سر كل واحد منهما بالافتراق ولذلك قد يكون النافع

نافعًا للاعداء ايضًا. واما ما هو ضار لكليهما فكثيرًا ما يوجب صداقة العدو. وذلك اذا كانا متساويين في نزول الشر الوارد بهما من غير ان يفضل احدهما في ذلك صاحبه. وكثير من الامم المختلفة كان اتفاقهم بهذا السبب ولذلك قيل ان الشر قد يجمع الناس فهذا ايضًا احد ما يكون به الشر نافعًا اعني ان يكون الضر النازل بالانسان نازلًا بعدوه. فان ذلك يوجب صداقة العدو وحينئذ يهوى العدو الوارد ضد ما يهواه كل واحد من المتعاديين اللذين ورد عليهما العدو من خارج. وذلك ان كل واحد من المتعاديين يهوى صداقة صاحبه لمكان تعاونهما على العدو الوارد عليهما من خارج. والعدو الوارد يهوى بقاء عداوتهما على حالها او تأكدها. وارسطو يقول: ولذلك كثيرًا ما تنفق النفقات العظيمة وتفعل الافعال الكثيرة في مثل هذا الخير الذي يدفع به الشر العظيم وانما تطيب النفس بالنفقات في مثل هذه الاشياء لظهور ما يلزم عنها من الغاية المطلوبة وقربها حتى كانها اذا وجدت هذه الاشياء وجدت الغاية. وقد يكون الشر المفرط النازل بالعدو ايضًا سببًا للاعتراف بالخير اليسير الذي ناله من عدوه ولولاه لم يعترف به العدو. مثل ما حكى ارسطو انه عرض لبعض الملوك الذين كانوا اعداء لليونانيين انه اشتدت محاربتهم له وحصرهم اياه سنين كثيرة وقتلوا في ذلك الحصار ابنه فسألهم ان يعطوه جثته ليحرقها على عادتهم في موتاهم ففعلوا

ذلك فشكرهم على ذلك واظهر شكرهم عند جميع قومه واهل مدينته. فلولا ما نزل به من الشر العظيم لما شكرهم على هذا الشيء اليسير الذي سمحوا له به كما قال ذلك اوميروش الشاعر

(قال) ومن الاصطناعات النافعة والافعال التي يعظم قدرها عند المصطنع اليهم فيصير به المصطنع الى خير عظيم من المصطنع اليهم ان يختار الانسان انسانا عظيم القدر من جنس ما من الناس له ايضا عدو عظيم القدر في جنس آخر من الناس فيفعل بعدو ذلك الانسان الشر وباصدقائه الخير. مثل ما عرض لاوميروش مع اليونانيين واعدائهم فانه قصد الى عظيم من عظماء اليونانيين في القديم وخصه بالمدح واصدقاءه من اليونانيين. وخص عدوا له عظيما بالهجو هو وقومه المعادين لليونانيين في حروب وقعت بينهما فكان رب النعمة العظيمة بذلك عند اليونانيين وعظموه كل التعظيم حتى اعتقدوا فيه انه كان رجلا الهيا وانه كان المعلم الاول لجميع اليونانيين. وبالجملة ففعل الشر بالاعداء والخير بالاصدقاء من الامور النافعة.

ومن شرط هذا الفعل الذي يعظم موقعه ان يكون ما فعل منه يرى انه لم يمكن الفاعل ولا تيسر له غيره وسواء كان الفعل كثيرا في نفسه او يسيرا وان يظن ان فعله لم يكن لمكان خوف ولا شيء يرجوه بل لان شوقه وهواه قاده الى ذلك فان بهذا يكون الفعل مداوما عليه من الفاعل وهو السهل عليه لان

الافعال التي تكون من اجل خوف انما تكون غير شاقة زمانا يسيرا واذا طال بها الزمان كانت شاقة فانقطعت واذا انقطعت كان من ذلك عداوة من المصطنع اليه للمصطنع. فلذلك يشترط في هذا الفعل ان يكون سهلا على الفاعل فهذه هي شروط الابتداء بالصنائع التي يعظم موقعها ويوجد نفعها. واما المكافاة التي لا يعظم موقعها فهي المكافاة التي لا تكون بحسب ما يهوى المكافئ بالطبع من اكثر الناس وهو ان تكون ناقصة عن الصنيعة التي اسديت اليه اما في الكمية واما في المنفعة واما لانها قد فضلت عند المكافئ وليس يحتاج اليها وهي المكافاة التي يغالط فيها وانما كان المكافئ بالطبع الذي يشتهي ان تكون مكافاته باحد هذه الثلاثة الاحوال لان المكافئ كانه مقصور على الاعطاء فهو انما يشتهي اما الا يلحقه نقص من الخير الذي وصل اليه واما ان يكون النقص اقل من الخير الذي وصل اليه. فاذا لم تكن المكافاة بهذه الصفة بل كانت مقارنة للصنيعة اما في الجنس مثل ان تكون المكافاة على الدنانير بدراهم واما في القوة مثل ان تكون المكافاة على المال بكرامة يقتنى بها مثل ذلك المال فهي المكافاة العادلة لكنها سوقية. فاذا لم تكن المكافاة لا سوقية ولا فيها غبن بل كان المكافئ يعتقد فيه انه ليس اختياره في المكافاة لما هو انقص اكثر من اختياره لما هو

أَزْيَدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَاتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ. أَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَاتَهُ بِٱلْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِٱخْتِيَارٍ لِذَلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذَلِكَ فَإِذَا ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذَلِكَ ٱلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ ٱلْأَصْدِقَاءُ أَعْنِي أَصْدِقَاءَ ٱلْمُكَافِىءِ بِٱلْفِعْلِ وَيَسُوءُ أَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَعَجَّبًا مِنْهُ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَذَلِكَ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمٌ مَوْقِعُهُ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِئَ أَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ ٱلْكَرَامَةِ بِٱلْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ ٱلْمَالِ بِٱلْمَالِ وَمُحِبَّ ٱلْغَلَبَةِ بِٱلْغَلَبَةِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ ٱلَّذِي تُصْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذَلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ أَفْعَالُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِىءِ وَٱلْمُكَافِىءِ أَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِٱسْتِعْدَادِهِمِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَمِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تُنْقِصُ ٱلْمُصْطَنِعَ شَيْئًا ٱلِٱصْطِنَاعَ بِٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْمَوْعِظَةِ

البحث التاسع

في ابثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ يَأْخُذُ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُقْنِعُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ نَافِعٌ أَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ أَجْلِ أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ أَحْيَانًا بِأَنَّ ٱلْأَمْرَ نَافِعٌ وَلٰكِنْ يَدَّعِي أَنَّ هَا هُنَا شَيْئًا هُوَ أَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا أَنَّ ٱلْأَمْرَ أَنْفَعُ وَأَفْضَلُ. فَمِنْهَا أَنَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ ٱلْأَشْيَاءِ فَهُوَ أَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ ٱلْأَشْيَاءِ. وَٱلَّذِي هُوَ أَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَقْصَرُ نَفْعًا. وَٱلَّذِي هُوَ أَكْبَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلْأَصْغَرِ. وَٱلَّذِي هُوَ أَكْثَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلْأَقَلِّ. وَٱلَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ أَكْثَرَ أَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَصِفَاتُ ٱلْخَيْرِ ٱلتَّامِّ هُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ وَأَنْ يَكُونَ مُتَشَوَّقًا عِنْدَ ٱلْكُلِّ وَأَنْ يَكُونَ ذَوُو ٱلْفَضْلِ وَٱللُّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَهُوَ ٱلْخَيْرُ وَٱلنَّافِعُ ٱلَّذِي فِي ٱلْغَايَةِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ لِسَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوصَفُ بِٱلْخَيْرِ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُتَّصِفَةُ بِٱلْخَيْرِ ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِهٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي

جمع هذه الصفات انما يقال فيها انها انفع اذا وجد في واحد منها صفة واحدة من هذه الصفات او اكثر من صفة واحدة. وكل ما كان من هذه الاشياء توجد فيه صفات اكثر من صفات الخير فهو انفع ما لم تكن الصفة الواحدة انفع من اثنتين او من ثلاث. وايضاً فما كان العظيم فيه افضل من العظيم في جنس آخر فالجنس الذي فيه العظيم الافضل هو افضل من الجنس الآخر وما كان الجنس منه افضل من الجنس الافضل فالعظيم من الجنس الافضل افضل من العظيم من الجنس الآخر وهو عكس الاول. ومثال ذلك انه ان كان الذكران افضل من الاناث فالرجل افضل من المرأة وان كان الرجل افضل من المرأة فالذكران افضل من الاناث. وانما كان ذلك كذلك لان نسبة العظيم الى جنسه هي كنسبة العظيم الآخر الى جنسه فتكون نسبة الجنس الى الجنس هي نسبة العظيم الى العظيم. ثم اذا كان الشيء لازماً لشيء ما والآخر غير لازم له فان الذي يلزم عنه الشيء آثر من الذي لا يلزم عنه الشيء. مثال ذلك السلطان والثروة فان الثروة تلزم السلطان وليس يلزم السلطان الثروة. فلذلك السلطان افضل من الثروة وكذلك الحال في المضار فان الفقر يلزم عنه البخل وليس يلزم عن البخل الفقر. فالفقر اكثر شراً من البخل واللازم يوجد على ثلاثة اقسام: اما ان يوجدا معاً اعني اللازم والملزوم مثل وجود الابيض والبياض

معاً ومثل لزوم الانسان والحيوان. واما ان يوجد اللازم تابعاً بآخرة مثل لزوم العلم عن التعلم. واما ان يكون تلازمهما في القوة اي يكون احدهما يفعل فعل الآخر ولا ينعكس اعني الا يفعل الآخر فعل الاول. مثال ذلك الفقر والبخل فان الفقر يلزم عنه ان يفعل الانسان فعل البخل وليس يلزم عن البخل فعل الفقر فان الفقر يعوق عن اشياء اكثر من عدم استعمال المال الذي هو البخل وايضاً الذي يفعل الخير الانفع هو انفع من النافع. مثال ذلك الجلد والجمال فان كليهما نافع وخير والجلد يفعل به خير اعظم مما يفعل بالجمال فهو اعظم نفعاً. وكذلك الصحة ايضاً اعظم نفعاً من اللذة لان الصحة يفعل بها خيرات اكثر مما يفعل باللذات. وايضاً فان الذي يختار مفرداً افضل نفعاً من الذي لا يختار الا مع ذلك المختار مفرداً. ومثال ذلك ان الجمال لا يختار الا مع الصحة والصحة تختار دون الجمال فالصحة افضل نفعاً من الجمال. وايضاً اذا كان شيئان احدهما كمال والآخر طريق الى الكمال فالذي هو كمال افضل. مثل الصحة واللذة فان الصحة كمال واللذة كون والكون طريق الى الكمال. واذا كان شيئان احدهما يختار لذاته والآخر يختار من اجل غيره فالذي يختار من اجل نفسه افضل من الذي يختار من اجل غيره. مثال ذلك الحكمة واليسار فان الحكمة تختار لذاتها واليسار يختار لغيره. وايضاً فان الذي يجعل المرء اذا اقتناه اقل

حَاجَةً إِلَى أَصْدِقَائِهِ أَوْ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ حَاجَةً. فَإِنَّ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ كِفَايَةً وَٱسْتِغْنَاءً عَنِ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى أَشْيَاءَ قَلِيلَةِ ٱلْعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلثَّانِي وَٱلثَّانِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ هُوَ آثَرُ. مِثَالُ ذَٰلِكَ ٱلْيَسَارُ وَٱلْبُنُونَ فَإِنَّ ٱلْبَنِينَ يُحْوِجُونَ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَالِ وَٱلْيَسَارُ لَيْسَ يُحْوِجُ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْبَنِينَ فَٱلْيَسَارُ أَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِرَادَةَ مَبْدَأُ ٱلْخَيْرِ وَفِعْلُ ٱلْخَيْرِ أَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ. وَكَذَٰلِكَ ٱلتَّعَلُّمُ وَٱلْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ ٱلْمَبْدَأَيْنِ أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي يَكُونُ عَنِ ٱلْمَبْدَإِ ٱلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَعَكْسُ هٰذَا أَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَأَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَكَذَٰلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى أَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ ٱلْمَبْدَأُ ٱلْفَاعِلُ إِلَى ٱلْغَايَةِ أَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْغَايَةِ. وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ هُوَ ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ ٱلْغَايَةُ وَأَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَيْضًا أَنَّ ٱلْغَايَةَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْمَبْدَإِ. وَذَٰلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا ٱلْغَايَةُ لَكَانَ ٱلْفَاعِلُ فَضْلًا. فَمِثَالُ مَا تَجْعَلُ ٱلْغَايَةُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي ٱلذَّمِّ: إِنَّ

فُلَانًا أَوْلَى بِأَنْ يُنْسَبَ إِلَى ٱلْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ ٱلَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَٰلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفِعْلُ إِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ هُوَ ذَٰلِكَ ٱلْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذَٰلِكَ ٱلضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ ٱلْفَاعِلُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْغَايَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: فُلَانٌ أَحَقُّ بِٱلشُّكْرِ عَلَى هٰذَا ٱلْفِعْلِ مِنْ فُلَانٍ لِأَنَّ فُلَانًا هُوَ ٱلَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَٰلِكَ ٱلْفِعْلِ وَلَوْلَا إِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذَٰلِكَ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا ٱلْمَوْضُوعَيْنِ مَا قَبْلَ ٱلْغَايَةِ إِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ ٱلْغَايَةِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي وُجُودُهُ أَقَلُّ فَهُوَ أَفْضَلُ مِثْلُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْحَدِيدِ غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذَّهَبُ أَقَلَّ وُجُودًا مِنَ ٱلْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ أَنْفَعَ. وَأَيْضًا مُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ أَنَّ مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا يُقَالُ إِنَّ ٱلْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ مَا هُوَ أَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَلَّ وُجُودُهُ وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيُتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ أَنَّ مَا سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ إِلَيْهِ. وَأَيْضًا ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي ضِدُّهُ أَعْظَمُ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَيْضًا ٱلَّذِي عَدَمُهُ أَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ ٱلْأَعْظَمِ وَٱلْأَقَلِّ عِظَمُ ٱلْمُقَايَسَةِ فِي ٱلْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْغَايَاتِ وَٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا تُفْعَلُ ٱلْأَفْعَالُ إِذَا كَانَتِ ٱلْغَايَاتُ بَعْضُهَا أَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ أَوْ أَزْيَدَ شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلْأَزْيَدِ هِيَ

ازيد. وايضاً فانّ ما كانَ مِنَ الملكاتِ والفضائلِ وبالجملةِ الاشياء الفاعلةُ اعظمُ فانَّ افعالها الصادرةَ عنها تكونُ اعظمَ لانَّ نسبةَ الافعالِ الى مبادئها هي نسبةُ المبادئ بعضها الى بعضٍ. فانَّهُ ان كانَ البصرُ آثرَ مِنَ الشمِّ فانَّ الابصارَ آثرُ من الشمِّ وهكذا يوجدُ الامرُ في جميعِ الافعالِ مع اسبابها الفاعلةِ ليسَ في الذاتيةِ فقطْ بلْ وفيما يعرضُ عن الشيءِ بالاتفاقِ فانَّ العظيمَ يكونُ الاتفاقُ الذي يعرضُ لهُ عظيماً وفي الاعراضِ الموجودةِ في الشيء اعني انَّ الشيءَ الاعظمَ العرضُ الموجودُ فيهِ اعظمُ. وايضاً انْ يُحبَّ الانسانُ صاحبَ المالِ افضلُ مِنْ انْ يُحبَّ المالُ لانَّ حُبَّ الانسانِ افضلُ مِنْ حُبِّ المالِ. وايضاً فانَّ الفضائلَ افضلُ مِنْ ذوي الفضائلِ والاشياءَ التي شهوتُها فاضلةٌ افضلُ مِنَ التي شهوتُها غيرُ فاضلةٍ. مثالُ ذلكَ انَّ شهوةَ العلومِ فاضلةٌ وشهوةَ الاكلِ والشربِ غيرُ فاضلةٍ فالعلومُ افضلُ مِنَ الاكلِ والشربِ. وايضاً عكسُ هذا وهو انَّ ما هوَ افضلُ فشهوتُهُ افضلُ مثلَ انَّ الحكمةَ افضلُ مِنَ الصحةِ فشهوتُها افضلُ مِنْ شهوةِ الصحةِ. وايضاً فانَّ العلومَ التي هيَ احسنُ وافضلُ فافعالها خيرٌ وافضلُ. مثالُ ذلكَ انهُ لمّا كانتِ العلومُ العلميةُ افضلَ مِنَ العمليةِ كانَ فعلُها الذي هوَ الصدقُ افضلَ مِنَ التي فعلُها العملُ. وعكسُ هذا وهوَ انَّ التي فعلُها افضلُ مِنَ العلومِ فهيَ افضلُ وذلكَ انَّ الوقوفَ على الحقِّ لمّا كانَ افضلَ مِنَ العملِ كانتِ

الصنائعُ العلميةُ افضلَ مِنَ العمليةِ وانما كانا هذانِ الموضعانِ متلازمينِ لانَّ نسبةَ الصناعةِ الى الصناعةِ هيَ نسبةُ فعلها الى فعلها

(قالَ) والذي يحكمُ بهِ الكلُّ مِنَ الجمهورِ اوِ الاكثرُ اوْ ذوو الالبابِ والاخيارُ الصالحونَ انهُ خيرٌ وافضلُ فهوَ افضلُ باطلاقٍ وفي نفسهِ اذا كانَ حكمُهمْ في الاشياءِ بحسبِ فطرهمْ وكانوا ذوي لبٍّ لا بحسبِ ما استفادوهُ مِنَ الآراءِ مِنْ خارجٍ. فانَّ ذوي الالبابِ مِنَ الناسِ قدْ يقولونَ بفطرهمْ في الفضائلِ والخيراتِ ما هيَ وكمْ هيَ وعندَ ايِّ شيءٍ هيَ وانْ كانَ ما يقفونَ عليهِ بفطرهمْ دونَ ما يوقفُ عليهِ مِنْ ذلكَ في العلومِ. وما قيلَ في حدِّ الخيرِ مِنْ انهُ الذي يتشوقهُ الكلُّ انما يرادُ بذلكَ الخيرُ الذي يتشوقهُ الكلُّ بحسبِ فطرهمِ الطبيعيةِ اعني اللبيبةَ فانَّ ما تتشوقهُ الفطرُ اللبيبةُ بما هيَ فطرٌ لبيبةٌ هوَ خيرٌ مطلقٌ اوْ خيرٌ افضلُ مِنْ خيرٍ مثلُ علمهمْ انَّ الشجاعةَ والادبَ والجلدَ خيراتٌ وتشوقهمْ اياها. واما الذي هوَ خيرٌ بالاضافةِ الى انسانٍ ما مثلُ مَنْ يرى مِنَ الناسِ الفاضلينَ انهُ انْ يُجارَ عليهِ افضلُ مِنْ انْ يجورَ هوَ فانَّ هذا الخيرَ لا يدركهُ الناسُ بحسبِ طباعهمْ وانما يرى هذا الرأيَ الذي هوَ مِنَ الناسِ في غايةِ العدلِ والفضلِ. وايضاً ما كانَ مِنَ الخيراتِ معهُ اكثرَ لذةً فهوَ آثرُ. وانما كانَ ذلكَ كذلكَ لانَّ الكلَّ مِنَ الجمهورِ يبتدرونَ الى اللذةِ ويطلبونها وطلبهمُ اللذةَ هوَ مِنْ اجلِ اللذةِ نفسها لا مِنْ اجلِ شيءٍ آخرَ غيرها. وما

كان بهذه الصفة اعني متشوّقا للكل. فقد قيل انه الخير والغاية فاللذة اذن خير والازيد لذة هي الملذات التي هي ابرأ من الاذى والحزن وادوم بقاء. واللذة الجميلة الذ من اللذة القبيحة لان الجميل مما قد يختار بذاته وان لم يكن لذيذا وهو من الاشياء التي يختار المرء ان يكون علة لكونه اما لنفسه واما لصديقه. وبالجملة فكل ما كان من الاشياء الملذة افضل فهو الذ مما هو اخس وكل ما هو منها اطول مدة فهو الذ من التي هي منها اقصر مدة وكل ما كان من الخيرات اثبت فينا فهو الذ مما هو اقل ثباتا وذلك ان الصحة لما كانت ارسخ فينا من الجمال كان وجود الصحة لنا الذ من وجود الجمال. والاشياء اللذيذة او الاكثر لذة انما السبب في وجودها لنا بهذه الصفة احد امرين اما طول اعتياد الشيء حتى يصير لنا الالتذاذ به من قبل العادة كالحال في اللذة الحاصلة عن العلم. واما من قبل انها لذيذة جدا عندنا بالطبع والهوى فالاشياء اذن انما تصير اكثر لذة اما من قبل طول الزمان واما من قبل الهوى والموافقة التي بالطبع. وجميع الاشياء التي تلائم هوانا ملائمة اكثر فان منفعتها لنا انما تكون في رسوخها وثبوتها. وقد تؤخذ مقدمات الانفع والافضل من مواضع النظائر والتصاريف. وذلك انه ان كانت الشجاعة آثر من العفاف فالرجل الشجاع آثر من الرجل العفيف

(قال) وما اختاره الكل آثر مما لا يختاره الكل من

الجمهور وما اختاره ايضا كثير من الناس آثر مما يختاره القليل من الناس فان الخير كما قيل هو الذي يشتاق اليه الكل. وما اختاره ايضا الحكام الاول اعني الذين لا يأخذون الاحكام من غيرهم وهم الشراع افضل مما لم يختاروه. وما اختاره ايضا الذين يتلقون الاحكام من هؤلاء افضل مما ليس يختاره هؤلاء. والذين يتلقون الاحكام من الحكام الاول وهم الذين تؤخذ عنهم اصول الاحكام صنفان اما سامع فقط مبلغ واما سامع عالم اي قادر على ان يستنبط من تلك الاصول احكاما ما لم يصرح بها الحكام الاول. وهؤلاء صنفان اما مسلطون من قبل الحكام الاول وهم القضاة وما اشبههم واما غير مسلطين وهم الفقهاء. ومن هذه الاشياء ما لجميع اصناف المتلقين من الحكام الاول ان يقولوا فيها. وهو ما سمعوه او ما شاهدوه من الحاكم الاول ومنها ما يختص بذوي العلم منهم وهو القول في الاشياء التي تستنبط عن الاحكام الاول التي صرح بها الحاكم الاول وليس للسامعين دون علم ان يقولوا في هذه الاشياء. واما الذي يخص الحكام الاول القول فيه فهي الاصول التي تتنزل منزلة المبادئ لسائر ما يحكم به السامعون ذوو العلم اعني المسلطين والفقهاء وهي التي يسميها ارسطو الامور العظمى. والفضلاء الابرار الذين جرت العادة ان يأخذ عنهم الجميع او الاكثر فحكمهم افضل فان عدم الاخذ قد يخيل هوانا ونقصا في المرء الفاضل البر

وقلة قبول لقوله وقد يخيل الامر بعكس هذا. وذلك انه ربما كان هؤلاء الابرار الفاضلون مقبولي القول مع انه لم يأخذ احد من الجمهور عنهم اصلا شيئا او انما اخذ عنهم قليل. وذلك ان اقاويل هؤلاء قد يظن بها انها مقبولة بجهة اخرى وذلك انه قد يكون المرضي عند الجمهور من ليس مرضيا في نفسه والاقل من الجمهور وهم ذوو التمييز. وايضا فان الفاضلين الذين كتموا فضائلهم عن الجمهور هم ممدوحون اكثر وهم اقل وجودا واعز لانهم انما كتموا فضائلهم عن الجمهور لما خافوا ان يلحقهم من الكرامات والرئاسات التي يخاف اذا لحقت المرء ان تكون سببا لان تكون هذه الاشياء اللاحقة للفضائل هي المقصودة عنده بالفضائل. فمن ها هنا صارت اقوال هذا الصنف مقبولة كما صارت اقوال الصنف الاول المضاد لهذا مقبولة وهم الذين اخذ عنهم الجمهور

(قال) ومن الصنف المقبول القول من الناس جدا جدا الصنف الذين كراماتهم اعظم لان الكرامة لما كانت مكافاة الفضيلة كان المرء كلما عظمت كرامته ظن به انه قد عظمت فضيلته. والصنف من الناس الذين نالتهم المضرة العظيمة والشقاء الكبير لمكان الفضائل هم ايضا مقبولو الاقوال جدا جدا بمنزلة سقراط وغيره والصنف من الناس الذين يرى فيه هذان الصنفان من الناس اعني الذين كرامتهم اعظم والذين نالهم الضرر

الكبير من قبل الفضائل انهم فاضلون ويعترفون لهم بالفضل هم ايضا افضل واعظم. فهؤلاء هم اصناف الناس الذين اذا اختاروا شيئا واختار غيرهم سواه كان ما يختاره هؤلاء افضل وآثر

(قال) وقسمة الشيء الى جزئياته يخيل في الشيء انه اعظم ولذلك لما اراد اوميروش الشاعر ان يعظم الشر الذي لحق المدينة اخذ بدله جزئياته فذكر قتل الاولاد والنوح عليهم وحرق المدينة بالنار وغير ذلك من اصناف الشرور اللاحقة لها

(قال) وكذلك التركيب قد يخيل في الشيء انه اعظم وهو عكس. هذا اعني ان يؤخذ بدل الجزئيات الكلي الذي يعمها والسبب في الاقناع في هذين الصنفين هو التغيير والابدال

(قال) ولما كانت الاشياء الاعسر وجودا في نفسها والاقل وجودا يظن بها انها افضل كانت الاشياء الكثيرة الوجود في نفسها والسهلة الوجود قد ترى عظيمة اذا وجدت في المواضع التي يقل فيها وجودها او في الازمنة التي يقل وجودها فيها ايضا او في الاسنان من الناس التي يقل وجودها فيها مثل وجود الانسان خطيبا في سن الصبا او في المدد التي ليس من شأنها ان توجد فيه. مثل من يفعل ما شأنه ان يفعل في زمان طويل في زمان قصير او تكون صادرة عن القوى التي يقل صدورها عنها مثل ان يفعل الضعيف فعل القوي والمريض فعل

الصحيح . وكل هذه واشباهها مما يصير الامر الذي ليس بعظيم عظيما ومستغربا . وايضا فان الجزء العظيم من الشيء هو من الاشياء التي هي اعظم مثل القلب من الحيوان والدماغ او الربيع من السنة والشباب من المدينة . وايضا فان النافع فيما الحاجة اليه اشد هو اعظم نفعا والضار فيه اكثر ضررا مثل الصحة في الشيخوخة والمرض فيها . فان الصحة فيها آثر من الصحة في الصبا والمرض فيها اضر . وايضا ما كان من الامرين اقرب الى الغاية فهو افضل . وايضا ما كان في آخر العمر فهو افضل فان الاشياء التي سبيلها ان تكون للناس في آخر اعمارهم هي افضل مثل الحكمة والحلم وغير ذلك من الفضائل التي تكمل مع طول العمر . وايضا الاشياء التي فعلت او قبلت كان فعلها حقيقتها اعظم من التي اذا فعلت لم يكن فعلها حقيقة تامها . وارسطو يسمي التي اذا فعلت كان فعلها حقيقتها التي يتعمد بها الحقيقة ويسمي الاخر التي يتعمد بها المدح اعني التي ليس فعلها حقيقتها

(قال) وحد الاشياء التي يتعمد بها المدح انها التي اذا فعلت بجهل او بغلط لم تمدح اصلا والتي يتعمد بها الحقيقة هي الاشياء التي كيف ما فعلت فقد حصلت على التمام .

(قال) ولذلك كان حسن قبول الشيء الجميل آثر من فعل الشيء الجميل لان فعل الجميل اذا فعل عن غلط او جهل لم يقبل ولا مدح فاعله . واما حسن الانفعال والقبول فكيف ما

حصل فقد استفاد الخير منه القابل له . وايضا ما أوثر فعله لنفسه وان لم يعلم به احد آثر مما لا يختار الا من جهة ما يعلم كالحال في الصحة والجمال . فان الصحة مؤثرة بذاتها والجمال مؤثر للغير . وايضا فان النافعة في اشياء كثيرة فهي انفع كالنافعة في طول العمر وفي حسن العيش اعني العيش الرغد وفي اللذات وفي اصطناع الخيرات . ولذلك ما يظن بالصحة واليسار انهما عظيمان لانهما يجمعان الخلو من الحزن والفعل بلذة اعني ان الصحة هي سبب الفعل بلذة واليسار سبب الخلو من الاحزان . وكل واحد من هذين على الانفراد فاضل ومختار بنفسه اعني الخلو من الاحزان والافعال اللذيذة فاذا اجتمعا لامرئ جعلاه اعظم من كل شيء سواء علم ذلك من علمه او جهله من جهله لان هذه خيرات مستفادة بالحقيقة لا من الخيرات التي يتعمد بها المدح . ولكون اليسار سببا لدفع الاحزان ظن به انه السعادة قوم وآخرون رأوا ان السعادة هي ان يقترن به شيء آخر وذلك واجب من قبل انه احرى ان تكون السعادة ثابتة ومأمونة الزوال . فانه ليس الضرر اللاحق لمن له عينان ففقد احداهما كمن له عين واحدة ففقدها لان الذي له عين واحدة سلب احب مما سلب من له عينان . وكذلك ان كانت السعادة في المال وفي شيء آخر لم يكن الضرر اللاحق عن سلب المال كالضرر اللاحق عن سلبه ان كان هو السعادة وحده

(قال) والكلام في هذه الاشياء كلها ها هنا ليس هو على جهة التصحيح. وانما الكلام فيها بالقدر الذي يحتاج اليه الخطيب من ذلك ويجب للخطيب ابدا متى اتى بالنتائج من امثال هذه المقدمات ان يرفدها بالمثالات المأخوذة من الناس الذين فعلوا تلك الافاعيل فلحقهم النفع او الضرر فلذلك ما يجب للخطيب ان يكون حافظا للقصص والاخبار

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قال) فهذه هي الاشياء التي يثبت بها ان الشيء انفع او اضر. واما الاشياء التي يكون بها الاذن والمنع فقد قيل فيها قبل هذا بما فيه كفاية. لكن اهم واعظم ما فيها هو القول في الاشياء التي بها يقدر على جودة الاقناع في السنن والاشارة بالسنن التي لا يوجد انفع منها. ولذلك قد يجب ان نستقصي القول فيها ها هنا فنقول: ان الاشارة بالسنن النافعة والاقناع التام فيها يتأتى بمعرفة اصناف السياسات والاخلاق والسنن التي تخص سياسة سياسة. وذلك ان في كل واحدة من السياسات سننا نافعة فيها وهي السنن التي بها

يكون خلاص تلك المدينة وقوامها. والسنن النفيسة الخطيرة هي السنن العادلة اعني الموضوعة في العدل التي رسمها الرئيس الاول في تلك المدينة او المسلط عليها من قبل الرئيس الاول. وهذه السنن النفيسة اعني السنن العادلة تختلف في السياسات بحسب اختلاف غاياتها. وعددها على عدد السياسات. مثال ذلك ان العدل في سياسة التغلب انه لا شيء على الرئيس اذا لطم المرؤوس. وفي سياسة الحرية العدل في ذلك ان يلطم الرئيس مثل اللطمة التي لطمها. والسياسات بالجملة اربع السياسة الجماعية وسياسة الخسة وسياسة جودة التسلط وسياسة الوحدانية وهي الكرامية. وهذه السياسات كلها المقصود بالسنن الموضوعة فيها انما هو المدينة والكل لا الشخص. فاما المدينة الجماعية فهي التي تكون الرئاسة فيها بالاتفاق والبخت لا عن استئهال اذ كان ليس في هذه المدينة لاحد على احد فضل. واما خسة الرئاسة فهي التي يتسلط فيها المتسلطون على المدنيين باداء الاتاوة والتغريم لا على جهة ان تكون نفقة للحماة والحفظة ولا عدة للمدينة على ما عليه الامر في السياسات الاخر بل على جهة ان تحصل الثروة للرئيس الاول. فان جعل لهم حظا من الثروة كانت رئاسة الثروة. وان لم يجعل لهم حظا من الثروة كانت رئاسة التغلب وكانوا بمنزلة العبيد للرئيس الاول. وكانت محاماته عنهم بمنزلة محاماة الانسان عن عبيده. واما جودة التسلط فهو التسلط الذي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ أَهْلَ فَضَائِلَ وَٱقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ. وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمَلِكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ. وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخْيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يُحِبُّ ٱلْمَلِكُ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَأَلَّا يَنْقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخْيَارِ. وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ. وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِاحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلْأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَٱلْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نَرُومُ ٱلْإِقْنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

النافعة في الغاية لنها انما تستنبط على جهة التحليل من النظر الى الغاية. فقد تبين من هذا القول من اين توجد المقنعات في النافع من السنن في سياسة سياسة وكم انحاء السياسات والسنن التي تحتذي فيها وذلك بحسب الكافي في هذه الصناعة. واما القول في هذه الاشياء على التحقيق ففي الاقاويل المدنية

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفه في النوع التثبيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذم وتصرف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسه)

(قال) واما بعد هذا فنحن قائلون في الفضيلة والنقيصة والجميل والقبيح لان هذه هي التي يمدح بها ويذم . ويلحق من تعريفنا هذه الاشياء ان نعرف الامور التي بها يثبت المرء فضيلة نفسه اذ كان ذلك هو الطريق الثاني من الطرق الثلاثة التي يقع بها الاقناع كما تقدم من قولنا. وذلك انه نوع من المدح اعني ان يكون بالاشياء التي نقدر بها على مدح غيرنا نقدر بها انفسها على مدح انفسنا. وان لم يكن ذلك يتفق في جميع الاشياء التي يمدح بها الغير بل انما يكون ذلك بالفضيلة فقط

وهي الامور الراجعة الى الاختيار

(قال) ومن اجل انه يعرض كثيرا ان يمدح الناس والروحانيون بالفضيلة وباشياء غير الفضيلة وليس يعرض هذا في مدح هؤلاء فقط بل وفي مدح الاشياء المتنفسة وغير المتنفسة. اعني انها تمدح باشياء خارجة عن الفضيلة. فقد ينبغي ان نقول ها هنا في الاشياء التي تؤخذ منها المقدمات في المدح بالفضائل وبغير الفضائل ليكون القول في ذلك عاما فنقول: ان الجميل هو الذي يختار من اجل نفسه وهو ممدوح وخير ولذيذ من جهة انه خير. واذا كان الجميل هو هذا فبين ان الفضيلة جميلة لا محالة لانها خير وهي ممدوحة. والفضيلة هي ملكة مقدرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير او يظن به انه خير اعني الحافظة لهذا التقدير والفاعلة اه. ولذلك كانت موجدة لكل فعل يقصد به نحو غاية ما جليل القدر عظيم الشأن في حصول تلك الغاية عنه. فاما اجزاء الفضيلة فالبر اي العدل العام والشجاعة والمروءة والعفة وكبر الهمة والحلم والسخاء واللب والحكمة. وهذه الفضائل منها ما هي فضائل في ذات الفاضل فقط ومنها ما هي فضائل من جهة انها تفعل في اناس آخرين وهذه التي تفعل في اناس آخرين تكون اعظم عند قوم منها عند آخرين وفي حال دون حال . مثال ذلك ان فضيلة الشجاعة آثر في وقت الحرب منها في وقت السلم. واما فضيلة العدل فمؤثرة في السلم والحرب

جميعاً. وفضيلة السخاء والمروءة عند المحاويج آثر ومنها عند غير المحاويج. وانما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء بالأقل والأكثر لأن فعل كلتيهما هو في المال لكن المروءة هي فعل اكثر من فعل السخاء. فاما البر فهو فضيلة عادلة يعطي الفاضل بها لكل امرئ من الناس ما يستحق وذلك بقدر ما تأمر به السنة. والجور هو الخلق الذي يأخذ به المرء الأشياء الغريبة التي ليس له ان يأخذها في السنة. واما الشجاعة ففضيلة يكون المرء بها فعالاً للأفعال الصالحة النافعة في الجهاد على حسب ما تأمر به السنة حتى يكون بفعله ذلك خادماً للسنة. واما الجبن فضد هذا. واما العفة ففضيلة يكون بها المرء في شهوات البدن على مقدار ما تأمر به السنة. والفجور ضد هذا. واما السخاء ففضيلة تفعل الجميل المشهور في المال. والدناءة ضد هذا. واما كبر الهمة ففضيلة يكون بها حسن الافعال العظيمة وصغر النفس. والنذالة ضدها. واما اللب ففضيلة العقل الذي يكون به حسن المشورة والروية مع وجود الفضائل الخلقية له التي هي من صلاح الحال. فهذا هو القول في الفضيلة واجزائها بقدر ما يحتاج اليه في هذه الصناعة. واما سائر الأشياء التي يمدح بها مما عدا الفضيلة فليس يعسر الوقوف عليها. وذلك انه معلوم ان فاعلات الفضائل مثل التأدب والارتياض بالأشياء التي بها تحصل الفضائل هي امور حسان وممدوح بها. واما الأشياء التي توجد في الفضائل انفسها اعني الأعراض التي توجد فيها. والأشياء التي توجد تابعة

للفضائل فهي التي يقال فيها الآن وهي علامات الفضائل واعراضها اللاحقة لها. وافعالها انما يمدح بها اذا كانت حسنة محمودة فان كثيراً من افعال الفضائل قد لا يمدح بها وكذلك كثير من الأعراض. فمثال الافعال والأعراض التي هي محمودة افعال الشجعان في الحرب او من فعل في الحرب فعلهم وان لم تكن لهم ملكة الشجاعة. وكذلك الأعراض التي تلحق الشجعان مما يمدح بها. ومثال الأفعال التي لا يمدح بها في وقت ما بذل المال فانه فعل من افعال السخاء لكن ربما كان ذلك الفعل على جهة التبذير. ومثال الأعراض التي لا يمدح بها انفعال المرء عن العدل وقبوله اياه وذلك ان فعل العدل ممدوح واما الانفعال عنه فليس بممدوح لأنه يظن به انه مهانة وضيم. وبالجملة فافعال الفضائل انما تكون ممدوحة اذا كانت مقدرة تقدير العدل ومما يمدح بها الأفعال العظيمة الشاقة التي جزاؤها الكرامة فقط. فان الأفعال التي يكون جزاؤها الكرامة خير من الأفعال التي جزاؤها المال. ولذلك اذا كان فعل يجازى عليه بالأمرين جميعاً ففعلة فاعل من اجل الكرامة فقط مدح به وكل ما يفعله المرء من الفضائل لا من اجل نفسه مدح به. وفعل الأشياء التي هي خيرات باطلاق كذلك مما يمدح به. والأشياء التي في طبيعتها خيرات وان كانت ضارة للفاعل يمدح بها ايضاً. مثل فعل العدل فان العادل كثيراً ما يستضر به.

والأفعال التي تختص بإكرام الأموات ممدوحة لأن الأفعال التي تكون للأحياء إنما يقصد منها المرء أكثر ذلك منفعة نفسه. وبالجملة فكل فعل كان المقصود به الغير ولم يكن ينتفع به الفاعل له أو كان يلحقه منه ضرر فهو ممدوح به. والفعل الذي يكون إلى المحسنين إلى الناس ممدوح به أيضا لأن هذا هو عدل إذ كان ليس ينتفع به الفاعل له. ومما يدل على أن الإنسان ذو فضيلة أن لا يفعل الأفعال التي يفتضح بها أهل الفواحش وأن يؤدبهم بالقول والفعل. وكذلك نصرة ذوي الفضائل ومحمدتهم مما يمدح به. والخجل عند ذكر القبائح مما قد يدل على الفضيلة لأنه يظن به أن الحياء يمنعه عن إتيان تلك الرذيلة. وقد يكون أيضا عدم الحياء عند ذكر الفواحش علامة يمدح بها. وذلك أنه قد يظن أن الإنسان إنما يستحيي عند ذكر القبائح إذا كان قد فعلها أو نالها أو هو مزمع أن يفعلها. مثل ما حكى أرسطو أنه عرض لامرأة مشهورة بالحكمة عندهم وذلك أن إنسانا مشهورا عرض لها بالقبيح بأن قال لها: إني أريد أن أقول قولا يمنعني عنه الحياء فحلمت عنه ولم تجبه بقول قبيح ولم يدركها من ذلك تألم ولا انفعال لأنها كانت ترى لمكان فضيلتها أن أحدا لا يعرض لها لا بمثال ولا بقول كلي (وهما صنفا التعريض). لكنها في تلك الحال جعلت تمتص الفضائل وتمدح أهلها وتتعصب لهم وتحامي عنهم. وكان أيضا من معها لم يأنفوا

أيضا لقول ذلك ولا لتعريضه لعلمهم أن مثلها لا يتهم بمثل هذا

(قال) ولذلك كان التعصب للأشياء التي تكسب المجد والمحاماة عنها قد تجعل المتعصب لها والمحامي عنها من أهل الفضائل التي لا تحصل للإنسان إلا بمجاهدة كبيرة للطبيعة مثل العفاف والشجاعة وغيرهما. وذلك إذا صارت له ملكة بترداد فعلها والتعصب لها والمحاماة عنها كما عرض لهذه المرأة التي اقتصصنا ذكرها مع ذلك الرجل. وذلك أن أمثال هذه الأفعال قد يصير بها الإنسان من أهل الفضائل التي لا تحصل للإنسان إلا بمجاهدة كبيرة

(قال) والإنعام على الغير إذا لم يستفد المنعم منه شيئا هو مما يمدح به ولذلك ما كان العدل والبر يمدح بهما الإنسان من جهة أنهما نافعان كما يمدح بهما من جهة ما هما جميلان. والانتقام أيضا من الأعداء وألا يرضى عنهم في حال مما يمدح به. فإن الانتقام منهم هو جزاء والجزاء عدل والعدل جميل. ومحبة الغلبة أيضا ومحبة الكرامة مما يمدح بهما لأنهما علامتان تدلان على إيثار الفضائل لا لمكان اكتساب مال بهما. أما محبة الغلبة فتدل على إيثار الشجاعة. وأما محبة الكرامة فعلى إيثار جميع الفضائل ولذلك كانت الفضائل الأثيرة المختارة هي التي ليس يقصد بها مقتنيها إلى اكتساب مال. لأن ذلك يدل على شرف

المتهور قد يوهم فيه انه شجاع والسفيه انه كريم. ومثال ما يوهم به انه نقيصة وليس بنقيصة ما يعرض للكبير الهمة من ان يتجافى عن الامور اليسيرة فيظن به انه يغلط ويتخدع. والكبير الهمة انما يصنع ذلك في الامور اليسيرة التي ليس يلحقه منها خوف كبير ولا ضرر شديد وذلك ايضا في الموضع الذي يحسن فيه ان يتغافل عنها. وقد يوهم ايضا هذا الموضع عكس هذا. وهو ان يقال في المتخدع انه كبير الهمة. ومما يمدح به ان يكون المرء يعطي اصدقاءه وغير اصدقائه ومن يعرف ومن لا يعرف لانه يظن ان شرف فضيلة السخاء هو بذل المال للكل

(قال) وقد ينبغي ان يكون المدح بحضرة الذين يحبون الممدوح كما قال سقراط: انه يسهل مدح اهل اثينية باثينيا. وينبغي ان يمدح كل انسان بالذي هو ممدوح عند قومه واهل مدينته ان كان ذلك يختلف

(قال) ومن المدح بالاشياء التي من خارج مدح الآباء وذكر مآثرهم المتقدمة ومدح المرء بما تسمو اليه همته من المراتب. وانه ليس يقتصر على ما حصل له منها. والرجل الكبير الهمة الذي لا يقتصر بهمته على ما نال من المراتب يمدح بهذين الامرين من خارج اعني بفضائل آبائه وبما يؤمل ان يسمو نحوه كما يقال من اي مآثر ابتدأ من قبل آبائه والى اي مآثر ينتهي من قبل همته. واما الذي لا يسمو بهمته الى نيل اكثر مما

الفضيلة ومن الافعال التي يمدح بها التي شأنها ان يبقى ذكرها محفوظا ابدا عند الناس. ومن الاشياء التي يمدح بها الهيئات المحمودة عند قوم التي يجعلونها علامة لذوي الشرف مثل توفير الشعور عند اليونانيين فانه يدل على الشرف اذ كان ليس كل احد يسهل عليه توفير شعره لان الموفوري الشعور لا يعملون عمل من ليس بموفور الشعر ولا يمتهنون باي مهنة اتفقت. والازياء التي كانت تتخذ عندنا هي من هذا النوع الذي ذكره ارسطو

(قال) ومن الشرف الا يحتاج الانسان الى آخرين بل يكون مكتفيا بنفسه

(قال) وقد ينبغي ان ناخذ في المدح والذم الامور القريبة من الفضائل والنقائص وهي النقائص التي قد توجد عنها افعال الفضيلة او الفضائل التي قد توجد عنها افعال النقائص. فيمدح بالنقائص التي توجد عنها افعال الفضيلة بان يوهم انها فضائل من اجل ان تلك الافعال هي من افعال الفضائل. وكذلك يوهم في الفضائل انها نقائص من اجل انه عرض ان وجد عنها افعال النقائص. فمثال النقائص التي توجد عنها افعال الفضائل فتوهم انها فضائل العي الذي قد يكون عنه افعال الحليم فيوهم به انه حليم. والبله الذي قد توجد عنه افعال ذوي السمت فيوهم بذلك انه ذو سمت. وكذلك العديم الحس قد يوهم فيه انه عفيف اذ كان قد يوجد له فعل العفيف بالعرض. وكذلك

حصل له من المرتبة فإنما يمدح من الأمرين اللذين من خارج بآبائه فقط. وكأنه يرى هاهنا أن المدح بمناقب الآباء ليس ينبغي أن يقتصر عليه دون أن يمدح بفضيلة ذاته كما قال الشاعر:

لسنا وإن كرمت أوائلنا ... يوما على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وإنه قد يقتصر بالمدح على الفضيلة دون ذكر الآباء كما قال:

نفس عصام سودت عصاما

(قال) وإنما يكون المدح على الحقيقة بالأفعال التي تكون عن المشيئة والاختيار فإن الفعل الذي يكون بالمشيئة والاختيار هو الفعل الفاضل. والذي يمدح بالأشياء التي تكون بالاتفاق أو بالعرض من أجل أن لها إذا اقترنت بالفضائل تزيينا لها وتفخيما بمنزلة الحسب المقترن إلى الفضيلة وجودة البخت المقترن بأفعال الفضائل. وإنما يدخل في المدح الأفعال التي تكون باتفاق والأعراض التي تقترن بالعرض مع الأفعال التي تكون بالمشيئة متى تكررت مرارا كثيرة على صفة واحدة حتى أوهمت أنها بالذات. وذلك أنه إذا عرض لها ذلك ظن بها أنها علامة للفضيلة مثل أن يخجل الإنسان مرارا كثيرة بالاتفاق في مواضع يمدح الخجل فيها. وإنما دخلت هذه الأشياء في المديح لأن المديح هو قول يصف عظم الفضيلة وهذه الأشياء هي مما تعظم بها الفضيلة. وإذا استعملت هذه الأشياء في المديح فينبغي أن تستعمل

على أنها حدثت عن الروية. والأشياء التي بالاتفاق منها أشياء ليس الإنسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها أشياء تعرض عن الأفعال التي تكون عن الروية. فأما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الأفعال فتؤخذ علامة على الفضائل. وأما الاتفاقات المتقدمة على الإنسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح: إن الخيار يولد في الخيار. وفي الذم: إن الحية تلد الحية. والأفعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل. وأما آثار الأفعال فهي دلائل على الفعل وإنما يمدح بها إذا أثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة البخت التي قيل فيما تقدم إنها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الأشياء الاتفاقية التي يمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما أن صلاح الحال جنس للفضيلة أعني محيطا بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة. وهذان الجنسان أعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعا في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين. وإنما كان الأمر كذلك لأنا إذا عرفنا الأشياء التي يجب أن تفعل فقد عرفنا الأشياء التي إذا فعلت مدح بها الإنسان. ولذلك إذا ذكرت هذه الأشياء ذكرا مطلقا أمكن أن تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة أو الجهة التي بها تدخل في المدح. وذلك مثل ما يقول القائل

إنه ليس ينبغي أن يوجب العظم والفضل للأشياء التي تكون للإنسان بالعرض بل للأشياء التي تكون عن رويته واختياره. فإذا زيد إلى هذا. فلذلك ليس ينبغي أن يمدح الذين سعادتهم بالبخت وإنما ينبغي أن يمدح الذين سعادتهم عن روية واختيار كفلان كان داخلا في باب المدح. وإذا زيد إلى هذا فلذلك لا ينبغي أن تطلب الأشياء التي تكون عن الاتفاق بل الأشياء التي تكون عن الروية دخل في المشورة. والأشياء الاتفاقية قد يمكن أن تستعمل في المديح تارة وفي الذم أخرى. فإن ظنون الناس فيها مختلفة فإن قوما يرون أن الخيرات التي تكون بالاتفاق ليس ينبغي أن يمدح بها إذ كانت شيئا غير محصل ولا مكتسب للإنسان. وقوم يرون أنه يجب أن يمدح بها وأنها تدل على عناية إلهية بالذي تعرض له وأما الأشياء التي عن الاختيار فالممدوح منها يمدح به أبدا والمذموم منها يذم به أبدا

(قال) وينبغي أن يستعمل في المدح الأشياء التي يكون بها تعظيم الشيء وتثبيته وهو أن يخيل في الشيء أنه بالقوة أشياء كثيرة. وذلك إذا قيل إنه أول من فعل هذا كما قيل في قصة هابيل وقابيل. أو إنه وحده فعل هذا. أو إنه فعل في زمان يسير ما شأنه أن يفعل في زمان كثير. أو إنه فعل فعلا كبيرا. فإن هذه كلها إنما تفيد عظم الفعل. وكذلك إذا قيل إنه فعل في زمان يعسر فعله. وذلك إذا كان بحسب ما يشاكل إنسانا

إنسانا. ثم إنه إن كان الفاعل ممن يقتدى به في أفعاله وأقواله مرارا كثيرة فإن فعله عظيم كما قيل: إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم. والأفعال التي يقتدى بها ليست هي الأفعال التي تكون بالاتفاق بل الأفعال التي تكون عن المشيئة والروية. وهذه الأشياء قد يمكن أن تدخل في المشورة أعني الأشياء التي تعظم الشيء مثل أن يشار على المرء أن يتشبه بالممدوح الأول في ذلك الجنس أو يتشبه به في المدح أو يشار عليه أن يكون من جملة الممدوحين الذين لا ينازع أحد في حمدهم. مثل الذين يمدحون في الأسواق أو يتشبه بهم في المدح. ومما يعظم الممدوحين أن يقاسوا بالذين يفعلون أضداد أفعالهم وذلك عند ذكر أفعالهم الفاضلة

(قال) والذين شأنهم أن يتشبهوا بالممدوحين الذين في الغاية ويقايسوا أنفسهم معهم دائما فقد ينبغي أن يشبهوا بأولائك وأن يجروا مجراهم في المدح وإن لم يكونوا وصلوا مراتبهم. فإن فضائلهم في نمو دائم. ومقايسة الإنسان نفسه مع غيره لا تصح إلا من الرجل الفاضل لموضع حب الإنسان لنفسه فهو يرى نقائصه أقل من نقائص غيره وإن كانت أعظم. ويرى فضائله أكثر وإن كانت أصغر ولذلك ليس كل أحد يستطيع المقايسة وإنما يستطيعها الفضلاء من الناس مثل ما حكى ارسطو عن سقراط أنه كان يقايس بينه وبين غيره ويجري الأحكام

على اخلاق نفسه. بمعنى انه كان ينظر بينه وبين غيره فان وجد فيه فضيلة اثاب نفسه عليها وان وجد فيه رذيلة عاقب نفسه عليها. والمقايسة النافعة لمن يريد ان يتزيد في الفضائل انما ينبغي ان يكون بالممدوحين جدًّا. وقد يدلّ على انّ امثال هؤلاء ممدوحون اعني الذين فضائلهم في نموّ دائم. انّ الذين اجهدوا انفسهم في ان يبلغوا مبلغ الفاضلين فعجزوا عن ذلك فهم ممدوحون عند الجمهور. وهو بيّن انّ تعظيم الشيء داخل في المدح. فانّ التعظيم للشيء تشريف له والتشريف من الامور التي يمدح بها. وينبغي اذا اريد التعظيم بالتشبيه ان يشبّه بكثير من المحمودين فانّ في هذا الفعل تشريفًا للممدوح ودلالة للجمهور على فضيلته. وجملة القول في الانواع المشتركة لاجناس الاقاويل الثلاثة انّ التعظيم وان كان مشتركًا لاجناس الاقاويل الخطبيّة الثلاثة فهو اخصّ بالمدح والذمّ. لانّه انما يمدح الانسان او يذمّ بالاشياء الموجودة المعترف بوجودها. وتعظيم الشيء اخصّ بالموجود منه بالمعدوم. ولذلك قد ينبغي للمادح ان يصف جلالة الشيء وبهاءه وزينته. واما استعمال العلامات والمثالات فهو اخصّ بالمشورة لانّ من الامور المتصرّمة التي قد سلفت يحدس على التي ستكون واعطاء السبب والعلّة من الاشياء التي قد سلفت نحن له اكثر قبولًا وتعظيمًا لانقضائه وتصرّمه. واما معرفة العدل والجور فهو خاصّ بالمشاجريّة. وبالجملة فجميع المدح

والذمّ انما يكون بالمقايسة بمن سلف من المحمودين والمذمومين. وقد ينبغي للمادح والذامّ ان يعلم بحضرة من يكون المدح او الذمّ اعني ان يمدح بحضرة الاصدقاء ويذمّ بحضرة الاعداء كما ينبغي له ان يعلم المواضع التي يأخذ منها المدح والذمّ وهي التي سلف ذكرها وهي الفضائل وفاعلاتها وعلاماتها واعراضها وهو بيّن انّ ممّا ذكرناه من حدود هذه الاشياء تعرف حدود اضدادها اذ كان الضدّ يعرف من ضدّه

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

انّ التهاني ليس فيها الّا بسط الكلام والاطناب في شكر نعم الله والتبرّؤ من الحول والقوّة الّا به ووصف ما أعطي من النصر ومُنح من الثبات وتعظيم ما يسّر من الفتح ثمّ ما وصف بعد ذلك من عزم واقدام وصبر وجلد عن الملك وعن جيشه حسن وعمقه فلاق ذكره وراق التوسيع وعذب بسط

الكلام فيه فانه مترتب على ما قدمنا من نسبة النصر الى واهبه والجلد الى معطيه والثبات الى الموفق له ثم كلما اتسع مجال الكلام في ذكر الموافقة ووصفها كان احسن وادل على البلاغة وادعى لسرور الممدوح واحسن لموقع النعمة عنده واشهى الى سمعه واشفى لغليل شوقه الى معرفة الحال على جليته ولا بأس بتهويل امر العدو ووصف جمعه واقدامه فان في تصغير امره تحقير الظفر به

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

الاحسن منها بسط الكلام وتعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب ويجب ان يراعى فيها امور منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة او الحال وقدر النعمة او لقب صاحب التقليد او اسمه لا يكون المطلع اجنبيًا من هذه الاحوال ولا بعيدًا منها ولا مباينًا لها ثم يستصحب ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من اول الخطبة الى آخرها ويحسن ان يكون الكلام منقسمًا في التقليد على اربعة اقسام متقاربة المقادير فالربع الاول الخطبة والثاني ذكر موقع الانعام في حق المقلد وذكر الرتبة وتفخيم امرها

والثالث في اوصاف المقلد وذكر ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله من عدل وسياسة ومهابة وبعد صيت وسمعة وشجاعة ان كان نائبًا ووصف العدل والرأي وحسن التدبير والمعرفة بوجوه الاقوال وعمارة البلاد وصلاح الاحوال وما يناسب ذلك ان كان وزيرًا وكذلك في كل رتبة بحسبها. والرابع في الوصايا وهذه هي القاعدة في مثل ذلك ومنها تراعى المناسبة وما يقتضيه الحال فلا يعطي احدًا فوق حقه ولا يصفه باكثر مما يراد من مثله ويراعي ايضًا مقدار النعمة والرتبة فيكون وصف المنة بها على مقدار ذلك ومنها ان لا يصف المتولي بما يكون فيه تعريض بالمعذول وتنقيص له فان ذلك مما يوغر الصدور ويورث الضغائن في القلوب ويدل على ضعف الآراء في اختيار الاول وله ان يصف الثاني بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالاول ومنها ان يتخير الكلام والمعاني فانه مما يشيع ويذيع ولا يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا ضيق فان مجال الكلام عليه متسع والبلاغة تظهر في القليل والكثير والامر الجاري في ذلك على العادة معروف وفي ايدي الناس مما كتبت فيه شيء كثير لكن تقع اشياء خارجة عن العادة فيحتاج الكاتب الى التصرف فيها على ما يقتضيه الحال

البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ اِنَّ ٱلْاِرْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْاِنْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرٌ رَجِلٌ اِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَضٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ اَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا اُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ اَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا: لَهَنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَكَمَا اَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ اَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلْاِرْتِجَالُ وَٱلْبَدِيهَةُ وَاِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ اِلَّا اَنَّ اَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ:

ٱلْاِرْتِجَالُ هُوَ اَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي اَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَاَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ. وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا اَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

اِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمُ ٱلْعُدُولُ بِٱلشَّهَادَةِ عَلَى ٱسْتِطَاعَتِهِ وَاَنَّ ذٰلِكَ ٱلْمَنْظُومَ اِبْنُ سَاعَتِهِ. وَٱلْبَدِيهَةُ اَنْ يَنْزِلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَلِيلًا وَيُفَكِّرَ مُقَصِّرًا لَا مُطِيلًا فَاِنْ اَطَالَ ذُو ٱلْبَدِيهَةِ ٱلْفِكْرَةَ ٱنْعَكَسَتِ ٱلْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ ٱلْبَدِيهَةِ اِلَى حَدِّ ٱلرَّوِيَّةِ. وَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ ٱلْاِقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذٰلِكَ ٱلْمِضْمَارِ اِذِ ٱلْمُرْتَجِلُ وَٱلْبَادِهُ يُقْنَعُ مِنْهُمَا بِٱلرَّدِيِّ ٱلْيَسِيرِ وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱلْمُرَوِّي اِلَّا بِٱلْجَيِّدِ ٱلْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ:

وَٱلْفِكْرُ قَبْلَ ٱلْقَوْلِ يُؤْمِنُ زَيْغَهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وَقَوْلُ ٱبْنِ جَرِيحٍ:

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقَى مُنْضِجَةً ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَحَسْبُكَ بِهَرَبِ اِمَامِ ٱلشُّعَرَاءِ وَفَاتِكِهِمْ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْاِرْتِجَالِ وَاِذَا كَانَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ وَهْبٍ ٱلرَّاسِبِيّ رَئِيسُ ٱلْخَوَارِجِ فِي يَوْمِ ٱلنَّهْرَوَانِ يَقُولُ وَهُوَ ٱلْبَدَوِيُّ ٱلْفَصِيحُ وَٱلْعَرَبِيُّ ٱلصَّرِيحُ اِيَّاكُمْ وَٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَضِيبَ يَقُولُ هٰذَا فِي مُطْلَقِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ ٱلظَّنُّ بِٱلْمُقَيَّدِ بِهِمَا لَعَمْرِي اَنَّهُ لَمَقَامٌ يَجْبُنُ فِيهِ ٱلشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ ٱلْفِكْرِ فِي طَلَبِ ٱلْاِنْتِجَاعِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ اِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَّامَةً قَالَ: سَمِعْتُ اَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ ٱلْخُطَبِ وَتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ.

فقال: تلخيص المعاني رفق واستعانة بالغريب عجز والتشادق في غير اهل البادية نقص والنظر في عيوب الناس عيّ ومسّ اللحية هلك والخروج مما بني عليه الكلام اسهاب (فقال) وسمعته يقول رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وحليها الاعراب وبهاؤها تخيّر اللفظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه وانشدني بيتاً في خطبة اياد

يومون باللفظ الخفيّ وتارة ... رمي الملاحظ خيفة الرقباء

(وقال) ابن الاعرابي قلت للفضل ما الايجاز عندك قال حذف الفضول وتقريب البعيد (وتكلم) ابن السماك يوماً وجارية له تسمع فلما دخل قال لها كيف سمعت كلامي قالت الى ان تفهمه من لم يفهمه ملّه من فهمه

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرّف)

قال ابن الجوزي في المنتخب: لما كانت المواعظ مندوباً اليها بقوله: فذكّر فانّ الذكرى تنفع المؤمنين وقوله لعمّاله تعاهدوا الناس بالتذكرة. ولانّ ادواء القلوب تفتقر الى ادوية كما تحتاج امراض البدن الى معالجة الفت في هذا

الفن كتباً تشتمل على اصوله وفروعه وكان السلف يقتنعون من المواعظ باليسير من غير تحسين لفظ او زخرفة نطق ومن تأمل مواعظ الحسين بن عليّ وغيره مما اشرت اليه. وكذلك كانت الفقهاء في قديم الزمان يتناظرون من غير معارضة في تسمية قياس علة او قياس شبه ونرجو ان يكون ما اخذت من الالفاظ والاسامي لا يخرج عن مرضاة الاوائل ولذلك ما اخذت من العلماء المذكورين من تحسين لفظ او تسجيع وعظ ولا يخرج من قانون الجواد وما ذاك الا بمثابة جمع القرآن الذي ابتدأ به ابو بكر وثنّى به عثمان في شهر رمضان واذن لتميم الداري ان يقصّ ومثل هذه لا تذمّ لكونها ابتدعت اذ ليست تخارج عن الاصل المشروع وقال الحسن القصص بدعة كم من اخ يستفاد ودعوة تستجاب

قال بعض القدماء انّ الوعظ حبل الله الممدود وعهده المعهود وظله العميم وصراطه المستقيم وحجته الكبرى ومحجته الوسطى وهو الواضح سبيله الراشد دليله الذي من استضاء بمصابيحه ابصر ونجا ومن اعرض عنه ضلّ وهوى حجة الله وعهده ووعيده ووعده به يعلم الجاهل ويعمل العالم العامل وينتبه الساهي ويتذكّر اللاهي بشير الثواب ونذير العقاب وشفاء الصدور وجلاء الامور من فضائله انه يقرأ دائماً ويكتب ويملى ولا يملّ ما اهون الدنيا على من جعل الدين امامه وتصوّر الموت امامه قال بعض الحكماء الحكمة موقظة للقلوب من سنة الغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة

الخيرة ومحيية لها من موت الجهالة ومستخرجة لها من ضيق الضلالة والعلم دواء للقلوب العليلة ومشحذ للأذهان الكليلة ونور في الظلمة وأنس في الوحشة وصاحب في الوحدة وسمير في الخلوة ووصلة في المجلس ومادة للعقل وتلقيح للفهم ونافٍ للعيّ المزري بأهل الأحساب المقصر بذوي الألباب أنطق الله سبحانه أهله بالبيان الذي جعله صفة لكلامه في تنزيله وأيده رسله إيضاحا للمشكلات وفصلا بين الشبهات شرف به الوضيع وأعز به الذليل وسود به المسود من تحلّى بغيره فهو معطل ومن تعطل منه فهو مغفل لا تبليه الأيام ولا تخترمه الدهور يتجدد على الابتذال ويذكو على الانفاق لله على من به من عباده الحمد والشكر. قيل لعمرو بن عبيد ما البلاغة قال ما بلغك الجنة وعدل بك عن النار وبصرك مواقع رشدك وعواقب عملك. قال السائل ليس هذا أريد قال من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول قال ليس هذا أريد قال: قال النبي إنا معشر الأنبياء فينا بكء أي قلة الكلام وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. قال السائل ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت. قال: ليس هذا أريد. قال عمرو: يا هذا فكأنك تريد تخيير اللفظ في حسن الإفهام. قال: نعم. قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله عز وجل في عقول

المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المتبولة عند الأذهان رغبة في سرعة إجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب واستوجبت من الله جزيل الثواب

قال ابن عبد ربه: وأحكم المواعظ مواعظ الله ثم مواعظ الأنبياء ثم مواعظ الآباء للأبناء ثم مواعظ الحكماء والأدباء ثم مقامات العباد بين أيدي الخلفاء ثم قولهم في الزهد ورجاله المعروفين به ثم المشهودين من المنتسبين إليه والموعظة ثقيلة على السمع مستحرجة على النفس بعيدة من القبول لاعتراضها الشهوة ومضادتها الهوى الذي هو ربيع القلب ومراد الروح ومربع اللهو ومسرح الأماني إلا من وعظه علمه وأرشده قلبه وأحكمته تجربته. قال الشاعر:

لن ترجع النفس عن غيها   حتى يرى منها لها واعظ

(وقالت الحكماء) السعيد من وعظ بغيره ولا يعنون من وعظه غيره ولكن من رأى العبر في غيره فاتعظ بها في نفسه ولذلك كان يقول الحسن: اقرعوا هذه النفوس فإنها طلعة وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور واعصوها فإنها إن أطيعت برعت في الشر غاية وكان يقول عند انقضاء مجلسه وختم موعظته يا لها من موعظة لو صادفت من القلوب حياة. وكان ابن السماك يقول

إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ : أَلْسُنٌ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ. وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : لَوْ أُمِرْنَا بِٱلْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ ٱلْمَوْعِظَةِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَجُنُوحَ ٱلنَّفْسِ إِلَى مُخَالَفَتِهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : (أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا) . وَقَوْلُهُمْ : وَٱلشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَٱلْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِلَّا أَنْ تَلَقَّاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَتْهُ ٱلْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ ٱلْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ ٱلتَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ ٱلْإِنَابَةِ (قَالَ ٱلنَّبِيُّ) حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِٱلْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ ٱلنَّارُ بِٱلشَّهَوَاتِ يُرِيدُ أَنَّ ٱلطَّرِيقَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱحْتِمَالُ ٱلْمَكْرُوهِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلطَّرِيقَ إِلَى ٱلنَّارِ رُكُوبُ ٱلشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ ٱلْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) ٱلْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ ٱلْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي ٱلْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ ٱللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ ٱلْآذَانَ . وَقَالُوا مَا أَحْسَنَ ٱلتَّاجَ . وَهُوَ عَلَى رَأْسِ ٱلْمَلِكِ أَحْسَنُ . وَمَا أَحْسَنَ ٱلدُّرَّ . وَهُوَ عَلَى نَحْرِ ٱلْفَتَاةِ أَحْسَنُ وَمَا أَحْسَنَ ٱلْمَوْعِظَةَ . وَهِيَ مِنَ ٱلْفَاضِلِ ٱلتَّقِيِّ أَحْسَنُ . (وَقَالَ زِيَادٌ) أَيُّهَا ٱلنَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي
يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِعُقُودِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضَرَبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبُهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تُلْحِقَهُمْ بِٱلْمَجْذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱنْتَزَعَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ

أَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلسِّرَاعَ وَٱلْإِسْرَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

حَفِّرْ لَهَا مَاءً يُرِيهَا بِدَاءَةً وَٱضْمَنْ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تَحْفِرِ
وَٱرْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ وَٱغْنَمْ إِذَا سَامَتْكَ شَهْوَةُ مُشْتَرِي

قَالُوا ٱلْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلتَّبَسُّطِ فِي بِسَاطِ ٱللَّذَّاتِ وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ ٱلْخَطْوِ فِي مَلْعَبِ ٱلْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا ٱلصَّبْرَ عِيَانًا وَيُبَيِّنُ ٱلْعَوَاقِبَ ٱلْمُحَجَّبَةَ بَيَانًا وَيُنْشِئُ سَحَابَ ٱلْحُزْنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا وَيُذَكِّرُهَا بِمَآلِهَا وَٱنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بِنَائِهَا وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ نُزُولِ هَادِمِ ٱللَّذَّاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِحُكْمِ ٱلِاضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَٱلْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَّيْنِ لِسَانَ حَالٍ وَلِسَانَ مَقَالٍ وَرُبَّمَا كَانَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنَ ٱلْقُبُورِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْقُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْعِظَامِ ٱلْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ. وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ ٱللهِ تَعَالَى ٱلَّتِي بَعَثَ بِهَا ٱلنَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينَ وَٱلسَّوْطَ ٱلَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ دَوْدَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ ٱلتَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَيْنَمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفِرَاسَةِ لِتَذْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ ٱلْفِرَاسَةِ مِنْ ذَاكَ فَمِنْ ذَٰلِكَ مَا صَدَرَ عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ

البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْتَنِفُهُ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلِانْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِاخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيُصْبِحُ ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ ٱسْمُ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْأَنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ: إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

والفوز بحقيقة السعادة اذ قد تكون هي في نفسها صالحة وبها يعم الصلاح فيصير فلاحها اصلًا لفلاح سواها فاستحقت ان يقال فيها بعبارة التخصيص واولئك هم المفلحون وانما يمكن تادية تلك الوظيفة والقيام بها حق القيام لقوم تقدست نفوسهم وتنقت طباعهم وتهذبت اخلاقهم وتنورت عقولهم وصحت افهامهم ورجحت احلامهم وصدقت عزائمهم وعلت هممهم وعرفوا اجناس الخير واحاطوا بانواعه وميزوها من اصناف الشر فربما اشتبه الحال وتمثل كل في صورة الآخر ولولا ذلك لم يكن تميز الخير من الشر امرًا عسرًا اذ كان الاساس الضرر والنفع ولا تجد احدًا يجهلهما ولكن رب ضار في الحال نافع في المآل فيكون خيرًا ورب نافع في الحال ضار في المآل فيكون شرًا وربما اجتمعت المضرة والمنفعة واستوتا او غلبت احداهما ومن هنا ثبت الاحتياج لوجود امة تفرغ انفسها للاشتغال بذلك حتى تحكم امرها ثم تلاحظ الناس في جميع حركاتهم لتدعوهم الى الخير وتأمرهم بما عرفته خيرًا وتنهاهم عما انكرته وعرفته شرًا تنصحهم بالتزام ما عرفوه وتدلهم على ما جهلوه فاكثر المنافع والمضار معروف بين لا يختلف بالناس علمه حتى قيل ان الدين امر تقتضيه الطباع وتدفع اليه الفطرة ولكن الانسان لغلبة هواه قد يبيح لنفسه ما يحكم عقله بمنعه ويجد في طبعه استقباحه الا ترى الى السارق والغاصب كيف يستجيز ان يفعل

بغيره ما لا يستجيز ان يفعله به غيره. فمتى سرق ماله او اغتصب منه وجد بذلك في قلبه حرارة وفي نفسه ضيقًا وتشوش فكره واختلت حاله وبطل نظام سيره. وهو لا يريد ذلك. بل يريد ان يدوم منشرح الصدر طيب النفس مستقيم الاحوال. فهو يحكم بقبح ذلك وحسن هذا. وان كان لا يعبر عن ذلك لقصوره عن معرفة الالفاظ بالحل والحرمة. والى ذلك المعنى الاشارة بقوله الحلال بين والحرام بين وبينهما امور مشتبهات. وعلى هذه الامة ان تعرف المتجددات الزمانية لتكون اعمالها مطابقة للاحوال الحاضرة. فرب امر يكون خيرًا في عصر فيضحي شرًا في غيره. وهل هذه الامة كائنة او كانت. لا اثبت ذلك ولا انفيه حتى افاوضك الحديث فيه. ان قلت هذه الامة متحققة في خطباء المنابر. قلت لك: اتريد بهم هؤلاء الذين تراهم وتسمعهم وهم انما تميزوا عن آخر طبقة من طبقات العامة لتمكنهم من قراءة نوع من انواع الخط. فغاية امر الواحد منهم ان يقرأ ديوان خطب صنفه بعض اسلافه كما تخيل مناسبًا للشهور والمواسم فيتحفظ ما تعطيه تلك النقوش من مواد الالفاظ. او ينسخ صورة خطبة ليخف حملها عليه اذا قام بها خطيبًا. يسرد الفاظًا حفظها او نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها. كما اذا لم يكن الديوان مشكولًا ولم يقرإ الخطبة على ذي دراية سمعت منه المعجب والمطرب من اللحن الفاحش والتصحيف القبيح. فان منهم

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ ٱنْتِقَادَ ٱلسَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ ٱلْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعْضِ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ ٱلنُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ ٱلْحَدِيثِ ٱحْتِرَامًا لِكَلَامِ ٱلنَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا. إِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ. مَا أَظُنُّ أَنَّكَ تَسْتَجِيزُ أَنْ تَقُولَ أَرَدْتُ هٰؤُلَاءِ. فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا أَرَدْتُ خُطَبَاءَ ٱلْأَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزْ عَصْرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصْرَ أَصْحَابِهِ ثُمَّ ٱقْرَأْ خُطَبَ ٱلْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ثُمَّ ٱمْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ أَنَّ جَمِيعَ ٱلْخُطَبِ يَدُورُ أَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَأَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ ٱلتَّزْهِيدُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلتَّرْغِيبُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ ٱلْمُطِيعِ وَإِنْذَارُ ٱلْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمُعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَٱلْتَحَقَ بِٱلْأُمُورِ ٱلْمُعْتَادَةِ. إِنَّمَا يَسْمَعُ ٱلنَّاسُ أَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ إِقَامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسْمِ حَسْبَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ مِنْ أَنَّ تِلْكَ ٱلصُّورَةَ هِيَ إِقَامَةُ ٱلدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ ٱلنَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَذَمُّوا لَنَا ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا ... أَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَنَا ثُعْلُ

وَٱلثَّعْلُ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ أَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي أَطْبَاءِ ٱلنَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّدْيِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي ٱلْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا تَظُنَّ أَنِّي أَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ ٱلْعُصُورِ ٱلْأُولَى فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذٰلِكَ لِكَثْرَةِ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ نَنْظُرُ. أَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْأُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْأُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ. وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا. وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتِ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْفَاذِ أَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ. وَأَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى أُصُولِهِمُ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلَفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذٰلِكَ

الي سباب ومشاتمة واحتقار قوم قوما ورجع بهم الى القدح في السلف وصار الاختلاف بين اهل المذاهب منشئا لعداوة ان لم تكن فوق العداوة بين اهل الاديان فليست دونها. فكثيرا ما كانت سببا لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضا حتى دخل بينهم الحكام لإصلاحهم وكانوا هم الاولى بذلك. وهو حقهم الذي ما كان ينبغي ان يمكنوا منه غيرهم وصاروا احزابا يتحاز كل حزب الى ملك من ملوك النواحي وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل اهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبدلت سيوف المنابر بقطع خشب في صورتها يتكئ عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم. وآل امر العلماء الى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم ارصاد الحكومة وتأخذهم عيونها منعا لتعدي بعضهم على بعض وحسما لمادة الشر بينهم. ولعبت بهم اهواء الملوك الجائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم. ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين امضوا صدور اعمارهم في اللهو واللعب دون فكرة في تحصيل سبب من اسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب الى العلم واهله فصنفوا كتبا ملأوها احاديث كاذبة وحكايات غير معقولة وروجوها على العامة واكلوا بها الخبز وخلطوا ما ليس من الدين به. فأي مفسدة اكبر من ذلك وليس له سبب الا افتراق العلماء واهمالهم امر الرعاية. ولم يزل الاختلاف الذي هو منشأ تلك

العداوة مستمرا يخفيه الضعف وتظهره القوة كما ترى. فهل يسوغ لك بعد معرفة هذا ان تقول انها العلماء. وان قلت انها الوعاظ قلت هذا اقرب فان الوعاظة كانت حرفة شائعة وصناعة فاشية كان اهلها يتنافسونها وكثير منهم اخذ عليها الرواتب من بيوت الاموال واكثرهم كان يلم بها القطع من العامة الذين يحضرون مجالسهم. فكان الواعظ اذا فرغ من كلامه الذي اعده لذلك المجلس بسط منديله وطرح فيه كل ما سمحت به نفسه

وصنفت لاجل الوعاظة كتب لقبوها بالمجالس تشتمل على تفسير آيات من آيات الترغيب والترهيب وبعض احاديث صحيحة وبعض اشعار وحكايات من ذلك الوادي. ونموذج ذلك ما تراه في المشهد الحسيني بعد العصر في رمضان. وبالجملة فمحصول تلك الكتب هو محصول خطب المنابر. وان كان بعض اهل تلك الصناعة وهم قليل كانوا من الفطنة والذكاء وبراعة المنطق وبلاغة العبارة بمكان رفيع. فان اكثرهم القصاص الجهلة الذين غاية امر الواحد منهم ان يلفق احاديث يضعها او وضعها غيره يفرح بها نفوس العامة بما يذكر من كثرة الثواب مع قلة العمل وما يهون من امر المعصية حتى يكون ذلك بمنزلة التحريض على ارتكاب الشهوات والاسترسال مع الاهواء وطرح المبالاة اعتمادا على ما ركزوه في نفوسهم وشغلوا به عقولهم من كثرة اسباب المغفرة وسعة الرحمة وعظم العفو الى غير ذلك. لا

يتكلمون في سواه حتى صار سببًا قويًا في خمود الطباع واستحكام الغفلة والانصراف عن تذكر معنى الاجتماع الانساني وتعقل ضرورة التعاون والتفكر في احكام اسباب التعارف والتواصل ومحاورة الناس بعضهم بعضًا فيما يوجب عزّ الامة وسعادتها وسرور آحادها وابتهاجهم بالتناصف وافضال الاقوياء على الضعفاء من ثمار قواهم فلا يتلاقون الا وصدورهم منشرحة وقلوبهم فرحة وثغورهم باسمة ووجوههم منبسطة . قد امن بعضهم غوائل بعض وتحققوا السلامة من مقاصد السوء والتماكر باستلاب الاموال وقهر النفوس وتسخير الاقوياء الضعفاء فيما يختصون به من اللذات ويحافظون عليه بجدران الصخور وأبواب الحديد حتى كان ذلك مولدًا في الناس كثيرًا من خسيس الطباع التي تميل باصحابها نحو الاكتساب بجهة السرقة والسؤال بالضراعة والترامي على اعتاب المكثرين . وانت لذلك عارف واليه ناظر لا تجهل تلك الطوائف الكاسبة بهذه الوجوه الرديئة . واسوأها حالا واخسها عملا وابغضها مترددًا هؤلاء الذين اطفأوا انوار عقولهم الخلقية واخمدوا لهب قواهم الطبعية وعطلوا جوارح ابدانهم بما يملأون به رؤوسهم من اشربة خرافات تخرج بهم من نوع الحيوان لا يجوز ان اقول من نوع الانسان يؤول امرهم الى الاحتياج وطلب المعاش بابدانهم وابدان انتقضت عنهم وشغلوا بها كثيرًا من الفراغ اي ابدانهم وابدان نسلهم الى ان يطرحوا نفوسهم بين ايدي اهل المكاسب بطرق

الاعمال المتعبة والمحاولات الشاقة . يذكرونهم ثواب الصدقات ويلحفون في السؤال حتى تملّ ذلك نفوسهم ويضعف يقينهم وتقسو قلوبهم ويلتمسوا وجوهًا للطعن على تلك الطائفة لا يفرقون بين اهل النزاهة منهم وغيرهم . فيكون القدح عامًا والاحتقار شاملًا . وجهة الاعتبار فيه ان من نصب نفسه لوظيفة الهدى ودعاء الناس الى الخير يجب ان يكون ابعدهم من التصنع واحرصهم على الكمال . فان ادنى هفوة منه تسقط اعتباره وتسهل التهاون به فلا يكون لكلامه تأثير في القلوب ويصير مجلسه مسلاة يتلهى بحضوره فكثيرًا ما كانت تلك المجالس مواعد لاهل الخلاعات والمجون

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

انا لا نعرف الخطب الا للعرب والفرس . فاما الهند فانما لهم معانٍ مدونة وكتب مخلدة لا تضاف الى رجل معروف ولا الى عالم موصوف . وانما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة . ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق وكان صاحب المنطق نفسه عيّ اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه . وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من

البلاغة وفي الفرس خطباء، الا ان كلام الفرس وكل معنى لهم فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكر ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الاول وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم. وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكانه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة وانما هو ان يصرف احدهم وهمه الى الكلام والى زجر يوم الخصام او حين يمتح على رأس بئر او يحدو ببعير او عند المقارعة او المناقلة او عند صراع او حرب فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالا وتنهال عليه الالفاظ انثيالا. ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه احد من ولده وكانوا اميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر وهم عليه اقدر وله اقهر وكل واحد في نفسه انطق ومكانه من البيان ارفع وخطاهم للكلام اجود والكلام عليهم اسهل وهو عليهم ايسر من ان يفتقروا الى تحفظ ويحتاجوا الى تدارس. وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من قبله فما يحفظون الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وان هذا الذي في ايدينا جزء منه (اه)

وممن اشتهر في الخطابة ايضا قس بن ساعدة الايادي اسقف

نجران خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها وحكمها في عصره يقال انه اول من علا على شرف وخطب عليه. واول من قال في كلامه: اما بعد. قيل: وبعد لفظة عربية وفصل الخطاب والذي اوتيه قس هو فصل الخصومة وهذا يؤيد ما قيل عنه انه اول من قال: البينة على المدعي واليمين على من انكر. واول من اتكا عند خطبته على سيف او عصا. واول من كتب: من فلان الى فلان. ادركه رسول المسلمين ورآه بعكاظ فكان يأثر عنه كلاما يسمعه منه. وكان مؤمنا بالله والبعث. بليغ النطق وفيه يقول الاعشى:

وافصح من قس واجرى من الذي

بذي المعين (١) من خفان اصبح خادرا

وكان قس يفد على قيصر زائرا فيكرمه ويعظمه فقال له قيصر: ما افضل العلم. قال: معرفة الرجل بنفسه. قال: فما افضل العقل. قال: وقوف المرء عند علمه. قال: فما افضل الادب. قال: استبقاء الرجل ماء وجهه. قال: فما افضل المروءة. قال: قلة رغبة المرء في اخلاف وعده. قال: فما افضل المال. قال: ما قضي به الحق

وقيل ان الجارود بن عبد الله لما وفد في وفد عبد القيس على رسول المسلمين وكان سيدا في قومه معظما في عشيرته فاسلم سأله

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

الرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ القَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سِبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ العَرَبِ. صَحِيحَ النَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ القِفَارَ. وَلَا تُكِنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ الطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِالوُحُوشِ وَالهَوَامِّ. يَلْبَسُ المُسُوحَ. وَيَتْبَعُ السُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ المَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ الرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِالوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ الأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ الأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ الأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ الحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ العَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي الحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِالبَعْثِ وَالحِسَابِ. وَحَذَّرَ سُوءَ المُنْقَلَبِ وَالمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ المَوْتِ. وَأَمَرَ بِالعَمَلِ قَبْلَ الفَوْتِ. الحَسَنُ الأَلْفَاظِ. الخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. العَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَالعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِالرَّبِّ الَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ الكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ ادِّكَارُ ... وَلَيَالٍ خِلَالُهُنَّ نَهَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ... وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ
وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ اللَّيْلِ (١) م ... وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ العُيُونَ وَإِرْ ... عَادٌ شَدِيدٌ فِي الخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)
وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ... كُلُّهُمْ فِي التُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويُروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتِ الخَيْرَ م ... وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ ... حَدْسَةُ النَّاظِرِ الَّذِي لَا يُحَارُ
وَالَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى اللهِ م ... نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَاعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ المُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ اللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ القِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ المَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ النَّخْلَةِ وَالطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُونِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَانْتَفِعُوا. إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيْلٌ مَوْضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ. وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ. وَبِرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ العِظَاتِ. السَّيْرُ فِي الفَلَوَاتِ. وَالنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ الأَمْوَاتِ. إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيْلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِالمُقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى: خلت

بالله قسماً حقاً لا آثماً فيه ولا حانثاً ان لله ديناً هو احب اليه من دينكم الذي انتم عليه. ثم قال: تباً لارباب الغفلة من الامم الخالية. والقرون الماضية. يا معشر اياد. اين الآباء والاجداد. واين المريض والعواد. واين الفراعنة الشداد. اين من بنى وشيد. وزخرف ونجد. وغره المال والولد. اين من بغى وطغى. وجمع فاوعى. وقال انا ربكم الاعلى. الم يكونوا اكثر منكم اموالاً. واطول منكم آجالاً. طحنهم الثرى بكلكله. ومزقهم بتطاوله. فتلك عظامهم بالية. وبيوتهم خاوية. عمرتها الذئاب العاوية. كلا بل هو المعبود. ثم انشأ يقول:

في الذاهبين الاولين م … من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا … للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها … تمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي ولا … يبقى من الباقين غابر(١)
أيقنت اني لا محا … لة حيث صار القوم صائر

وممن اشتهر عند العرب سحبان بن زفر بن اياس الوائلي وائل باهلة خطيب مفصح يضرب به المثل في البيان. ادرك الاسلام واسلم ومات سنة اربع وخمسين. وحكى الاصمعي قال: كان اذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ. وقدم

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ … ولا من الماضين غابر

على معاوية وفد من خراسان فيهم سعيد بن عثمان فطلب سحبان فلم يوجد في منزله فاقتضب من ناحية اقتضاباً وادخل عليه فقال: تكلم فقال: انظروا الى عصاً تقوم من اودي. قالوا: وما تصنع بها وانت بحضرة امير المؤمنين قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه في يده. فضحك معاوية وقال: هاتوا عصاً فجاؤوا بها اليه فركبها برجله ولم يرضها وقال: هاتوا عصاي فاتوا بها فاخذها. ثم قام وتكلم منذ صلاة الظهر الى ان قامت صلاة العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا ابتدأ في معنى فخرج منه وقد بقي عليه منه شيء. فما زالت تلك حاله حتى اشار معاوية بيده فاشار اليه سحبان ان لا تقطع عليَّ كلامي فقال معاوية: الصلاة. قال: هي امامك ونحن في صلاة وتحميد ووعد ووعيد. فقال معاوية: انت اخطب العرب. فقال سحبان: والعجم والجن والانس. ومما روي عنه في بعض خطبه البليغة يقول: ان الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار. ايها الناس فخذوا من دار ممركم لدار مقركم ولا تهتكوا استاركم. عند من لا تخفى عليه اسراركم. واخرجوا من الدنيا قلوبكم. قبل ان تخرج منها ابدانكم. ففيها حييتم ولغيرها خلقتم. ان الرجل اذا هلك. قال الناس ما ترك. وقالت الملائكة ما قدم لله. قدموا بعضاً يكون لكم ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم. ومن شعره يمدح طلحة الطلحات وهو طلحة بن عبد الله الخزاعي:

يَا طَلْحَ أَكْرَمَ مَنْ بِهَا حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ ٱلْعَطَاءُ فَأَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي ٱلْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ إِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: ٱحْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ ٱلْوَرْدَ وَقَصْرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ أُفٍّ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلٰكِنْ أَبَيْتَ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ ٱللهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَأَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا إِلَّا كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ أَضْحَكَ ٱلثَّكْلَى وَأَذْهَلَ ٱلزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ ٱلْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ ٱلنَّاسِ بِٱلْخَبَرِ ٱلْبَاهِرِ وَٱلشِّعْرِ ٱلنَّادِرِ وَٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلْفَصَاحَةِ ٱلتَّامَّةِ وَٱللِّسَانِ ٱلْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَٱبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ ٱلْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَٱلْمُنْتَقَى مِنْ أَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَأَدْرَكْتُ طَبَقَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ ٱلْبَلَاغَةَ لَمْ تَسْتَكْمَلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا ٱنْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لَلُبَابُ ٱلْكَرَمِ

عِتْقَ مَنْظَرٍ وَجُودَةَ مَخْبَرٍ وَسُهُولَةَ لَفْظٍ وَجَزَالَةَ مَنْطِقٍ وَنَزَاهَةَ نَفْسٍ وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاخَرَتِ ٱلدُّنْيَا بِقَلِيلِ أَيَّامِهِمَا وَٱلْمَأْثُورِ مِنْ خَصَائِصِهِمَا جَمِيعَ أَيَّامِ مَنْ سِوَاهُمَا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ فِي ٱلصُّورِ وَيُبْعَثَ أَهْلُ ٱلْقُبُورِ حَاشَا أَنْبِيَاءَ ٱللهِ ٱلْكِرَامَ وَسَلَفَ عِبَادِهِ ٱلصَّالِحِينَ لَمَا بَاهَتْ إِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي ٱلْفَخْرِ إِلَّا عَلَيْهِمَا. وَلَقَدْ كَانَا مَعَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمَا وَمَعْسُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا إِشْرَاقِهِمَا وَكَمَالِ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ فِيهِمَا فِي مَحَاسِنِ ٱلْمَأْمُونِ كَٱلنُّقْطَةِ فِي ٱلْبَحْرِ وَٱلْخَرْدَلَةِ فِي ٱلْقَفْرِ

القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

اِعلَمْ انَّ لِسانَ العَرَبِ وكَلامَهُمْ على فنَّينِ فنّ الشِّعرِ المَنظومِ وهو الكَلامُ المَوزُونُ المُقفَّى ومعناهُ الّذِي تكونُ اوزانُهُ كلُّها على رَوِيٍّ واحدٍ وهو القافِيَةُ. وفنّ النَّثرِ وهو الكلامُ غيرُ الموزونِ. وكُلٌّ واحدٍ مِنَ الفنَّينِ يَشتَمِلُ على فُنونٍ ومَذاهِبَ في الكَلامِ. فامّا الشِّعرُ فمنهُ المَدحُ والهِجاءُ والرِّثاءُ. وامّا النَّثرُ فمنهُ الكَلامُ الّذي يُؤتَى بهِ قِطَعًا ويُلتَزَمُ في كُلِّ كَلِمَتَينِ منهُ قافيةٌ واحدةٌ ويُسمَّى سجعًا. ومنهُ المُرسَلُ وهو الّذي يُطلَقُ فيهِ الكَلامُ اِطلاقًا

ولا يُقطَّعُ اجزاءً بل يُرسَلُ اِرسالًا مِن غيرِ تقييدٍ بقافيةٍ ولا غيرِها. ويُستَعمَلُ في الخُطَبِ والدُّعاءِ وترغيبِ الجُمهورِ وترهيبِهِمْ. وامّا القُرآنُ فهو وانْ كانَ مِنَ المَنثورِ الّا انّهُ خارِجٌ عن الوصفَينِ وليسَ يُسمَّى مُرسَلًا مُطلَقًا ولا مُسجَّعًا بل تفصيلَ آياتٍ ينتهي الى مَقاطِعَ يَشهَدُ الذَّوقُ بانتهاءِ الكَلامِ عِندَها. ثُمَّ يُعادُ الكلامُ في الآيةِ الاُخرى بعدَها ويُثنَّى مِن غيرِ التزامِ حَرفٍ يكونُ سجعًا أو قافيةً. وهو معنى قولِ القُرآنِ: اللهُ نزَّلَ احسنَ الحديثِ كِتابًا مُتَشابِهًا مَثانِيَ تَقشَعِرُّ منهُ جُلودُ الّذينَ يَخشَونَ ربَّهُمْ. وقالَ قد فَصَّلنا الآياتِ. ويُسمَّى آخِرُ الآياتِ منهُ فَواصِلَ اذْ ليستْ اسجاعًا ولا التُزِمَ فيها ما يُلتَزَمُ في السجعِ ولاهيَ ايضًا قوافٍ. واُطلِقَ اسمُ المَثاني على آياتِ القُرآنِ كُلِّها على العُمومِ لِما ذكرناهُ واختصَّتْ بامِّ القُرآنِ لِلغَلَبةِ فيها كالنَّجمِ للثُّريّا ولهذا سُمِّيتِ السَّبعَ المَثاني. وانظُرْ هذا معَ ما قالهُ المُفسِّرونَ في تعليلِ تسميتِها بالمَثاني يَشهَدْ لكَ الحَقُّ بِرُجحانِ ما قُلناهُ. واعلَمْ انَّ لِكُلِّ واحدٍ مِن هذهِ الفُنونِ اساليبَ تَختَصُّ بهِ عندَ اهلِهِ ولا تَصلُحُ لِلفَنِّ الآخَرِ ولا تُستَعمَلُ فيهِ مِثلَ النَّسيبِ المُختَصِّ بالشِّعرِ والحَمدِ والدُّعاءِ المُختَصِّ بالخُطَبِ والدُّعاءِ المُختَصِّ بالمُخاطَباتِ وامثالِ ذلكَ. وقدِ استَعمَلَ المُتاخِّرونَ اساليبَ الشِّعرِ ومَوازينَهُ في المَنثورِ مِن كَثرةِ الاسجاعِ والتِزامِ التَّقفِيَةِ وتقديمِ النَّسيبِ بينَ يدَيِ الاغراضِ وصارَ هذا المَنثورُ اذا تامَّلتَهُ مِن بابِ الشِّعرِ وفنِّهِ ولم يَفتَرِقا الّا في الوَزنِ. واستَمرَّ

المتاخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً اهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه. وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب. وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتاخرون فيه اساليب الشعر فوجب ان تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذ اساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب. والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالاً من غير تكلف له. ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب او ايجاز او حذف او اثبات او تصريح او اشارة وكناية واستعارة. واما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد امده

في البلاغة وانفساح خطوته وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعة ويغفلون عما سوى ذلك. واكثر من اخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر انحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى انهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس. فتامل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق الى الصواب بمنه وكرمه والله تعالى اعلم

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

الغرض في هذا القول تلخيص ما في كتاب ارسطاطاليس في الشعر من القوانين الكلية المشتركة لجميع الامم او للاكثر اذ كثير مما فيه هي قوانين خاصة باشعارهم وعادتهم فيها. واما ان تكون نسباً موجودة في كلام العرب او موجودة في غيره من الالسنة. (قال) ان قصدنا الآن التكلم في صناعة الشعر وفي انواع الاشعار. وقد يجب على من يريد ان تكون القوانين

التي يعطى فيها تجري مجرى الجودة ان يقول اولا ما فعل كل واحد من الانواع الشعرية وبماذا تتقوم الاقاويل الشعرية ومن كم شيء تتقوم وايما هي اجزاؤها التي تتقوم بها وكم اصناف الاغراض التي تقصد بالاقاويل الشعرية. وان يجعل كلامه من الاوائل التي لنا بالطبع في هذا المعنى. (قال) فكل شعر وكل قول شعري فهو اما هجاء واما مديح وذلك بين باستقراء الاشعار وبخاصة اشعارهم التي كانت في الامور الارادية اعني الحسنة والقبيحة وكذلك الحال في الصنائع المحاكية لصناعة الشعر التي هي الضرب بالعيدان والزمر والرقص اعني انها معدة بالطبع لهذين الغرضين. والاقاويل الشعرية هي الاقاويل المخيلة. واصناف التخييل والتشبيه ثلاثة اثنان بسيطان وثالث مركب منهما. اما الاثنان البسيطان فاحدهما تشبيه شيء بشيء وتمثيله به وذلك يكون في لسان لسان بالفاظ خاصة عندهم مثل كأن واخال وما اشبه ذلك في لسان العرب وهي التي تسمى عندهم حروف التشبيه. واما اخذ الشبيه بعينه بدل الشبيه وهو الذي يسمى الابدال في هذه الصناعة وذلك مثل قول الشاعر:

هو البحر من اي المواضع جئته

وينبغي ان نعلم ان في هذا القسم تدخل الانواع التي يسميها اهل زماننا استعارة وكناية مثل قول الشاعر:

وعري افراس الصبا ورواحله

الا ان الكنايات اكثر ذلك هي ابدالات من لواحق الشيء. والاستعارة هي ابدال من مناسبه اعني اذا كان شيء نسبته الى الثاني نسبة الثالث الى الرابع فابدال اسم الثالث الى الاول وبالعكس. وقد تقدم في كتاب الخطابة من كم شيء تكون الابدالات. واما القسم الثاني فهو ان يبدل التشبيه مثل ان تقول: الشمس كانها فلان او الشمس هي فلان لا فلان كالشمس ولا هو الشمس

والصنف الثالث من الاقاويل الشعرية هو المركب من هذين (قال) وكما ان الناس بالطبع قد يخيلون ويحاكون بعضهم بعضا بالافعال مثل محاكاة بعضهم بعضا بالالوان والاشكال والاصوات وذلك اما بصناعة وملكة توجد للمحاكين واما من قبل عادة تقدمت لهم في ذلك. كذلك توجد لهم المحاكاة بالاقاويل بالطبع والتخييل. والمحاكاة في الاقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة اشياء: من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه. وهذه قد يوجد كل واحد منها مفردا عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ. اعني الاقاويل المخيلة الغير موزونة. وقد تجتمع هذه الثلاثة باسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والازجال وهي الاشعار التي استنبطها في هذا اللسان اهل هذه الجزيرة اذ كانت الاشعار الطبيعية هي ما جمعت

ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا ٱلْوَزْنُ وَٱلْمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُخَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِعْلَ ٱلتَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ ٱللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ٱلْوَزْنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ سُقْرَاطَ ٱلْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادُقْلِيسَ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلْأَمْرِ فِي أَشْعَارِ أُومِيرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَيْنِ. وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أَحْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا وَكَذٰلِكَ ٱلْفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوْزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أَحْرَى أَنْ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ ٱلْمُحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلْتَئِمُ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلْفِعْلِ

البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من ٱلكتاب نفسِهِ)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ ٱلْمُحَاكُونَ وَٱلْمُشَبِّهُونَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِذٰلِكَ أَنْ يَحُثُّوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَذَائِلَ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ إِنَّمَا هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هٰذَيْنِ أَعْنِي ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْفَضَائِلُ إِنَّمَا تُحَاكَى بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ ٱلرَّذَائِلُ تُحَاكَى بِٱلرَّذَائِلِ وَٱلْأَرْذَلِينَ. وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْحَسَنِ وَٱلْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّحْسِينُ وَٱلتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هٰذَا ضَرُورَةً أَنْ يَكُونَ ٱلْمُحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ أَعْنِي ٱلْمَائِلِينَ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا أَفَاضِلَ. وَٱلْمُحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصُ طَبْعًا مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى ٱلرَّذِيلَةِ وَعَنْ هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وُجِدَ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهَجْوُ. أَعْنِي مَدْحَ ٱلْفَضَائِلِ وَهَجْوَ ٱلرَّذَائِلِ وَلِهٰذَا كَانَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَبَعْضُهُمْ بِٱلْعَكْسِ أَعْنِي يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ فَإِذَنْ بِٱلْوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ هٰذَانِ

الفصلان اعني التحسين والتقبيح وهذان الفصلان انما يوجدان للتشبيه والمحاكاة التي تكون بالقول لا المحاكاة التي تكون بالوزن ولا التي تكون باللحن. وقد يوجد للتشبيه بالقول فصل ثالث وهو التشبيه الذي يقصد به مطابقة المشبه به من غير ان يقصد في ذلك تحسين او تقبيح لكن نفس المطابقة وهذا النوع من التشبيه هو كالمادة المعدة لان يستحيل الى الطرفين اعني انها تستحيل تارة الى التحسين بزيادة عليها وتارة الى التقبيح بزيادة ايضاً عليها (قال) وهذه كانت طريقة اوميروش اعني انه كان يأتي في تشبيهاته بالمطابقة والزيادة المحسنة والمقبحة. ومن الشعراء من اجادته انما هي في المطابقة فقط. ومنهم من اجادته في التحسين والتقبيح. ومنهم من جمع الامرين مثل اوميروش وتمثل في كل صنف من هؤلاء باصناف من الشعراء كانوا مشهورين في مدتهم وسياستهم باستعمال صنف صنف من اصناف هذه التشبيهات الثلاثة. وانت فليس يعسر عليك وجود مثالات ذلك في اشعار العرب وان كانت اكثر اشعار العرب انما هي كما يقول ابو نصر في النهم والكريه. وذلك ان النوع الذي يسمونه النسيب انما هو حث على الفسوق ولذلك ينبغي ان يتجنبه الولدان ويؤدبون من اشعارهم بما يحث فيه على الشجاعة والكرم. فانه ليس تحث العرب في اشعارها من الفضائل على سوى هاتين الفضيلتين وان كانت ليس تتكلم فيهما على طريق الحث عليهما

وانما تتكلم فيهما على طريق الفخر. واما الصنف من الاشعار الذي المقصود به المطابقة فقط فهو موجود كثير في اشعارهم ولذلك يصفون الجمادات كثيراً والحيوانات والنبات. واما اليونانيون فلم يكونوا يقولون اكثر ذلك شعراً الا وهو موجه نحو الفضيلة او الكف عن الرذيلة او ما يفيد ادباً من الآداب او معرفة من المعارف. فقد تبين من هذا القول ان اصناف التشبيهات ثلاثة اصول وان فصولها ثلاثة وتبين ما هي هذه الفصول الثلاثة والاصناف الثلاثة. ويشبه اذا استقريت الاشعار ان يقع اليقين بانه ليس هاهنا صنف رابع من اصناف التشبيهات ولا فصل رابع من فصول تلك الاصناف

البحث الثالث

في العلل المولدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قال) ويشبه ان تكون العلل المولدة للشعر بالطبع في الناس علتين. اما العلة الاولى فوجود التشبيه والمحاكاة للانسان بالطبع من اول ما ينشأ اعني ان هذا الفعل يوجد للناس وهم اطفال وهذا شيء يختص به الانسان من دون سائر الحيوانات والعلة في ذلك ان الانسان من بين سائر الحيوان هو الذي

يَلْتَذُّ بِٱلتَّشْبِيهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ أَحَسَّهَا وَبِٱلْمُحَاكَاةِ لَهَا. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ يُسَرُّ بِٱلتَّشْبِيهِ بِٱلطَّبْعِ وَيَفْرَحُ هُوَ أَنَّا نَلْتَذُّ وَنُسَرُّ بِمُحَاكَاةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَا نَلْتَذُّ بِإِحْسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلْمُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ ٱلِٱسْتِقْصَاءِ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلَّتِي يَعْمَلُهَا ٱلْمَهَرَةُ مِنَ ٱلْمُصَوِّرِينَ وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلتَّعْلِيمِ عِنْدَ ٱلْإِفْهَامِ وَٱلتَّخَاطُبِ ٱلْإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا أَدَاةٌ مُعِينَةٌ عَلَى فَهْمِ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَفْهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلِٱلْتِذَاذِ ٱلَّذِي هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْإِشَارَاتِ مِنْ قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ فَتَكُونُ ٱلنَّفْسُ بِحَسَبِ ٱلْتِذَاذِهَا بِهِ أَتَمَّ قَبُولًا لَهُ. فَإِنَّ ٱلتَّعْلِيمَ لَيْسَ إِنَّمَا يُوجَدُ لِلْفَيْلَسُوفِ فَقَطْ بَلْ وَلِلنَّاسِ فِي ذٰلِكَ مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ ٱلْفَيْلَسُوفِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ ٱلتَّعْلِيمُ بِٱلطَّبْعِ يَصْدُرُ مِنْ إِنْسَانٍ إِلَى إِنْسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُعَلِّمِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُتَعَلِّمِ. وَٱلْإِشَارَاتُ لَمَّا كَانَتْ إِنَّمَا هِيَ تَشْبِيهَاتٌ لِأُمُورٍ قَدْ أُحِسَّتْ فَبَيِّنٌ أَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ لِمَوَاضِعِ ٱلْمُسَارَعَةِ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُفْهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ ٱلِٱلْتِذَاذِ لِمَوْضِعِ ٱلتَّخْيِيلِ ٱلَّذِي فِيهَا. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلثَّانِيَةُ فَٱلْتِذَاذُ ٱلْإِنْسَانِ أَيْضًا بِٱلطَّبْعِ بِٱلْوَزْنِ وَٱلْأَلْحَانِ فَإِنَّ ٱلْأَلْحَانَ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلْوَزْنِ عِنْدَ ٱلَّذِينَ فِي طِبَاعِهِمْ أَنْ يُدْرِكُوا ٱلْأَوْزَانَ وَٱلْأَلْحَانَ فَٱلْتِذَاذُ ٱلنَّفْسِ بِٱلطَّبْعِ بِٱلْمُحَاكَاةِ وَٱلْأَلْحَانِ وَٱلْأَوْزَانِ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلْفِطَرِ ٱلْفَائِقَةِ فِي ذٰلِكَ فَإِذَا نَشَأَتِ ٱلْأُمَّةُ تَوَلَّدَتْ فِيهِمْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ ٱلْأَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا أَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهٰكَذَا إِلَى أَنْ تَكْمُلَ ٱلصِّنَاعَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ. وَتَكْمُلُ أَيْضًا أَصْنَافُهَا بِحَسَبِ ٱسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلِٱلْتِذَاذِ أَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلَّتِي هِيَ فَاضِلَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِٱلطَّبْعِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ أَوَّلًا صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي مَدِيحَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ. وَٱلنُّفُوسُ ٱلَّتِي هِيَ أَخَسُّ مِنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ ٱلْهِجَاءِ أَعْنِي هِجَاءَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْقَبِيحَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُضْطَرُّ ٱلَّذِي مَقْصِدُهُ ٱلْهِجَاءُ لِلشِّرَارِ وَٱلشُّرُورِ أَنْ يَمْدَحَ ٱلْأَخْيَارَ وَٱلْأَفْعَالَ ٱلْفَاضِلَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ ٱلشُّرُورِ أَكْثَرَ أَعْنِي إِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِإِزَائِهَا ٱلْأَفْعَالَ ٱلْقَبِيحَةَ. فَهٰذَا مَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ وَسَائِرُ مَا يُذْكَرُ فِيهِ فَكُلُّهُ أَوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ أَشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَذْكُرُ أَصْنَافَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ مَنْشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِٱلطَّبْعِ وَأَيُّ جُزْءٍ هُوَ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلْكَوْنِ عَلَى أَيِّ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ ٱلْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذْكُرُ مَعَ هٰذَا أَوَّلَ مَنِ ٱبْتَدَأَ صِنَاعَةً صِنَاعَةً مِنْ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْمُعْتَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ. وَهُوَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ يُثْنِي عَلَى أُومِيرُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا وَيَعْرِفُ أَنَّهُ ٱلَّذِي أَعْطَى مَبَادِئَ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ

قبله في صناعة المديح عمل له قدر يعتد به ولا في صناعة الهجاء ولا في غير ذلك من الصنائع المشهورة عندهم. قال والانقص من الاشعار والاقصر هي المتقدمة بالزمان لان الطباع اسهل وقوعا عليها اولا. والاقصر هي التي تكون من مقاطع اقل والانقص هي التي تكون من نغمات اقل ايضا. (قال) والدليل على ان هذه الانواع اسبق الى النفوس ان الناس عند المنازعات قد يرتجلون مصاريع من هذه في مجادلتهم وذلك عند الحرج. يريد فيما احسب مثل قول القائل: لا لا لا عد بها صوته. ومثل قوله ليس هذا كذا مادا بها صوته فان امثال هذه المراجعات هي مصاريع موزونة ذات لحن واما التي هي اطول واتم فانما ظهرت باخرة كالحال في سائر الصنائع. (قال) وصناعة الهجاء ليس انما يقصد بها المحاكاة بكل ما هو شر وقبيح فقط بل وبكل ما هو شيء مستهزأ به اي مرذول قبيح غير مغتم به. (قال) والدليل على ان الاستهزاء يجب ان يجمع هذه الثلاثة الاوصاف انه يوجد في وجه المستهزىء هذه الاحوال الثلاثة اعني قباحة الوجه وهيئة الاستصغار وقلة الاكتراث بالمستهزإ به وذلك بخلاف وجه الغاضب اعني ان فيه قبحا واهتماما وتلك هي حالة نفس الغاضب على الشيء الذي يغضب عليه

البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قال) وايجاد صناعة المديح يكون تعلمها في الاعاريض الطويلة لا في القصيرة ولذلك رفض المتاخرون الاعاريض القصار التي كانت تستعمل فيها وفي غيرها من صنائع الشعر. واخص الاوزان بها هو الوزن البسيط الغير مركب ولكن ينبغي الا يبلغ فيها من الطول الى حد يستكره. والحد المفهم جوهر صناعة المديح هو انها نسبة ومحاكاة للعمل الارادي الفاضل الكامل الذي له قوة كلية في الامور الفاضلة لا قوة جزئية في واحد واحد من الامور الفاضلة محاكاة تنفعل لها النفوس انفعالا معتدلا بما يولد فيها من الرحمة والخوف وذلك بما يخيل في الفاضلين من النقي والنظافة فان المحاكاة انما هي للهيئات التي تلزم الفضائل لا للملكات اذ ليس يمكن فيها ان يتخيل. وهذه المحاكاة بالقول تكمل اذا قرن بها اللحن والوزن وقد توجد من المنشدين احوال اخر خارجة عن الوزن واللحن تجعل القول اتم محاكاة وهي الاشارات والاخذ بالوجوه الذي قيل في كتاب الخطابة. فاول اجزاء صناعة المديح الشعري في العمل هو ان تحصى

من ذلك وان كان كذبا . ولهذا قيل للاقاويل الشعرية خرافات فالقصاص والمحدثون بالجملة هم الذين لهم قدرة على محاكاة العادات والاعتقادات (قال) وقد يجب ان تكون اجزاء صناعة المديح ستة : الاقاويل الخرافية والعادات والوزن والاعتقادات والنظر واللحن . والدليل على ذلك ان كل قول شعري قد ينقسم الى مشبه ومشبه به والذي به يشبه ثلاثة المحاكاة والوزن واللحن والذي يشبه في المدح ثلاثة ايضا : العادات والاعتقادات والنظر اعني الاستدلال لصواب الاعتقاد فتكون اجزاء صناعة المديح ضرورة ستة . وانما كانت العادات والاعتقادات اعظم اجزاء المديح لان صناعة المديح ليست هي صناعة تحاكي الناس انفسهم من جهة ما هم اشخاص ناس محسوسون بل انما تحاكيهم من قبل عاداتهم الجميلة وافعالهم الحسنة واعتقاداتهم السعيدة تشمل الافعال والخلق ولذلك جعلت العادة احد اجزاء الستة واستغني بذكرها في التقسيم عن ذكر الافعال والخلق . واما النظر فهو ابانة صواب الاعتقاد وكانه كان عندهم ضربا من الاحتجاج لصواب الاعتقاد الممدوح به . وهذا كله ليس يوجد في اشعار العرب وانما يوجد في الاقاويل الشرعية المديحية وكانوا يحاكون هذه الثلاثة الاشياء اعني العادات والاعتقادات والاستدلال بالثلاثة الاصناف من الاشياء التي بها يحاكى اعنى القول المخيل والوزن واللحن (قال) واجزاء القول الخرافي من جهة ما هو محاك جزءان وذلك ان

المعاني الشريفة التي بها يكون التخييل . ثم تكسى تلك المعاني اللحن والوزن الملائمين للشيء المقول فيه . وعمل اللحن في الشعر هو انه يعد النفس لقبول خيال الشيء الذي يقصد تخييله فكان اللحن هو الذي يفيد النفس الاستعداد الذي به يقبل التشبيه والمحاكاة للشيء المقصود تشبيهه . وانما يفيد النفس هذه الهيئة في نوع نوع من انواع الشعر اللحن الملائم لذلك النوع من الشعر بنغماته وتاليفه . فانه كما انا نجد النغم الحادة تلائم نوعا من القول غير الذي تلائمه النغمات الثقال كذلك ينبغي ان نعتقد في تركيب الالحان وهيئات المحدثين والقصاص التي تكمل التخييل الموجود في الاقاويل الشعرية انفسها من قبل هذه الثلاثة اعني التشبيه والوزن واللحن التي هي اسطقسات المحاكاة هي بالجملة هيئتان احداهما هيئة تدل على خلق وعادة كمن يتكلم كلام عاقل او كلام غضوب والثانية هيئة تدل على اعتقاد فانه ليس هيئة من يتكلم وهو متحقق بالشيء هيئة من يتكلم فيه وهو شاك . فالقاص والمحدث في المديح ينبغي ان تكون هيئة قوله وشكله هيئة محق لا شاك وهيئة جاد لا هازل والقصص والحديث الذي ينبغي ان يعبر عنه القاص والمحدث وهو بهاتين الحالتين هو الخرافة التي تكون بالتشبيه والمحاكاة واعني بالخرافة تركيب الامور التي تقصد محاكاتها اما بحسب ما هي عليه في انفسها اعني في الوجود واما بحسب ما اعتيد في الشعر

كُلَّ مُحَاكَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تُوطِّئَ لِمُحَاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلْإِدَارَةِ وَإِمَّا أَنْ يُحَاكِيَ ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ. وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْأُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ أَعْنِي أَنَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْأُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِأَنَّ ٱلِٱلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحَاكَى بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوكِيَ. وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى صُوَرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ أَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزَّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّانِي هُوَ ٱلِٱعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ أَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْأَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلِٱعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخُطَبِيَّةِ وَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ.

إِنَّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ يَحُثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى ٱلْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ إِنَّمَا يَحُثُّ عَلَى أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ لِهٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّالِثِ هُوَ ٱلْوَزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ فَرُبَّ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ أَعْظَمُ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَأَفْعَلُهَا فِي ٱلنُّفُوسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ هُوَ ٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِٱحْتِجَاجَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ ٱلْعَمَلِ لَا بِقَوْلٍ إِقْنَاعِيٍّ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلَائِمٍ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ فَإِنَّ صِنَاعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلِٱحْتِجَاجِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلْمَدِيحُ صِنَاعَةَ ٱلنِّفَاقِ وَٱلْأَخْذِ بِٱلْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱلَّتِي تُعَرِّفُ مِمَّاذَا تُعْمَلُ ٱلْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَتَمُّ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوقِفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرْأَسُ مِمَّا تَحْتَهَا

البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فَاِذْ قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَمِمَّاذَا تَلْتَئِمُ وَكَمْ اَجْزَاؤُهَا وَمَا هِيَ فَلْنَقُلْ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلشِّعْرُ. فَاِنَّ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ضَرُورِيٌّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَبْدَإِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْاُمُورَ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ مِنْهَا ٱلصَّنَائِعُ صِنْفَانِ اُمُورٌ ضَرُورِيَّةٌ وَاُمُورٌ تَكُونُ بِهَا اَتَمَّ وَاَفْضَلَ فَنَقُولُ اِنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مُسْتَوْفِيَةً لِغَايَاتِ فِعْلِهَا اَعْنِي اَنْ تَبْلُغَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي فِي طِبَاعِهَا اَنْ تَبْلُغَهَا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِاَشْيَاءَ اَحَدُهَا اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ عِظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كُلًّا وَكَامِلَةً وَٱلْكُلُّ وَٱلْكَامِلُ هُوَ مَا كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَٱلْمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا مَبْدَأٌ وَٱلْآخِرُ هُوَ مَعَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَٱلْوَسَطُ هُوَ قَبْلُ وَمَعًا فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ اِذْ كَانَ ٱلْوَسَطُ فِي ٱلْمَكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَاِنَّ ٱلشُّجْعَانَ هُمُ ٱلَّذِينَ مَكَانُهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ مَا بَيْنَ مَكَانِ ٱلْجُبَنَاءِ وَٱلْمُتَهَوِّرِينَ وَهُوَ ٱلْمَكَانُ ٱلْوَسَطُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَدُّ ٱلْفَاضِلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ هُوَ ٱلْوَسَطُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْاَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ ٱلْاَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا اَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ اَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ وَسَطًا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ ٱتَّفَقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجُودَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَشْخَاصِ نَوْعِهِ اِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ اَجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

العادة عند اليونانيين اذ كانوا انما يعتمدون الضمائر فقط واما بتأجيل الايام كالحال عندنا اذ كان المعتمد في الخصومات عندنا انما هي الاشياء المقنعة التي من خارج. ولذلك لو كانت صناعة المديح بالمناظرة لكان يحتاج فيها الى تقدير زمان المناظرة بساعات الماء او غيرها. لكن لما لم يكن الامر كذلك وجب ان يكون لصناعة الشعر حد طبيعي كالحال في الاقدار الطبيعية للامور الموجودة وذلك انه كما ان جميع المتكونات اذ لم يعقها في حال الكون سوء البخت صارت الى عظم محدود بالطبع. كذلك يجب ان تكون الحال في الاقاويل الشعرية وبخاصة في صنفي المحاكاة اعني التي ينتقل فيها من الضد الى الضد او يحاكى فيها الشيء نفسه من غير ان ينتقل الى ضده (قال) ومما يحسن به قوام الشعر الا يطول فيه بذكر الاشياء الكثيرة التي تعرض للشيء الواحد المقصود بالشعر فان الشيء الواحد تعرض له اشياء كثيرة وكذلك يوجد للشيء الواحد المشار اليه افعال كثيرة (قال) ويشبه ان يكون جميع الشعراء لا يتحفظون بهذا بل ينتقلون من شيء الى شيء ولا يلزمون غرضا واحدا بعينه ما عدا اوميروش. وانت تجد هذا كثيرا ما يعرض في اشعار العرب والمحدثين وبخاصة عند المدح اعني انه اذا عن لهم شيء ما من اسباب الممدوح مثل سيف او قوس اشتغلوا بمحاكاته واضربوا عن ذكر الممدوح. وبالجملة فيجب ان تكون الصناعة تتشبه بالطبيعة

اعني ان تكون انما تفعل جميع ما تفعله من اجل غرض واحد وغاية واحدة. واذا كان ذلك كذلك فواجب ان يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصودا به غرض واحد وان يكون لاجزائه عظم محدود وان يكون فيها مبدأ ووسط وآخر وان يكون الوسط افضلها فان الموجودات التي وجودها في الترتيب وحسن النظام اذا عدمت ترتيبها لم يوجد لها الفعل الخاص بها. (قال) وظاهر ايضا مما قيل من مقصد الاقاويل الشعرية ان المحاكاة التي تكون بالامور المخترعة الكاذبة ليست من فعل الشاعر وهي التي تسمى امثالا وقصصا مثل ما في كتاب دمنة وكليلة. لكن الشاعر انما يتكلم في الامور الموجودة او الممكنة الوجود لان هذه هي التي يقصد الهرب عنها او طلبها او مطابقة التشبيه لها على ما قيل في فصول المحاكاة. واما الذين يعملون الامثال والقصص فان عملهم غير عمل الشعراء وان كانوا قد يعملون تلك الامثال والاحاديث المخترعة بكلام موزون. وذلك ان كليهما وان كانا يشتركان في الوزن فاحدهما يتم له العمل الذي قصده بالخرافة وان لم تكن موزونة وهو التعقل الذي يستفاد من الاحاديث المخترعة والشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل الا بالوزن فالفاعل للامثال المخترعة والقصص انما يخترع اشخاصا ليس لها وجود اصلا ويضع لها اسماء واما الشاعر فانما يضع اسماء لاشياء موجودة وربما تكلموا في الكليات ولذلك كانت صناعة الشعر اقرب الى الفلسفة من صناعة اختراع الامثال وهذا الذي

قَالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلْاَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْاُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَاَكْثَرُ مَا يَجِبُ اَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اَنْ تَكُونَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْمُحَاكِيَاتُ اُمُورًا مَوْجُودَةً لَا اُمُورًا لَهَا اَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَاِنَّ ٱلْمَدِيحَ اِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ اِلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِرَادِيَّةِ فَاِذَا كَانَتِ ٱلْاَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ ٱلْاِقْنَاعُ فِيهَا اَكْثَرَ وُقُوعًا اَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ اِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ. وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا اَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اِلَّا اَقَلَّ ذٰلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ اَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَاِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ اَفْعَالِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَٱنْفِعَالَاتِهِ لِلْاُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَاِنَّ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ لِلْعَرَبِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلْاَعْشَى :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرٌ ... اِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِٱلْيَفَاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ اُمٍّ تَحَالَفَا ... بِاَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَاِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَظَاهِرٌ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرَافَاتِ وَٱلْاَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَٱلْمُحَاكَاةِ وَهُوَ اِنَّمَا يَعْمَلُ ٱلتَّشْبِيهَ لِلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ اَنْ يُحَاكِيَ ٱلْاُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي ٱلْاُمُورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُمْكِنَةُ ٱلْوُجُودِ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ ٱلْاُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ اَنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ اَنْ تُوجَدَ تِلْكَ ٱلْاَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ فِي ٱلتَّخْيِيلِ ٱلشِّعْرِيِّ اِلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَلَا اَيْضًا يَحْتَاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ اَنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَاَخْذًا بِٱلْوُجُوهِ فَاِنَّ ذٰلِكَ اِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْمُمَوِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ اَعْنِي ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ اَنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيْسُوا شُعَرَاءَ. وَاَمَّا ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ اِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ اَنْ يُقَابِلُوا بِهِ ٱسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَاَمَّا اِذَا قَابَلُوا ٱلشُّعَرَاءَ ٱلْمُجِيدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ اَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ اَنْ يَسْتَعِينُوا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ اَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْاَشْيَاءِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى ٱلتَّمَامِ بَلْ لِاَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِٱلْقَوْلِ فَيُسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَبِخَاصَّةٍ اِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ ٱلْاِعْتِقَادَاتِ لِاَنَّ تَخَيُّلَهَا يَعْسُرُ اِنْ كَانَتْ لَيْسَتْ اَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تُمْزَجُ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِٱلْمُحَاكَيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَحْيَانًا كَاَنَّهَا بِٱتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ اِذَا كَانَتِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَاْنُهَا اَنْ تَقَعَ بِٱتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قَالَ) وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ جُودَتُهَا فِي ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَفَنِّنَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهَا إِنَّمَا تَكُونُ جُودَتُهَا فِي نَفْسِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَالَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَعْمَالِ فَكَمَا أَنَّ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ وَمِنْهَا مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ مُرَكَّبٍ كَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ. وَٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْبَسِيطَةُ هِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَحَدُ نَوْعَيِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْإِدَارَةَ أَوِ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلِٱسْتِدْلَالَ. وَأَمَّا ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ فَهِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا ٱلصِّنْفَانِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ إِمَّا بِأَنْ يُبْتَدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأَ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ وَٱلِٱعْتِمَادُ هُوَ أَنْ يُبْدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ أَنْ يُبْدَأَ أَوَّلًا بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْدَأَ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَأَعْنِي بِٱلْإِدَارَةِ مُحَاكَاةَ ضِدِّ ٱلْمَقْصُودِ مَدْحُهُ أَوَّلًا بِمَا يَنْفِرُ ٱلنَّفْسُ عَنْهُ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاةِ ٱلْمَمْدُوحِ نَفْسِهِ مَثَلًا إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلسَّعَادَةَ وَأَهْلَهَا ٱبْتَدَأَ أَوَّلًا بِمُحَاكَاةِ ٱلشَّقَاوَةِ وَأَهْلِهَا ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَا حَاكَى بِهِ أَهْلَ ٱلشَّقَاوَةِ. وَأَمَّا ٱلِٱسْتِدْلَالُ فَهُوَ مُحَاكَاةُ ٱلشَّيْءِ فَقَطْ (قَالَ) وَأَحْسَنُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ مَا خُلِطَ بِٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ ٱلِٱسْتِدْلَالُ وَٱلْإِدَارَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَفِي ٱلْمُتَنَفِّسَةِ لَا مِنْ جِهَةِ مَا يُقْصَدُ بِهِ عَمَلٌ

أَوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ أَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَعْنِي ٱلِٱسْتِدْلَالَ وَٱلْإِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْأَعْرَابِ خَافِيَةٍ
أَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ
أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَإِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْأَوَّلَ هُوَ ٱسْتِدْلَالٌ. وَٱلثَّانِي إِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلِٱسْتِدْلَالُ ٱلْإِنْسَانِيُّ وَٱلْإِدَارَةُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهٰذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ أَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَهَاهُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُوَلِّدُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ أَعْنِي ٱنْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَامَّا اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ مِنْ بَابِ ٱلْكَيْفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَامَّا اَجْزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي اَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اَجْزَاءً خَاصَّةً بِاَشْعَارِهِمْ وَٱلَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَى ٱلصَّدْرِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ ٱلدِّيَارَ وَٱلْآثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْمَدْحُ . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ ٱلَّذِي يَجْرِي مَجْرَى ٱلْخَاتِمَةِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهٰذَا ٱلْجُزْءُ اَكْثَرَ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ اِمَّا دُعَاءٌ لِلْمَمْدُوحِ وَاِمَّا فِي تَقْرِيضِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي قَالَهُ وَٱلْجُزْءُ ٱلْاَوَّلُ اَشْهَرُ مِنْ هٰذَا ٱلْآخَرِ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَ ٱلْاِنْتِقَالَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْاَوَّلِ اِلَى ٱلثَّانِي اَسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اَتَوْا بِٱلْمَدِيحِ دُونَ صَدْرٍ . مِثْلُ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

لَهَانَ عَلَيْنَا اَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَعْدِيدِ اَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَامَّا اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَيْفِيَّةِ وَٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَقَدْ

اَخْبَرْنَا بِهَا . فَامَّا مِنْ اَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ يُمْكِنُ عَمَلُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَنَحْنُ مُخْبِرُونَ عَنْهَا بَعْدُ وَمُضِيفُونَ ذٰلِكَ اِلَى مَا تَقَدَّمَ (قَالَ) وَيَنْبَغِي كَمَا قِيلَ اَنْ لَا يَكُونَ تَرْكِيبُ ٱلْمَدَائِحِ مِنْ مُحَاكَاةٍ بَسِيطَةٍ بَلْ مَخْلُوطَةٍ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْاِسْتِدْلَالَاتِ وَاَنْوَاعِ ٱلْاِدَارَةِ وَمِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ ٱلْمُخِيفَةَ ٱلْمُحَرِّكَةَ ٱلْمُرَقِّقَةَ لِلنُّفُوسِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُقْصَدُ بِهَا ٱلْحَثُّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ مُرَكَّبَةً مِنْ مُحَاكَاةِ ٱلْفَضَائِلِ وَمِنْ مُحَاكَاةِ اَشْيَاءَ مُخَوِّفَةٍ مُحْزِنَةٍ يُتَفَجَّعُ لَهَا وَهِيَ ٱلشَّقَاوَةُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مِنْ عَدَمِ ٱلْفَضَائِلِ لَا بِٱسْتِيهَالٍ وَذٰلِكَ اَنَّ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ يَشْتَدُّ تَحَرُّكُ ٱلنَّفْسِ لِقَبُولِ ٱلْفَضَائِلِ فَاِنَّ ٱنْتِقَالَ ٱلشَّاعِرِ مِنْ مُحَاكَاةِ فَضِيلَةٍ اِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَضِيلَةٍ اَوْ مِنْ مُحَاكَاةِ فَاضِلٍ اِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَاضِلٍ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَحُثُّ ٱلْاِنْسَانَ وَيُزْعِجُهُ اِلَى فِعْلِ ٱلْفَضَائِلِ اِذَا كَانَ لَيْسَ يُوجِبُ مَحَبَّةً لَهَا زَائِدَةً وَلَا خَوْفًا . وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ يَجِبُ اَنْ يُوجَدَ فِيهَا هٰذَانِ ٱلْاَمْرَانِ وَذٰلِكَ يَكُونُ اِذَا ٱنْتَقَلَ مِنْ مُحَاكَاةِ ٱلْفَضَائِلِ اِلَى مُحَاكَاةِ ٱلشَّقَاوَةِ وَرَدَاءَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلنَّازِلَةِ بِٱلْاَفَاضِلِ اَوِ ٱنْتَقَلَ مِنْ هٰذِهِ اِلَى مُحَاكَاةِ اَهْلِ ٱلْفَضَائِلِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةَ تُرِقُّ ٱلنُّفُوسَ وَتَذْعَجُهَا اِلَى قَبُولِ ٱلْفَضَائِلِ وَاَنْتَ تَجِدُ اَكْثَرَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي ذُكِرَ اِذْ كَانَتْ تِلْكَ هِيَ اَقَاوِيلَ مَدِيحِيَّةً تَدُلُّ عَلَى ٱلْعَمَلِ مِثْلُ مَا وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ وَاِخْوَتِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْاَقَاصِيصِ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَوَاعِظَ (قَالَ) وَاِنَّمَا تَحْدُثُ ٱلرَّحْمَةُ وَٱلرِّقَّةُ بِذِكْرِ حُدُوثِ ٱلشَّقَاوَةِ

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ . وَٱلْخَوْفُ اِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُمْ اَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ اِذْ كَانَ اَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ اِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَاِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ اَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ اَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ اَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ اَحَدَ اَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى اَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ اَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلْاِنْتِقَامِ وَاِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِاَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَاَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِاَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْاِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ اَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ تَخْيِيلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْاَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْاِدَارَةِ وَاِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْاَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ اِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ اَفْعَالِ ٱلْاَوْلِيَاءِ

وَٱلْاَصْدِقَاءِ . وَاَمَّا عَدُوُّ ٱلْعَدُوِّ اَوْ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلْمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ اِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلْمُخِيفَةُ ٱلْمُحْزِنَةُ مَخْرَجُهَا مَخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِاَنَّهُ اِذْ كَانَتِ ٱلْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا اَوْ اُخْرِجَتْ مَخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ اَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي اَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلْقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ اَرَاذِلَ لِاَنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِاَحَدِ قَوْلَيْنِ اِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَاِمَّا قَوْلٍ لَيْسَ بُرْهَانِيًّا . وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ اَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحْزِنَةً وَاَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلْمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ اِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَاِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ اَيُّ لَذَّةٍ ٱتَّفَقَتْ لٰكِنْ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلْاِلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلْفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ . وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلْاِلْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

الرحمة والخوف فانما يقدر الانسان على ذلك اذا التمس اي الاشياء هي الصعبة من النوائب التي تنوب واي الاشياء هي الاشياء اليسيرة الهينة التي ليس يلحق عنها كبر حزن ولا خوف وامثال هذه الاشياء هي ما ينزل بالاصدقاء بعضهم من بعض من قبل الارادة من الرزايا والمصائب لا ما ينزل بالاعداء بعضهم من بعض فان الانسان ليس يحزن ولا يشفق لما ينزل من السوء بالعدو من عدوه كما يحزن ويخاف من السوء النازل بالصديق من صديقه وان كان قد يلحق عن ذلك الم فليس يلحق مثل الالم الذي يلحق من السوء الذي ينزل من المحبين بعضهم ببعض مثل قتل الاخوة بعضهم بعضا او قتل الآباء الابناء او الابناء الآباء ولهذا الذي ذكره كان قصص ابراهيم فيما امر في ابنه في غاية الاقاويل الموجبة للحزن والخوف (قال) والمدح انما ينبغي ان يكون بالافعال الفاضلة التي تصدر عن ارادة وعلم لان من الاشياء ما يفعل عن ارادة وعلم ومنها ما يفعل لا عن ارادة ولا علم ومنها يفعل عن علم لا عن ارادة او عن ارادة لا عن علم وكذلك الافعال منها ما تكون لمن يعرف ولمن لا يعرف فالفعل اذا صدر من غير معرفة ولا ارادة فليس يدخل في باب المديح وكذلك اذا كان صادرا من غير معروف لانه يكون حينئذ في الاكذوبات ادخل منه في الشعر ولا يجب ان يحاكى . واما الافعال التي لا يشك انها صدرت عن ارادة ومعرفة

وعن معروفين فما احسن الاستدلال الذي يكون في هذه الافعال (قال) فاما في حسن قوام الامور التي تركب منها الاشعار وكيف ينبغي ان يكون تركيبها فقد قلنا في ذلك قولا كافيا فاما اي العادات هي العادات التي ينبغي ان تحاكى في المدح فقد يجب ان نقول فيها فنقول ان العادات التي تحاكى عند المدح الجيد اعني الذي يحسن موقعها من السامعين اربعة احداها العادات التي هي خيرة وفاضلة في ذلك الممدوح فان الذي يؤثر في النفس هو محاكاة الاشياء الحق الموجودة في ذلك الممدوح وكل جنس ففيه خير ما وان كان فيه اشياء ليست خيرا . والثانية ان تكون العادات من التي تليق بالممدوح وتصلح له وذلك ان العادات التي تليق بالمراة ليست تليق بالرجل . والثالثة ان تكون من العادات الموجودة فيه على اتم ما يمكن ان توجد فيه من الشبه والموافقة . والرابعة ان تكون معتدلة متوسطة بين الاطراف وانما كان ذلك كذلك لان العوائد الرذلة ليس مما يمدح بها وكذلك العوائد التي لا تليق بالممدوح وان كانت جيادا وكذلك العوائد اللائقة اذا لم توجد على اتم ما يمكن فيها من المشابهة او لم توجد مستوفاة والعوائد التي هي خير وتدل على الخلق الخير الفاضل منها ما هي كذلك في الحقيقة ومنها ما هي كذلك في المشهور ومنها ما هي شبيهة بهذين والعوائد الجياد اما حقيقية واما شبيهة بالحقيقية واما مشهورة او شبيهة بالمشهورة وكل

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْاَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِاِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ اِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ اِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا اَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى اَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ اَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْاَخْلَاقَ وَاَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِاُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ اِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

اَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ   وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ
يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسِّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ   اِلَيْكَ اِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْاَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَاَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَاَنْوَاعُ ٱلْاِسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى اَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

اَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ فَمِنْهَا اَنْ تَكُونَ ٱلْمُحَاكَاةُ لِاَشْيَاءَ مَحْسُوسَةٍ بِاَشْيَاءَ مَحْسُوسَةٍ مِنْ شَاْنِهَا اَنْ تُوقِعَ ٱلشَّكَّ لِمَنْ يَنْظُرُ اِلَيْهَا وَتُوهِمُ اَنَّهَا هِيَ لِاشْتِرَاكِهَا فِي اَحْوَالٍ مَحْسُوسَةٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ لِبَعْضِ صُوَرِ ٱلْكَوَاكِبِ سَرَطَانًا وَلِبَعْضِهَا مُمْسِكَ ٱلْحَرْبَةِ لِاَنَّهَا مِنْ جِهَةِ ٱلشَّكْلِ يُمْكِنُ اَنْ يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ اَنَّهَا هِيَ هِيَ. وَجُلُّ تَشْبِيهَاتِ ٱلْعَرَبِ رَاجِعَةٌ اِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ حُرُوفُ ٱلتَّشْبِيهِ عِنْدَهُمْ تَقْتَضِي ٱلشَّكَّ وَكُلَّمَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْمُتَوَهَّمَاتُ اَقْرَبَ اِلَى وُقُوعِ ٱلشَّكِّ كَانَتْ اَتَمَّ تَشْبِيهًا وَكُلَّمَا كَانَتْ اَبْعَدَ مِنْ وُقُوعِ ٱلشَّكِّ كَانَتْ اَنْقَصَ تَشْبِيهًا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْبَعِيدَةُ وَيَنْبَغِي اَنْ تُطْرَحَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

كَاَنَّهَا هِرَاوَةُ مِنْوَالِ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ :

اِذَا اَقْبَلَتْ قُلْتُ دُبَّاءَةٌ   مِنَ ٱلْخُضْرِ مَغْمُوسَةٌ فِي ٱلْغُدُرْ
وَاِنْ اَدْبَرَتْ قُلْتُ اُثْفِيَّةٌ   مُلَمْلَمَةٌ لَيْسَ فِيهَا اُثُرْ

وَاِنْ كَانَ هٰذَا اَقْرَبَ مِنَ ٱلْاَوَّلِ لِاَنَّ فِيهِ مُقَابَلَةً مَا. وَمِنْهَا اَنْ تَكُونَ ٱلْمُحَاكَاةُ لِاُمُورٍ مَعْنَوِيَّةٍ بِاُمُورٍ مَحْسُوسَةٍ اِذْ كَانَ لِتِلْكَ ٱلْاُمُورِ اَفْعَالٌ مُنَاسِبَةٌ لِتِلْكَ ٱلْمَعَانِي حَتَّى تُوهِمَ اَنَّهَا هِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ فِي ٱلْمِنَّةِ اِنَّهَا طَوْقُ ٱلْعُنُقِ وَفِي ٱلْاِحْسَانِ قَيْدٌ كَمَا قَالَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ :

وَمَنْ وَجَدَ ٱلْاِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ اَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ :

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَاِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ . وَاَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ :

كُشَبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبًا

وَكَمَا اَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَا هُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا اَيْضًا وَاَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ . فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ :

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْاُفُقِ عَيْنُ ٱلْاَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ :

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ اَنَّهُمْ سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا
وَكَانُوا كُفَارٍ وَشْوَشُوا خَلْفَ حَائِطٍ وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْاِقْنَاعِ اُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلْمَثَالَاتِ ٱلْخُطَبِيَّةِ مِنْهَا اِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ :

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ اَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ اَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ اُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ اَوِ ٱلْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ اَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ اَنْ يَرَى ٱلْاِنْسَانُ خَطَّ اِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ اِنْ كَانَ مَيْتًا اَوْ يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ اِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا اَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَاَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ اِنَّ ٱلْاَسَى يَبْعَثُ ٱلْاَسَى دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا اِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى
فَهَيَّجَ اَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَاَنَّمَا
اَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا وَاَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

ابى الصبر اني لا يزال يهيجني ... مبيت لنا فيما مضى ومقيل
اذا ما بياض الصبح آنست ضوءه ... يعاودني جنح علي ثقيل

وهذا النوع كثير في اشعار العرب ومن هذا الموضع تذكرها الاحبة بالديار والاطلال كما قال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ويقرب من هذا الموضع ما جرت به عادة العرب من تذكر الاحبة بالخيال واقامته مقام المتخيل كما قال شاعرهم :

واني لاستغشي وما بي نعسة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا
واخرج من بين البيوت لعلني ... احدث عنك النفس في السر خاليا

وتصرف العرب والمحدثين في الخيال متفنن وانحاء استعمالهم له كثيرة ولذلك يشبه ان يكون من المواضع الشعرية الخاصة بالنسيب وقد يدخل في الرثاء كما قال البحتري :

خلا ناظري من طيفه بعد شخصه ... فيا عجبا للدهر فقد على فقد

(قال) واما النوع الرابع من المحاكاة فهو ان يذكر ان شخصا ما شبيه بشخص من ذلك النوع بعينه وهذا التشبيه لا يكون الا في الخلق او الخلق مثل قول القائل جاء شبيه يوسف ولم يأت الا فلان ومن هذا قول امرئ القيس :

وتعرف فيه من ابيه شمائلا

والتصريح بالتشبيه خلاف التشبيه فان التشبيه هو ايقاع شك والتصريح بالشبيه بين اثنين هو تحقيق لوجود الشبه وهو الغاية في

مطابقة التخييل اعني اذ قيل شبيه فلان (قال) والنوع الخامس هو الذي يستعمله السوفسطائيون من الشعراء وهو الغلو الكاذب وهذا كثير في اشعار العرب والمحدثين مثل قول النابغة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه ... وتوقد بالصفاح نار الحباحب

وقول الآخر:

فلولا الريح اسمع من بحجر ... صليل البيض تقرع بالذكور

وهذا كله كذب ومن هذا قول ابي الطيب :

عدوك مذموم بكل لسان ... ولو كان من اعدائك القمران

وقوله في هذه القصيدة :

لو الفلك الدوار ابغضت سيره ... لعوقه شيء عن الدوران

• ومن هذا الباب قول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول
من الذر فوق الاتب منها لاثرا

وهذا كثير موجود في اشعار العرب وليس تجد في الكتاب العزيز منه شيئا اذ كان يتنزل من هذا الجنس من القول اعني الشعر منزلة الكلام السوفسطائي من البرهان ولكن قد يوجد للمطبوع من الشعراء منه شيء محمود مثل قول المتنبي :

وانى اهتدى هذا الرسول بارضه
وما سكنت مذ سرت فيها القساطل

وَمِنْ اَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ

وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ الدِّمَاءِ المَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ:

لَبِسْنَ الوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ   وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ الجَمَالَا

وَضَفَّرْنَ الغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ   وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي الشَّعَرِ الضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ العَرَبُ وَهُوَ اِقَامَةُ الجَمَادَاتِ مُقَامَ النَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ اِذَا كَانَتْ فِيهَا اَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى النُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَاَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَاَيْتُهُ   وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَانِ حِينَ رَآنِي

فَقُلْتُ لَهُ اَيْنَ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ   حَوَالَيْكَ فِي اَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ

فَقَالَ مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ   وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا البَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ الدِّيَارَ وَالاَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ:

وَاَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا اُبِثُّهُ   تُكَلِّمُنِي اَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ:

اَعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ   حَتَّى تَكَلَّمَ كَالاَصَمِّ الاَعْجَمِ

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالجِوَاءِ تَكَلَّمِي   وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاَسْلَمِي

اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا المَوْضِعَ فِي كِتَابِ الخَطَابَةِ وَذَكَرَ اَنَّ اُومِيرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَالاِسْتِدْلَالُ الفَاضِلُ وَالاِدَارَةُ اِنَّمَا تَكُونُ لِلاَفْعَالِ

الاِرَادِيَّةِ وَاَكْثَرُ مَا يُوجَدُ هٰذَا النَّوْعُ مِنَ الاِسْتِدْلَالِ فِي الكِتَابِ العَزِيزِ اَعْنِي فِي مَدْحِ الاَفْعَالِ الفَاضِلَةِ وَذَمِّ الاَفْعَالِ الغَيْرِ فَاضِلَةٍ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي اَشْعَارِ العَرَبِ. وَمِثَالُ الاِدَارَةِ فِي المَدْحِ قَوْلُ القُرْآنِ: ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً اِلَى قَوْلِهِ: مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. وَمِثَالُ الاِسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ: كَمَثَلِ حَبَّةٍ اَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ الآيَةَ. (قَالَ) وَاِجَادَةُ القَصَصِ الشِّعْرِيِّ وَالبُلُوغُ بِهِ اِلَى غَايَةِ التَّمَامِ اِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ الشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ الشَّيْءِ اَوِ القَضِيَّةِ الوَاقِعَةِ الَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي السَّامِعِينَ لَهُ كَاَنَّهُ مَحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ اِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذٰلِكَ الوَصْفِ وَهٰذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ الفُحُولِ وَالمُفْلِقِينَ مِنَ الشُّعَرَاءِ لٰكِنْ اِنَّمَا يُوجَدُ هٰذَا النَّحْوُ مِنَ التَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ اِمَّا فِي اَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَاِمَّا فِيمَا القَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ التَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ فِي الفُجُورِ قَوْلُ اَمْرِئِ القَيْسِ:

سَمَوْتُ اِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ اَهْلُهَا   سُمُوَّ حَبَابِ المَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ

فَقَالَتْ سَبَاكَ اللّٰهُ اِنَّكَ فَاضِحِي   اَلَسْتَ تَرَى السُّمَّارَ وَالنَّاسَ اَحْوَالِي

فَقُلْتُ يَمِينُ اللّٰهِ اَبْرَحُ قَاعِدًا   وَلَوْ قَطَعُوا رَاْسِي لَدَيْكِ وَاَوْصَالِي

وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا القَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ التَّشْبِيهِ فَقَطْ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ يَصِفُ النَّارَ:

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِي

اَبَاهَا وَهَيَّاْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكْرَا

فَقُلْتُ لَهَا ارْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَاقْتَتْهُ لَهَا قِيتَةً قَدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يَحْصُلَ لِلْإِنْسَانِ أَوَّلًا جَمِيعُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلِاسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلِاسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ. وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا. وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ   مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِٱلْفَلَا   لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ ٱلْعِيدِ
هَيْهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ   حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ ٱلْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هٰذَا ٱلشَّادِنُ ٱلْعَرَبَا
فَٱسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَٱلْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ ٱلشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا ٱنْتَسَبَا

وَأَمَّا ٱلْحَلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ ٱلْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ ٱلْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا ٱلْإِدَارَةُ. وَٱلثَّانِي ٱلِاسْتِدْلَالُ. وَٱلثَّالِثُ ٱلِانْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَٱلرَّابِعُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ ٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ ٱلْمَدَائِحِ ٱلْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْقَصَائِدِ ٱلْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ ٱلْأَشْعَارَ ٱلْقِصَارَ وَٱلْقَصَائِدَ ٱلْقَصِيرَةَ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُجِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِٱلْكَثْرَةِ وَٱلْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنْ

الاشياء الموصوفة وجب ان يكون التخييل الفاضل هو الذي لا يتجاوز خواص الشيء ولا حقيقتها فمن الناس من لقد اعتاد او من فطرته معدة نحو تخييل الاشياء القليلة الخواص فهؤلاء تجود اشعارهم في المقطعات ولا تجود في القصائد ومن الشعراء من هو على ضد هؤلاء وهم المقصدون كالمتنبي وحبيب وهم الذين اعتادوا القول في الاشياء الكثيرة الخواص او هم بفطرهم معدون لمحاكاتها او اجتمع لهم الامران جميعا (قال) ومن التخييلات والمعاني ما يناسب الاوزان الطويلة ومنها ما يناسب القصيرة وربما كان الوزن مناسبا للمعنى غير مناسب للتخييل وربما كان الامر بالعكس وربما كان غير مناسب لكليهما وامثلة هذه مما يعسر وجودها في اشعار العرب او تكون غير موجودة فيها اذ اعاريضهم قليلة القدر (قال) وقد يضاف الى الاشياء التي بها قوام الاشعار امور من خارج وهي الهيئات التي تكون في صوت الشاعر وصورته على ما تقدم واكثر ما توجد هذه من الشعراء المستعملين لها في الاشعار الانفعالية مثل التي تقال في اهل الجحيم وغيرهم. ولما كنا قد قلنا في الاشياء التي تتقوم بها الاشعار التي هي اجزاؤها بالحقيقة فقد ينبغي ان نقول في هذه ايضا فنقول: ان هذه الافعال بالجملة هي التي تدل عليها الاقوال التي تسمى الانفعالية ولذلك ينبغي اذا استعملت هذه ان تستعمل مع هذه الاقاويل. وذلك ان هذه تري الانفعال الذي يقصد بالقول تثبيته كانه قد وقع

واستيقن. وقد تقدم لك في كتاب الخطابة الاقاويل الانفعالية الخطبية وضروب الانفعالات التي تفعلها هذه الاقاويل ولذلك كانت هذه الافعال اخص بكتاب الخطابة منها بكتاب الشعر. والانفعالات التي تثبت بالقول الخطبي او الشعري هي الخوف والغضب والرحمة والتعظيم وسائر الاشياء التي عددت في كتاب الخطابة. وهو ظاهر انه كما ان ها هنا اقوالا توجب هذه الانفعالات كذلك ها هنا هيئات واشكال تدل من المتكلم على حضور الاشياء التي توجب هذه الانفعالات وانها قد وقعت لوقوع الاشياء الفاعلة لها فينفعل لذلك الناظر لها فهذه الصور والهيئات انما ينبغي ان تستعمل في الشعر ان استعملت مع الاقاويل الانفعالية الشعرية وذلك اما في التعظيم واما في التصغير واما في الاشياء المحزنة المخوفة اذ كانت هذه الاشياء هي التي تستعمل صناعة المديح من الاقاويل الانفعالية على ما سلف. وانما تستعمل هذه مع الاقاويل الانفعالية التي ليست صادقة اعني التي ليست هي ظاهرة التخييل. واما الاقاويل الانفعالية التي هي ظاهرة التخييل ومناسبة للغرض المقول فيه وهي حق فليس يحتاج ان تستعمل فيها هذه الامور التي من خارج فانها تهجنها اذ كانت هذه انما تستعمل في الاقاويل التي تضعف ان تفعل ما قصد بها الا باقتران هذه الاشياء بها وهي الاقاويل الشعرية فان القائل من الفقهاء لعبد الرحمان الناصر بحضر الملا من اهل قرطبة يحرضه على حسداي اليهودي:

ان الذي شرفت من اجله   يزعم هذا انه كاذب

لَمْ يَختَجْ فِي إِغضَابِ ٱلناصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هٰذَا ٱلقَوْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلقَوْلَ وَٱلقَائِلَ إِذَا كَانَ بِٱلسَّمْتِ وَٱلوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلأَشْكَالِ ٱلخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلأَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلأَخْذَ بِٱلوُجُوهِ. وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ ٱلقَوْلِ شَكْلَ ٱلخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلأَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ. وَذٰلِكَ أَنَّ شَكْلَ ٱلمُخْبِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلآمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ أَوِ ٱلمُتَضَرِّعِ. فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ ٱلأَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ تِلْكَ إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريّة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَٱلأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلْكَ ٱلأَسْمَاءُ ٱلَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ ٱلقَيْسِ (قَالَ) وَكُلُّ ٱسْمٍ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَإِمَّا دَخِيلٌ فِي ٱللِّسَانِ وَإِمَّا مَنْقُولٌ نَادِرُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ وَإِمَّا مُزَيَّنٌ وَإِمَّا مَعْمُولٌ وَإِمَّا مَعْقُولٌ وَإِمَّا مُفَارَقٌ وَإِمَّا مُغَيَّرٌ. فَٱلحَقِيقِيُّ هُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَكُونُ خَاصًّا بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَٱلدَّخِيلُ هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ ٱلشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ ٱلإِسْتَبْرَقِ وَٱلمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلأَسْمَاءِ ٱلأَعْجَمِيَّةِ ٱلدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ ٱلعَرَبِ. وَأَمَّا ٱلِٱسْمُ ٱلنَّادِرُ ٱلمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ ٱسْمٍ غَرِيبٍ إِمَّا مِنَ ٱلنَّوْعِ إِلَى ٱلجِنْسِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلقَتْلِ مَوْتًا وَإِمَّا مِنَ ٱلجِنْسِ إِلَى ٱلنَّوْعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلنُّقْلَةِ حَرَكَةً وَإِمَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلخِيَانَةِ سَرِقَةً وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنْسُوبٍ إِلَى رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ ٱلأَوَّلِ إِلَى ٱلثَّانِي مِثْلَ مَا كَانَ يُسَمِّي بَعْضُ ٱلقُدَمَاءِ ٱلشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلعُمْرِ وَيُسَمِّي ٱلعَشِيَّةَ شَيْخُوخَةَ ٱلنَّهَارِ وَذٰلِكَ أَنَّ نِسْبَةَ ٱلشَّيْخُوخَةِ إِلَى ٱلعُمْرِ نِسْبَةُ ٱلعَشِيَّةِ إِلَى ٱلنَّهَارِ وَأَمَّا ٱلِٱسْمُ ٱلمَعْمُولُ ٱلمُرْتَجَلُ فَهُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَخْتَرِعُهُ ٱلشَّاعِرُ ٱخْتِرَاعًا وَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ مَنِ ٱسْتَعْمَلَهُ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وَأَكْثَرُ مَا فِي ٱلصَّنَائِعِ هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلمُحْدَثُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ أَعْنِي ٱلمَنْقُولَ إِلَى ٱلصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ اَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ ٱلْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَامَّا ٱلْمُفَارَقُ وَٱلْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ. وَٱلْمُزَيَّنَةُ هِيَ اَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ اَجْزَائِهَا نَغَمًا فَتُزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ يَعْنِي بِٱلْمُفَارَقِ ٱلْاَسْمَاءَ ٱلْمُغَيَّرَةَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا وَٱلنُّقْصَانِ مِنْهَا وَٱلْحَذْفِ اَوِ ٱلْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْاَسْمَاءَ ٱلَّتِي يَعْسُرُ ٱلنُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ ٱسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَٱلِاسْمُ ٱلْمَعْقُولُ فَاِنَّهُ فِيمَا اَحْسِبُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ ٱلْمُخْتَلَفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ ٱلِاسْمُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلنُّقْصَانِ مِثْلُ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَامَّا ٱلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ ٱلْمُسْتَعَارَةُ ٱلَّتِي تُسْتَعَارُ اِمَّا مِنَ ٱلشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلْكَوْكَبَ نَسْرًا وَاِمَّا مِنَ ٱلضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّمْسَ جَوْنَةً وَاِمَّا مِنَ ٱللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّحْمَ نَدًا وَٱلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَاَفْضَلُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلتَّفْهِيمِ اِنَّمَا هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلْمُبْتَذَلُ ٱلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى اَحَدٍ وَهٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلُ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ ٱلْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْمُسْتَوْلِيَةَ وَٱلْاَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذٰلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ. وَيَنْبَغِي اَنْ نَتَفَقَّدَ مِنَ ٱلْغَالِبِ عَلَى اَشْعَارِهِ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ (قَالَ) وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْعَفِيفَةُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ

فَهِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَمِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْاُخَرِ اَعْنِي ٱلْمَنْقُولَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْمُغَيَّرَةَ وَٱللُّغَوِيَّةَ لِاَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ كَانَ رَمْزًا وَلُغْزًا وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْاَلْغَازُ وَٱلرُّمُوزُ هِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ اَعْنِي بِٱلْغَرِيبَةِ ٱلْمَنْقُولَ ٱلْمُسْتَعَارَ وَٱلْمُشْتَرَكَ وَٱللُّغَوِيَّ. وَٱلرَّمْزُ وَٱللُّغْزُ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمْكِنُ اَوْ يَعْسُرُ ٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ بِذٰلِكَ اَحَدَ ٱلْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ اِمَّا بِحَسَبِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَاِمَّا بِحَسَبِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَمُمْكِنٌ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ذِي ٱلرُّمَّةِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْعَفِيفِيِّ اَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْاُخَرِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ حَيْثُ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ يَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلِالْذَاذَ يَأْتِي بِٱلصِّنْفِ ٱلْآخَرِ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ بِمَنْ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ فَيَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ اَوِ ٱلْغَرِيبَةِ اَوِ ٱلْاَلْسُنِ اَوِ ٱلْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ اَيْضًا بِمَنْ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلِالْذَاذَ فَيَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ لَهُ اَلَّا يُفْرِطَ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ اِلَى حَدِّ ٱلرَّمْزِ وَلَا اَيْضًا يُفْرِطَ فِي ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ اِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَارَفِ (قَالَ) وَاَمَّا مُوَافَقَةُ ٱلْاَلْفَاظِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي ٱلْمِقْدَارِ

ومعادلة المعاني بعضها لبعض وموازنتها فامر يجب ان يكون عامًا ومشتركًا لجميع الالفاظ التي هي اجزاء القول الشعري وذلك انا نجد الشعراء وان استعملوا الالفاظ الحقيقية في المواضع التي يهزأ بهم في استعمالهم اياها ليس يخلو شعرهم من هذين الامرين اعني من الموازنة والموافقة في المقدار ولكن كان هذا عامًا لجميع انواع الشعر. واما الاشعار التي تأتلف من الاسماء المختلفة فوجود هذا المعنى فيها ابين وموافقة الالفاظ التي ذكر في المقدار هي مقارنة بعضها لبعض في عدد الحروف وان وافقت مع هذا في كل اللفظ او في بعض اللفظ فهو الذي يعرف بالمطابقة والمجانسة عند اهل زماننا. والموافقة انحاء وذلك انه لا تخلو الموافقة ان تكون في كل اللفظ وكل المعنى وهذا مثل قول الشاعر:

لا ارى الموت يسبق الموت شيء

ومثل قولهم طويل النجاد طويل العماد. او ان تكون في بعض اللفظ وبعض المعنى او ان تكون في بعض اللفظ وكل المعنى او تكون في كل اللفظ وبعض المعنى او تكون في كل اللفظ فقط او في بعض اللفظ فقط او تكون في كل المعنى فقط او في بعض المعنى فمثال الموافقة في بعض اللفظ وبعض المعنى الاسماء المشتقة من تصريف واحد وذلك مثل قول المتنبي:

على قدر اهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

ومثال الموافقة في بعض اللفظ وكل المعنى قولهم درهم ضرب الامير ومضروب الامير. ومثال عكس هذا اعني في كل اللفظ وبعض المعنى الاسماء المشككة والشعراء يستعملونها كثيرًا ومثال الموافقة في كل اللفظ فقط الاسماء المشتركة مثل قول المعري:

معان من احبتنا معان

ومثل قوله:

فرندك مغتال وطرفك مغتال

ومثال المتفقة في بعض اللفظ فقط قول حبيب:

ما انت عن ذهلية بذاهل

وقول ابي الطيب:

اقلب الطرف بين الخيل والخول

وهذا كله في لغة العرب مثل الضرب والضرب والحمل والحمل واشرقت الشمس وشرقت. ومثال الموافقة في كل المعنى فقط الاسماء المترادفة مثل قوله اقوى واقفر. ومثال المتفقة في بعض المعنى فقط الاسماء المختلفة التي تدل من الشيء الواحد على جهات مختلفة مثل الصارم والذكر. والقوافي عند العرب هي موافقة في المقدار وفي بعض اللفظ وذلك اما في حرف واحد

وهو الاخير واما في حرفين وهو الذي يعرفه المحدثون باللزوم واما الموازنة في اجزاء القول فهي على انحاء اربعة احدها ان يأتي الشاعر بالشيء وشبيهه مثل الشمس والقمر او يأتي بالاضداد مثل الليل والنهار او يأتي بالشيء وما يستعمل فيه مثل القوس والسهم والفرس واللجام او يأتي بالاشياء المناسبة مثل الملك والاله وهذه المناسبة انما تؤخذ من اربعة اشياء. وفي هذا الباب عيب على الكميت:

تكامل فيه الدلّ والشنب

لانّ الدلّ غير شبيه بالشنب. ومن هذا الباب قال بعضهم في قول امرىء القيس:

كأني لم اركب جوادا للذة ... ولم اتعرّف كاعبا ذات خلخال
ولم اسبأ الزقّ الرويّ ولم اقل ... لخيلي كرّي كرّة بعد اجفال

انه غير مناسب وانّ التناسب فيه هو عكس ما فعل اعني ان يكون صدر البيت الاول صدر الثاني وصدر الثاني صدر الاول ومثل هذا قيل في قول ابي الطيب:

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الابطال كلمى هزيمة
ووجهك وضّاح وثغرك باسم

انّ التناسب فيه ان يكون صدر البيت الاول للثاني وصدر

الثاني للاول وما قاله ابو الطيب له وجه من التناسب وكذلك ما قاله امرؤ القيس (قال) والقول انما يكون مختلفا اي مغيّرا عن القول الحقيقي من حيث توضع فيه الاسماء متوافقة في الموازنة والمقدار وبالاسماء الغريبة وبغير ذلك من انواع التغيير. وقد يستدل على انّ القول الشعري هو المغيَّر انه اذا غيّر القول الحقيقي سمّي شعرا او قولا شعريا ووجد له فعل الشعر مثال ذلك قول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسّح بالاركان من هو ماسح
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا ... وسالت باعناق المطيّ الاباطح

انما صار شعرا من قبل انه استعمل قوله:

اخذنا باطراف الاحاديث بيننا ... وسالت باعناق المطيّ الاباطح

بدل قوله تحدّثنا ومشينا وكذلك قوله:

بعيدة مهوى القرط

انما صار شعرا لانه استعمل هذا القول بدل قوله طويلة العنق وكذلك قول الآخر:

يا دار اين ظباؤك اللعس ... قد كان لي في انسها انس

انما صار شعرا لانه اقام الدار مقام الناطق بمخاطبتها وابدل لفظ النساء بالظباء وأتى بموافقة الانس والانس في اللفظ وانت اذا تأمّلت الاشعار المحرّكة وجدتها بهذه الحال. وما عدا هذه التغييرات فليس فيه من معنى الشعرية الا الوزن فقط والتغييرات

تكونُ بالموازنةِ والمدافعةِ والابدالِ والتشبيهِ وبالجملةِ باخراجِ القولِ غيرَ مخرجِ العادةِ مثلُ القلبِ والحذفِ والزيادةِ والنقصانِ والتقديمِ والتأخيرِ وتغييرِ القولِ منَ الايجابِ الى السلبِ ومنَ السلبِ الى الايجابِ وبالجملةِ منَ المقابلِ الى المقابلِ وبالجملةِ بجميعِ الانواعِ التي تسمّى عندنا مجازًا فالحذفُ مثلُ قولِ القرآنِ واسألِ القريةَ. وقولِهِ: ولو انَّ قرآنًا سُيِّرت بهِ الجبالُ او قُطِّعت بهِ الارضُ او كُلِّمَ بهِ الموتى. والقلبُ مثلُ قولِ القائلِ: فلانٌ من اجلِ بنيهِ لا بنوهُ من اجلِهِ والسنةُ سببُ الانسانِ لا الانسانُ سببُ السنةِ. والتقديمُ والتأخيرُ مثلُ قولِهِ: ولم يجعل لهُ عوجًا قيّمًا. وقولِهِ: واذِ ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ. والزيادةُ مثلُ قولِهِ: تنبُتُ بالدهنِ ومثلُ قولِهِ: ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ومثلُ قولِهِ ولا طائرٌ يطيرُ بجناحيهِ ومثالُ التغييرِ منَ الايجابِ الى السلبِ قولُ القائلِ: ما فعلَهُ احدٌ الّا انتَ بدلَ قولِهِ: انتَ فعلتَهُ ومن هذا المعنى قولُ النابغةِ:

ولا عيبَ فيهم غيرَ انَّ سيوفَهم بهنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

فانهُ اوجبَ لهمُ الفضائلَ لينفيَ العيوبَ واستثنى منها ما ليسَ بعيبٍ على جهةِ تسميةِ الشيءِ باسمِ ضدِّهِ. ومنَ التغييراتِ اللذيذةِ جمعُ الاضدادِ في شيءٍ واحدٍ كقولِهِ:

فيكَ الخصامُ وانتَ الخصمُ والحكَمُ

وكونُ الضدِّ سببًا لضدٍّ كقولِهِ: ولكم في القصاصِ حياةٌ وليسَ يخفى عليكَ انواعُها البسيطةُ والمركّبةُ المحصورةُ في هذهِ الكلّياتِ

ويشبهُ ان يكونَ احصاءُ انواعِها الاخيرةِ عسيرًا جدًّا ولذلكَ اقتصرَ هنا على الكلّياتِ فقط. والفاضلُ من هذهِ الاشياءِ هوَ ان يُستعمَلَ من كلِّ واحدٍ منها ما هوَ ابينُ واظهرُ واشبهُ وهذا لا يوجدُ الّا في النادرِ منَ الشعراءِ وذلكَ انَّ استعمالَ الابينِ من هذهِ الاشياءِ والاشبهِ هوَ دليلُ المهارةِ. وهذا الصنفُ هوَ الذي يجمعُ الى جودةِ الافهامِ فعلَ الاقاويلِ الشعريّةِ اعني تحريكَ النفسِ مثالُ ذلكَ انَّ الابدالَ اذا كانَ شديدَ الشبهِ افادَ جودةَ التخييلِ والافهامِ معًا وربّما عرضَ منَ الابدالِ المناسبِ قلّةُ فهمٍ عندَ الفدامِ منَ السامعينَ كما عرضَ في قولِهِ: حتّى يتبيّنَ لكمُ الخيطُ الابيضُ منَ الخيطِ الاسودِ ان ظنَّ بعضُهم انهُ الخيطُ الحقيقيُّ فنزلت منَ الفجرِ. (قالَ) والاسماءُ المركّبةُ تصلحُ للوزنِ الذي يُثنى فيهِ على الاخيارِ من غيرِ تعيينِ رجلٍ واحدٍ منهم وهذهِ الاسماءُ هيَ قليلةُ الوجودِ في لسانِ العربِ وهيَ مثلُ قولِهمِ العبشميُّ المنسوبُ الى عبدِ شمسٍ. واما اللغاتُ فتصلحُ للشعرِ الذي يُذكَرُ فيهِ امرُ المعادِ وما فيهِ منَ الاهوالِ وكانَ صنفًا منَ الشعرِ عندَهم معروفًا. واما الاسماءُ المنقولةُ الغريبةُ فتختصُّ بالاشعارِ التي تُقالُ في الامثالِ والحِكَمِ والقصصِ المشهورةِ

البحث الثامن

في صناعة الاشعار القَصصية

(من الكتاب نفسهِ)

(قال) ففيما قلناهُ في صناعة المديح وفي الاشياء المشتركة لاصناف الاشعار من التشبيه وغير ذلك كفاية. والاشعار القصصية سبيلها في الاجزاء التي هي المبدأ والوسط والنهاية سبيل اجزاء صناعة المديح وكذلك في المحاكاة الّا انّ المحاكاة ليس تكون للافعال فيها وانما تكون للازمنة الواقعة فيها تلك الافعال وذلك انهُ انما يحاكى في هذه كيف كانت احوال المتقدم مع احوال المتأخر وكيف تنقل الدول والممالك والايام. ومحاكاة هذا النوع من الوجود قليل في لسان العرب وهو كثير في الكتب الشرعية. وذكر مجيدين في هذا الصنف من شعرائهم واثنى ثناء عامًّا على اوميروش. ومن جيد ما في هذا المعنى للعرب قول الاسود بن يعفر:

ماذا أؤمّل بعد آل محرّق ... تركوا منازلهم وبعد اياد

ارض الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد

نزلوا بانقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من اطواد

جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد

فارى النعيم وكل ما يلهى به ... يومًا يصير الى بلى ونفاد

(قال) واجزاء هذا النوع هي اجزاء صناعة المديح العفيفة من الادارة والاستدلال والتركيب منهما. وربما كان بعض اجزائها انفعاليًّا كالحال في صناعة المديح. وصنائع الشعر واحكامها في التلحين والغناء احكام صناعة المديح. وذكر فروقًا بين صناعة المديح وبين صنائع الشعر الأُخر عنهم وخواصَّ تختص بها تلك الاشعار الأُخر في الاوزان والاجزاء والمحاكاة والقدر وانّ هاهنا اوزانًا هي اليق ببعض الاشعار من بعض وذكر من اجاد من الشعراء في هذه الاشياء ومن لم يجد واثنى في هذا كلّه على اوميروش وكلّ ذلك خاصٌّ بهم وغير موجود مثالهُ عندنا امّا لانّ ذلك الذي ذكر غير مشترك للاكثر من الامم واما انهُ عرض للعرب في هذه الاشياء امرٌ خارج عن الطبع وهو ابين فانهُ ما كان ليثبت في كتابه هذا ما هو خاصٌّ بهم بل ما هو مشترك للامم الطبيعية.

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسهِ)

وينبغي ان يكون ما يأتي به الشاعر من الكلام يسيرًا بالاضافة الى الكلام المحاكى كما كان يفعل اوميروش فانهُ انما كان يعمل صدرًا يسيرًا ثم يتخلص الى ما يريد محاكاته من غير ان يأتي في ذلك بشيء لم يعتد لكن ما قد اعتيد فانّ غير المعتاد

مُنْكَرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ لِأَنَّ لِلْأُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ:

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ   إِثَارَةَ نَبَّاثِ ٱلْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمُ ٱلضَّبَّ بِٱلنُّونِ لِمَكَانِ ٱلسَّرَابِ ٱلْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ ٱلْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِإِيرَادِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ ٱلنُّطْقِ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ ٱسْمُ ٱلْفَصَاحَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلُ ظَاهِرَ ٱلصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ ٱلصِّدْقَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ ٱلْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّغْيِيرِ وَٱلْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَٱلْغَلَطُ ٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ. أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ يَصِفُ ٱلْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ:

أُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ   قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ. وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ ٱلشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ ٱلْأَشْرَارِ بِٱلشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لَا فِي ٱلْأَقَلِّ أَوْ عَلَى ٱلتَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْوُجُودِ هُوَ ٱلْيَقُ بِٱلْخَطَابَةِ مِنْهُ بِٱلشِّعْرِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّانِي مِنْ غَلَطِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ ٱلْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ يَزِيدَ فِي ٱلصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ ٱلرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ ٱلْحَيَوَانِ ذِي ٱلْأَرْبَعِ وَٱلْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ ٱلْفَرَسَ:

وَعَلَى أُذْنَيْهِ أُذْنٌ ثَالِثٌ   مِنْ سِنَانِ ٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلْأَزْرَقِ

وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلنَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ ٱلتَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَٱلْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشَبَّهَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ ٱلنَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ ٱلْعَرَبِ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَبِبَقَرِ ٱلْوَحْشِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلرَّابِعُ أَنْ يُشَبِّهَ ٱلشَّيْءَ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ سَقِيمَةُ ٱلْجُفُونِ فِي ٱلْحَسَنَةِ ٱلْغَاضَّةِ ٱلنَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ:

رَاحُوا كَأَنَّهُمُ مَرْضَى مِنَ ٱلْكَرَمِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ:

ومخرّق عنه القميص تخاله　　وسط البيوت من الحياء سقيما

فإنّ هذه كلّها هي أضداد الصفات الحسنة وإنما آنس بذلك العادة. والموضع الخامس أن يأتي بالأسماء التي تدلّ على المتضادين بالسواء مثل الصريم في لسان العرب والقرء والجلد وغير ذلك مما قد ذكره أهل اللغة. والموضع السادس أن يترك المحاكاة الشعرية وينتقل إلى الإقناع والأقاويل التصديقية وبخاصّة متى كان القول هجينا قليل الإقناع وذلك مثل قول امرئ القيس يعتذر عن جبنه :

وما جبنت خيلي ولكن تذكّرت　　مرابطها من بربعيص وميسرا

وقد يحسن هذا الصنف إذا كان حسن الإقناع أو صادقا مثل قول الآخر يعتذر عن الفرار :

الله يعلم ما تركت قتالهم　　حتى رموا فرسي بأشقر مزبد

وعلمت أني إن أقاتل واحدا　　أقتل ولا ينكي عدوّي مشهدي

فصددت عنهم والأحبّة فيهم　　طمعا لهم بعقاب يوم مفسد

فإنّ هذا القول إنما حسن في الأكثر لصدقه لأنّ التغيير الذي فيه يسير ولذلك قال القائل : يا معشر العرب لقد حسّنتم كلّ شيء حتى الفرار (قال) وإذا كانت مواضع الغلط ستّة ومواضع التوبيخ مقابلتها فيجب أن تكون مواضع الغلط الذاتي والتوبيخ الخاصي اثني عشر موضعا ستّة أغاليط وستّة توبيخات وأمثلة التوبيخات غير موجودة عندنا إذ كان شعراؤنا لم تتميّز

لهم هذه الأشياء ولا شعروا بها فهذا هو ما تأدّى إلى فهمنا مما ذكره أرسطو في كتابه هذا من الأقاويل المشتركة لجميع أصناف الشعر والخاصّة بالمديح أعني المشتركة منها أيضا للأكثر أو للجميع وسائر ما ذكره في كتابه هذا من الفصول التي بين سائر أصناف الشعر عندهم وبين صنف المديح فهو خاصّ بهم ومع ذلك فلسنا نجده ذكر من ذلك في هذا الكتاب الواصل إلينا إلّا بعض ذلك. وذلك يدلّ على أنّ هذا الكتاب لم يترجم على التمام وأنه بقي منه التكلّم في سائر فصول أصناف كثير من الأشعار عندهم وقد كان هو وعد بالتكلّم في هذه كلّها في صدر كتابه. والذي نقص مما هو مشترك هو التكلّم في صناعة الهجاء لكن يشبه أن يكون الوقوف على ذلك بقرب من الأشياء التي قيلت في باب المديح إذ كانت الأضداد يعرف بعضها من بعض . وأنت تتبيّن إذا وقفت على ما كتبناه هاهنا أنّ ما شعر به أهل لساننا من القوانين الشعرية بالإضافة إلى ما في كتاب أرسطو هذا وفي كتاب الخطابة نزر يسير كما يقوله أبو نصر. وليس يخفى عليك أيضا كيف ترجع تلك القوانين إلى هذه ولا ما ذكروا من ذلك على وجه الصواب مما ذكر على غير ذلك والله الموفّق للصواب بفضله ورحمته

الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٍّ وَٱلطُّفَاوَةِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا ‌‌ وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا

مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي ‌‌ وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ‌‌ فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَٱلْجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى ‌‌ قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ:

عُوجَا عَلَى ٱلطَّلَلِ ٱلْمُحِيلِ لَعَلَّنَا ‌‌ نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ ٱلَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصَائِدَ وَذَكَرَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱلتَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ أَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ:

وَمُهَلْهِلُ ٱلشُّعَرَاءِ ذَاكَ ٱلْأَوَّلُ

وَزَعَمَتِ ٱلْعَرَبُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ. وَكَانَ شُعَرَاءُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ أَوَّلُهُمُ ٱلْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ٱلْكِنْدِيِّ وَٱلْمُرَقِّشَانِ وَٱلْأَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ ٱلْأَصْغَرِ وَٱلْأَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ. وَٱسْمُ ٱلْأَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَٱسْمُ ٱلْأَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ. وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمِيئَةَ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ. وَٱلْأَعْشَى وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَٱلْحٰرِثُ بْنُ حِلِّزَةَ. ثُمَّ تَحَوَّلَ ٱلشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ ٱلنَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى وَٱبْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلشَّمَّاخُ وَأَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ إِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إِلَى ٱلْيَوْمِ وَمِنْهُمْ كَانَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ ٱلنَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَأَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ. وَكَانَ ٱلْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ أَوْسٌ أَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ ٱلنَّابِغَةُ طَأْطَأَ مِنْهُ

وكان راوية اوس زهير وكان اوس زوج ام زهير (قال عمر بن شبة) في طبقات الشعراء: للشعر والشعراء اول لا يوقف عليه وقد اختلف في ذلك العلماء وادعت القبائل كل قبيلة لشاعرها انه الاول ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لانهم لا يسمون ذلك شعرا فادعت اليمانية لامرىء القيس وبنو اسد لعبيد بن الابرص وتغلب لمهلهل وبكر لعمرو بن قمئة والمرقش الاكبر واياد لابي دؤاد (قال) وزعم بعضهم ان الافوه الاودي اقدم من هؤلاء وانه اول من قصد القصيد (قال) وهؤلاء النفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون لعل اقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة او نحوها (وقال ثعلب في اماليه) قال الاصمعي: اول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر مهلهل ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ثم ضمرة رجل من بني كنانة والاضبط بن قريع (قال) وكان بين هؤلاء وبين الاسلام اربعمائة سنة وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير (وقال ابن خالويه في كتاب ليس) اول من قال الشعر ابن حذام (وقال ابن رشيق في العمدة): المشاهير من الشعراء اكثر من ان يحيط بهم عدد ومنهم مشاهير قد طارت اسماؤهم وسار شعرهم وكثر ذكرهم حتى غلبوا على سائر من كان في زمانهم ولكل احد منهم طائفة تفضله وتتعصب له وقلما تجتمع على واحد الا ما روي عن الرسول في امرئ القيس انه اشعر الشعراء وقائدهم الى النار يعني شعراء الجاهلية والمشركين

قال دعبل بن علي الخزاعي: ولا يقود قوما الا اميرهم. قال عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب وقد ساله عن الشعراء: امرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور اصح بصرا (قال عبد الكريم) خسف من الخسف وهي البئر التي حفرت في حجارة فخرج منها ماء كثير. وقوله افتقر اي فتح وهو من الفقر وهو فم القناة وقوله: عن معان عور يريد ان امرأ القيس من اليمن وان اهل اليمن ليست لهم فصاحة نزار فجعل لهم معاني عورا فكان فتح امرئ القيس اصح بصرا فان امرأ القيس يماني النسب نزاري الدار والمنشإ. وفضله علي بان قال: رايته احسنهم نادرة واسبقهم بادرة وانه لم يقل لرغبة ولا لرهبة (وقد قال العلماء بالشعر) ان امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لانه قال ما لم يقولوا ولكنه سبق الى اشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها لانه اول من لطف المعاني ومن استوقف على الطلول ووصف النساء بالظباء والمهى والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصي وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة وقرب مأخذ الكلام فقيد الاوابد واجاد الاستعارة والتشبيه وحكى محمد بن سلام الجمحي: ان سائلا سال الفرزدق من اشعر الناس فقال ذو القروح (وسئل لبيد): من اشعر الناس فقال الملك الضليل قيل ثم من قال: الشاب القتيل قيل: ثم من قال: الشيخ ابو عقيل يعني نفسه. وكان الحذاق يقولون: الفحول في الجاهلية ثلاثة

لتكون في خزانته (وقال الجمحي) سال عكرمة بن جرير اباه جريرا. من اشعر الناس قال: اعن الجاهلية تسالني ام الاسلام. قال: ما اردت الا الاسلام فاذ ذكرت الجاهلية فاخبرني عن اهلها قال: زهير شاعرهم (قال) قلت: فالاسلام قال: الفرزدق نبعة الشعر قلت: والاخطل قال: يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر قلت: فما تركت لنفسك قال: دعني فاني نحرت الشعر نحرا (وسئل) الفرزدق مرة: من اشعر العرب فقال بشر بن ابي خازم. قيل له: بماذا. قال: بقوله:

ثوى في ملحد لا بد منه   كفى بالموت نأيا واغترابا

ثم سئل جرير فقال: بشر بن ابي خازم. قيل: له بماذا قال بقوله:

رهين بلى وكل فتى سيبلى   فشقي الجيب وانتحبي انتحابا

فاتفقا على بشر بن ابي خازم كما ترى (وكتب) الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يساله عن اشعر الشعراء في الجاهلية واشعر شعراء وقته فقال: اشعر الجاهلية امرؤ القيس واضربهم مثلا طرفة. واما شعراء الوقت فالفرزدق افخرهم وجرير اهجاهم والاخطل اوصفهم (واما الحطيئة) فسئل من اشعر الناس فقال ابو دؤاد حيث يقول:

لا اعد الاقتار عدما ولكن   فقد من قد رزئته الاعدام

وهو كان فحلا قديما وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه

متشابهون زهير والفرزدق والنابغة والاخطل والاعشى وجرير وكان خلف الاحمر يقول: اجمعهم الاعشى. وقال ابو عمرو ابن العلاء: مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره. وكان ابو الخطاب الاخفش يقدمه جدا لا يقدم عليه احدا. وحكى الاصمعي عن ابن ابي طرفة: كفاك من الشعراء اربعة زهير اذا رغب والنابغة اذا رهب والاعشى اذا طرب وعنترة اذا كلب وزاد قوم: وجرير اذا غضب. وقيل لكثير او لنصيب من اشعر العرب فقال: امرؤ القيس اذا ركب وزهير اذا رغب والنابغة اذا رهب والاعشى اذا شرب. وكان ابو بكر يقدم النابغة ويقول هو احسنهم شعرا واعذبهم بحرا وابعدهم قعرا. وقال محمد بن ابي الخطاب في كتابه الموسوم بجمهرة اشعار العرب ان ابا عبيدة قال: اصحاب السبع التي تسمى السمط امرؤ القيس وزهير والنابغة والاعشى ولبيد وعمرو وطرفة. (قال) وقال المفضل: من زعم ان في السبع التي تسمى السمط لاحد غير هؤلاء فقد ابطل واسقطا من اصحاب المعلقات عنترة والحرث بن حلزة واثبتا الاعشى والنابغة وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك انها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان اذا كانت اجود شعره. ذكر ذلك غير واحد من العلماء وقيل بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة يقول: علقوا لنا هذه

وَيَروِي شِعرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ اَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيئَةِ (وَسَاَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً اُخرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ

يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيسَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَلَستَ بِمُستَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ ‏ عَلَى شَعَثٍ اَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ اَفسَدَتهُ كَمَا اَفسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللّٰهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اَشعَرَ ٱلْمَاضِينَ . وَاَمَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا اَشُكُّ اَنِّي اَشعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ اَبِي ٱلْخَطَّابِ اَنَّ اَبَا عَمْرٍو يَقُولُ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ : اَربَعَةٌ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ : سُئِلَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ : ٱمْرُؤُ ٱلْقَيسِ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ : ٱلنَّابِغَةُ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْاَخطَلُ : ٱلْاَعشَى اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ اَحمَرَ : زُهَيرٌ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ : لَبِيدٌ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيلٍ : طَرَفَةُ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيتُ : عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱختِلَافِ ٱلْاَهوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلِاتِّفَاقِ . وَكَانَ ٱبْنُ اَبِي إِسحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشهُورٌ يَقُولُ : اَشعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلْاَكبَرُ وَاَشعَرُ ٱلْإِسلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفرِطٌ غَيرَ اَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ اَطَالَ ٱلْمَدحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيبٍ مَرَّةً : مَنْ اَشعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ : اَخُو تَمِيمٍ يَعنِي عَلقَمَةَ بْنَ عَبْدَةَ وَقِيلَ اَوسَ بْنَ حَجَرٍ . وَلَيسَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعدَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيسِ مَا

لِزُهَيرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْاَعشَى فِي ٱلنُّفُوسِ . وَعُلَمَاءُ ٱلْبَصرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيسِ وَاَهلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْاَعشَى وَاَهلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ اَهلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ اَحَدًا كَمَا اَنَّ اَهلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعدِلُونَ بِزُهَيرٍ اَحَدًا . قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ : قَالَ اَهلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيرٌ اَحصَفَهُمْ شِعرًا وَاَبعَدَهُمْ مِنْ سُخفٍ وَاَجمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنطِقِ . وَاَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحتَجُّ لَهُ كَانَ اَحسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعرٍ وَاَكثَرَهُمْ رَونَقَ كَلَامٍ وَاَجزَلَهُمْ بَيتًا كَاَنَّ شِعرَهُ كَلَامٌ لَيسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ . وَزَعَمَ اَصحَابُ ٱلْاَعشَى اَنَّهُ اَكثَرُهُمْ عَرُوضًا وَاَذهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعرِ وَاَكثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدحًا وَهِجَاءً وَفَخرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْاَعشَى اَشعَرُ ٱلْاَربَعَةِ قِيلَ لَهُ : فَاَينَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ اِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعرِ فَقَالَ : بِهٰذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْاَعشَى مَا قُلتُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ اِلَّا عَلَى رَأْسِ اَمِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْاَعشَى ٱلْاَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ : اَرَجُلًا اَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ : اَشعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَاَشعَرُ هُذَيلٍ اَبُو ذُؤَيبٍ غَيرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْاَصمَعِيُّ) قَالَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ : اَفصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ اَلسُنًا وَاَعرَبُهُمْ اَهلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَاَوَّلُهَا هُذَيلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلْيَةُ ٱلسَّرَاةِ

اَلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ الْأَزْدِ أَزْدِشَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو الْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا : أَفْصَحُ النَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ النَّاسِ سَافِلَةُ الْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ السَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ الْعَالِيَةِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ . وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ الشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِامْرِئِ الْقَيْسِ وَفِي الْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي الْمُوَلَّدِينَ بِالْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ الْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ النَّاسِ وَاتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ : خُتِمَ الشِّعْرُ بِذِي الرُّمَّةِ وَالرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ الْعَجَّاجِ . وَزَعَمَ يُونُسُ : أَنَّ الْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ : لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ الشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ الرَّجَزِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ الْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ الدِّيَارَ وَاسْتَوْقَفَ الرِّكَابَ عَلَيْهَا وَاسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى الشَّبَابِ وَوَصَفَ الرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ الشُّعَرَاءُ بِالْقَصِيدِ فَكَانَ فِي الرُّجَّازِ كَامْرِئِ الْقَيْسِ فِي الشُّعَرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ الرَّجَزِ الْأَغْلَبُ الْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ الْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ الرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ : افْتُتِحَ الشِّعْرُ بِامْرِئِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِابْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : الشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَالْجَاهِلِيُّ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْإِسْلَامِيُّ ذُو الرُّمَّةِ وَالْمُوَلَّدُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ الْبَدِيعَ وَخَاصَّةً التَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ الشِّعْرِ . وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ الثَّلَاثَةُ الْأَعْشَى وَالْأَخْطَلُ وَأَبُو الْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ الْخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِالتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ التَّكَلُّفِ . وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ الثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ الْأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي الْمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ اسْمًا مِنَ الْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَالْبُحْتُرِيِّ . وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي الْاِشْتِهَارِ ابْنُ الرُّومِيِّ وَابْنُ الْمُعْتَزِّ وَطَارَ اسْمُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَالْحَسَنِ فِي الْمُوَلَّدِينَ وَامْرِئِ الْقَيْسِ فِي الْقُدَمَاءِ . ثُمَّ جَاءَ الْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ الدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ابْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ الْأَغَانِي :

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ الْآدَابِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ . وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ الْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ الظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ الْمُحْدَثِينَ

فَانَّ فِيهِ اَشيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي اُسْلُوبِ ٱلمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَاَشيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ اَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نَدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنَّوْرِ وَٱلبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ اَمْثَالِ ذٰلِكَ اِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلفَرْشِ وَمُخْتَارِ ٱلآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلخَدَمِ اَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ اِلَى جَعْدِ ٱلكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَاِلَى وَصْفِ ٱلبِيدِ وَٱلمَهَارِيهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلقِفَارِ وَٱلمَنَازِلِ ٱلخَالِيَةِ ٱلمَهْجُورَةِ وَلَا اِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَاَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا اَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ اِذَا اَحْسَنَ ٱلكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱليَسِيرِ وَيُنْسَبَ اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ اَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ اَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ اَنَّ قَائِلًا اَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ اَيْ اَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلأَعْشَى وَهُوَ اَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلأَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَاَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ اِنْ يَأْمُرْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ بِقَتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْنَقُ

وَاَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَاِنَّمَا عَلَى ٱلاِنْسَانِ اَنْ يَحْفَظَ مِنَ

ٱلشَّيْءِ اَحْسَنَهُ وَيُلْغِيَ مَا لَا يُسْتَحْسَنُهُ فَلَيْسَ مَأْخُوذًا بِهِ وَلٰكِنَّ اَقْوَامًا اَرَادُوا اَنْ يَرْفَعُوا اَنْفُسَهُمُ ٱلوَضِيعَةَ وَيُشِيدُوا بِذِكْرِهِمِ ٱلخَامِلِ وَيُعْلُوا اَقْدَارَهُمُ ٱلسَّاقِطَةَ بِٱلطَّعْنِ عَلَى اَهْلِ ٱلفَضْلِ وَٱلقَدْحِ فِيهِمْ فَلَا يَزْدَادُونَ بِذٰلِكَ اِلَّا ضَعَةً وَلَا يَزْدَادُ ٱلآخَرُ اِلَّا ٱرْتِفَاعًا. اَلَا تَرَى اِلَى ٱبْنِ ٱلمُعْتَزِّ قَدْ قُتِلَ اَسْوَأَ قِتْلَةٍ وَدَرَجَ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ خَلَفٌ يُقَرِّظُهُ وَلَا عَقِبٌ يَرْفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزْدَادُ بِاَدَبِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ اِخْبَارِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ ٱلعُلُومِ اِلَّا رِفْعَةً وَعُلُوًّا وَلَا نَظَرَ اِلَى اَضْدَادِهِ كُلَّمَا ٱزْدَادُوا فِي طَعْنِهِ وَتَقْرِيظِ اَنْفُسِهِمْ. وَاَسْلَافُهُمُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِثْلَهُمْ فِي ثَلْبِهِ وَٱلطَّعْنِ عَلَيْهِ زَادُوهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا اَشْعَارَهُمْ وَقَرَّظُوا آدَابَهُمْ زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقْتًا فَاِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمِ ٱلمُحَصِّلُ ٱلمُوَافِقُ عَدَلُوا عَنْ ثَلْبِهِ فِي ٱلآدَابِ اِلَى ٱلتَّشْنِيعِ بِاَمْرِ ٱلدِّينِ وَهِجَاءِ آلِ اَبِي طَالِبٍ وَهُمْ اَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ وَشَنَّعَ بِهِ عَلَى آلِ اَبِي طَالِبٍ عِنْدَ ٱلمُكْتَفِي حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيْبِ اَنْفُسِهِمْ بِذٰلِكَ اِلَى عَيْبِهِ وَٱرْتَكَبُوا اَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ عَبْدُ ٱللهِ حَسَنَ ٱلعِلْمِ بِصِنَاعَةِ ٱلمُوسِيقَى وَٱلكَلَامِ عَلَى ٱلنَّغَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي ذٰلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلآدَابِ كُتُبٌ مَشْهُورَةٌ وَمُرَاسَلَاتٌ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَيْنَ بَنِي حَمْدُونَ وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ وَغَزَارَةِ عِلْمِهِ وَاَدَبِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقْعَةً اِلَيْهِ بِخَطِّهِ وَقَدْ بَعَثَ اِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ اِلَى ٱبْنِ حَمْدُونَ فِي اَنَّهُ يَجُوزُ وَلَا يُنْكَرُ اَنْ يُغَيِّرَ ٱلاِنْسَانُ بَعْضَ نَغَمِ ٱلغِنَاءِ

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ. فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَأَمَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ أَرْبَعٌ قَوْلُهُ: (أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (أَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْأَيَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ أَشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا. وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ أَشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: ٱتَّفَقُوا أَنَّ أَشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَأَمَّا أَصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ أَوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحَرِثُ ٱبْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ أَصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْأَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ وَٱلْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرَ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ

قَبِيحٍ. فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ لَيْسَ ٱلنَّمَطُ وَاحِدًا. هٰذَا مَذْهَبُ أَبِي عَمْرٍو وَأَصْحَابِهِ كَٱلْأَصْمَعِيِّ وَٱبْنِ ٱلْأَعْرَابِيِّ أَعْنِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَذْهَبُ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبَ وَيُقَدِّمُ مَنْ قَبْلَهُمْ وَلَيْسَ ذٰلِكَ لِشَيْءٍ إِلَّا لِحَاجَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ إِلَى ٱلشَّاهِدِ وَقِلَّةِ ثِقَتِهِمْ بِمَا يَأْتِي بِهِ ٱلْمُوَلَّدُونَ فَأَمَّا ٱبْنُ قُتَيْبَةَ فَقَالَ: لَمْ يَقْصِرِ ٱللّٰهُ ٱلشِّعْرَ وَٱلْعِلْمَ وَٱلْبَلَاغَةَ عَلَى زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ وَلَا خَصَّ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ. بَلْ جَعَلَ ذٰلِكَ مُشْتَرَكًا مَقْسُومًا بَيْنَ عِبَادِهِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَجَعَلَ كُلَّ قَدِيمٍ حَدِيثًا فِي عَصْرِهِ. ثُمَّ قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي بَابٍ آخَرَ: طَبَقَاتُ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعٌ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ وَمُخَضْرَمٌ وَهُوَ ٱلَّذِي أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُحْدَثٌ ثُمَّ صَارَ ٱلْمُحْدَثُونَ طَبَقَاتٍ أُولَى وَثَانِيَةً عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ هٰكَذَا فِي ٱلْهُبُوطِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا فَلْيَعْلَمِ ٱلْمُتَأَخِّرُ مِقْدَارَ مَا بَقِيَ لَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مُتَصَفِّحًا أَشْعَارَ مَنْ قَبْلَهُ لِيَنْظُرَ كَمْ بَيْنَ ٱلْمُخَضْرَمِ وَٱلْجَاهِلِيِّ وَبَيْنَ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَٱلْمُخَضْرَمِ وَأَنَّ لِلْمُحْدَثِ ٱلْأَوَّلِ فَضْلًا عَمَّنْ بَعْدَهُ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ. فَفِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِيِّينَ مَنْ ذَهَبَ بِكُلِّ مَلَاحَةٍ وَرَشَاقَةٍ وَسَبَقَ إِلَى كُلِّ طَلَاوَةٍ وَلَبَاقَةٍ (قَالَ) أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْأَخْفَشُ: يُقَالُ مَاءٌ خِضْرِمٌ إِذَا تَنَاهَى فِي ٱلْكَثْرَةِ وَٱلسَّعَةِ فَمِنْهُ سُمِّيَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي شَهِدَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا كَأَنَّهُ ٱسْتَوْفَى ٱلْأَمْرَيْنِ (قَالَ) وَيُقَالُ: أُذُنٌ مُخَضْرَمَةٌ إِذَا كَانَتْ مَقْطُوعَةً فَكَأَنَّهُ ٱنْقَطَعَ عَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ. (وَحَكَى) ٱبْنُ قُتَيْبَةَ عَنِ ٱلْأَصْمَعِيِّ قَالَ: أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي

البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَأَمَّا ٱلْمُغَلَّبُونَ فَمِنْهُمْ نَابِغَةُ بْنُ جَعْدَةَ وَمَعْنَى ٱلْمُغَلَّبِ ٱلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ... ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي إِذَا قَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ٱلْجَعْدِيِّ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ وَلَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ ٱلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي ٱلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَٱلْمُغَلَّبُونَ ٱلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْأَهْتَمِ وَغَلَبَهُ ٱلْمُخَبَّلُ ٱلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي ٱلْخُطَبِ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ فِي بَابِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هٰذَا ٱلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ ٱلشِّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ إِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ إِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنِ ٱلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُحَضْرَمٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْحَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَلْطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي ... وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفَلْقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ يَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي حُمَيْسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ ... شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيْعِرًا. وَفَالِيَةُ ٱلْأَفَاعِي دُوَيْبَّةٌ فَوْقَ ٱلْخُنْفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ وَزَعَمَ ٱلْحَاتِمِيُّ أَنَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ: مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ مَنِ ٱسْتُجِيدَ جَيِّدُهُ وَأَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي ٱلْهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ:

ٱلشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهْ ... وَٱلشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ

إِذَا ٱرْتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهْ ... زَلَّتْ بِهِ إِلَى ٱلْحَضِيضِ قَدَمُهْ

يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ ... فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ

وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ ... وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ

وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمِّرْ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ ٱلدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ: أَنْشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ أَيْ أَبْيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ: إِنَّ ٱلْمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا كَانَ ٱسْمُ ٱلْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هٰذَا ٱلْبَيْتُ عُقْرُ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَيْ أَجْوَدُ بَيْتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ. اه. وَفِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ لِلْقَالِي: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ:

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي ... صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ ٱلْهِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَأَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وعبد الرحمان بن حسان ورؤبة بن العجاج . وقال ابو عمرو الشيباني الثُّنيان الذي يُستثنى فيقال ما في القوم اشعر من فلان الا فلان ، ففلان المستثنى هو الافضل الاشعر . وقال الاصمعي الثُّنيان الذي تُثنى عليه الخناصر في العدد لانه اول وقال ابن هشام هو الذي يُستثنى من الشعراء لانه دونهم . وقال غيره الثُّنيان الضعيف . وقال القالي : الثُّنيان عندي الذي يُستثنى من القوم رفيعا كان او ضعيفا فيقال للدون والضعيف ثُنيان وللرفيع والشاعر ثُنيان (وقال القالي) في المقصور والممدود . حدثنا ابو بكر بن دريد قال . ذكر ابو عبيدة واحسب الاصمعي قد ذكره ايضا قال . لقيت السعلاة حسان بن ثابت في بعض طرقات المدينة وهو غلام قبل ان يقول الشعر فبركت على صدره وقالت انت الذي ترجو قومك ان تكون شاعرهم قال : نعم . قالت . فانشدني ثلاثة ابيات على رويّ واحد والا قتلتك فقال :

اذا ما ترعرع فينا الغلا م فما ان يقال له من هوه
اذا لم يسد قبل شدّ الإزا ر فذلك فينا الذي لا هوه
ولي صاحب من بني الشيصبا ن فحينا اقول وحينا هوه

فخلت سبيله وقالت : اولى لك قال الاصمعي : يقال السعلاة ساحرة الجن

(فائدة) قال ابو اسحاق البطليوسي . وقد انشد قول الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا ابو امه حيّ ابوه يقاربه

هذا وامثاله وان كان جائزا في الاعراب . فليس يحسن في الشعر عند ذوي الالباب . لما فيه من وهي النسج والاضطراب . والشعر اذا احوج الى شرح لم يعد في فاخر المساق . ولا قام في الاحسان على ساق . ولا عذب في المذاق . فهو مكروه عند الحذاق . ويحتاج الشعر الى ان يسبق معناه لفظه . فتستلذ النفوس روايته وحفظه . واول ما ينبغي للشاعر والمتكلم . بيان ما يحاوله للعالم والمتعلم . فان تكلم بمقلوب . مجته الاسماع والقلوب . ولم يتحصل منه الغرض المطلوب . فان قال قائل اما ترى في الاشعار امثال هذا كقوله :

لها مقلتا ادماء طل خميلة من الوحش ما تنفك ترعى عرارها

قيل له وهذا ايضا قد احال ومن تكلف مثل هذا لم يخفف عن نفسه الكلفة والملام . وتعرض لان يلام . وترك بين الكلام . وانما يتفاضل الكلام والشعر بحسن العبارة والديباجة . ورونق الفصاحة حتى تكون الفاظها كالزجاجة . والا فالمعاني معرضة لكل جيل من اهل التوحيد والشرك حتى للزنج والتتر والترك لكنهم قصرت بهم السنتهم عن بلوغ ما راموه من ارب . قد تهيأ على السنة العرب . واقل ما يجب على المتكلم البيان لمخاطبه . والا كان كحاطب الليل وحاطبه . يخاطب العربيّ بالعجمية ويخاطب العجميّ بالعربية . وصناعة الشعر اشد

حَضرًا. وَأَمَدُّ عصرًا وَذلِكَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ أَوْ مُعاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَإِنْ حَكَى عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱبْنُ جِنِّيٍّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْغِلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ: دَخَلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَخِفُّ ٱلْأَرْضُ إِنْ تَفْقِدْكَ يَوْمًا … وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنَظَرَ إِلَيْهِ ٱلنُّعْمَانُ نَظَرَ غَضْبَانَ. وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ: أَصْلَحَ ٱللّٰهُ ٱلْمَلِكَ إِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِأَنَّكَ مَوْضِعُ ٱلْقِسْطَاسِ مِنْهَا … فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ ٱلنُّعْمَانُ وَأَمَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ. فَإِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلْمَلِكِ ٱلْأَشَمِّ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ أَمْرِهِ وَٱلْقُدَمَاءُ فِي هٰذَا أَعْذَرُ لِأَنَّهَا لُغَتُهُمْ

الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ أَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ أَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عَفْوًا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا إِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ أَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ إِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي أَعْطَافِ شِعْرِهَا بِأَنْ تُجَنِّسَ أَوْ تُطَابِقَ أَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ أَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ أَوْ جَزَالَتِهِ

وبسط المعنى او ابرازه واتقان بنية الشعر واحكام القافية وتلاحم الكلام بعضه ببعض حتى عدوا من فضل صنعة الحطيئة حتى نسقه الكلام بعضه على بعض:

فلا وابيك ما ظلمت قريع ... بان يبنوا المكارم حيث شاؤوا
ولا وابيك ما ظلمت قريع ... ولا عنفوا بذاك ولا اساؤوا
فان الجار مثل الضيف يغدو ... لوجهته وان طال الثواء
واني قد علقت بحبل قوم ... اعانهم على الحسب الثراء

واستظرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين في القصيدة بين القصائد يستدل بذلك على جودة شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره. واما اذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة وليس يتجه البتة ان يأتي من الشاعر قصيدة كلها او اكثرها متصنع من غير قصد كالذي يأتي من اشعار حبيب والبحتري وغيرهما وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها. فاما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتي الاشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة. واما البحتري فكان املح واحسن مذهبا في الكلام يسلك منه دماثة وسهولا مع احكام التصنع وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة. وما اعلم شاعرا اكمل ولا املح تصنعا من عبد الله بن المعتز فان صنعته خفية لا تكاد تظهر في بعض المواضع الا للبصير بدقائق الشعر وهو عندي

الطف اصحابه شعرا واكثرهم بديعا وافتنانا واقربهم قوافي واوزانا ولا ارى وراءه غاية لطالبها في هذا الباب. غير انا لا نجد المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام اكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ولانهما طرقا الى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة وكثرا منها في اشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس وجسرهم عليها. على ان مسلما اسهل شعرا من حبيب واقل تكلفا وهو اول من تكلف البديع من المولدين واخذ نفسه بالصنعة وكثر منها ولم يكن في الاشعار المحدثة قبل مسلم الا النبذ اليسيرة. وهو زهير المولدين كان يبطئ في صنعته ويجيدها. وقالوا: اول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد وهو ساقة العرب وآخر من يستشهد بشعره ثم اتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمرو العتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وابو نواس واتبع هؤلاء ابو تمام والبحتري وعبد الله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة وختم به. وشبه قوم ابا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة وحسن الديباجة والمعرفة بمدح الملوك. واما بشار فقد شبهوه بامرئ القيس لتقدمه على المولدين واخذهم عنه. ومن كلامهم: بشار ابو المحدثين. وسمعنا ابا عبد الله غير مرة يقول: انما سمي الاعشى صناجة العرب لانه اول من ذكر الصنج في شعره. قال ويقال بل سمي صناجة لقوة طبعه وحلية شعره يخيل اليك اذا

انشدته ان آخر ينشد معك. ومثله بشار بن برد تنشد اقصر شعره عروضا والينه كلاما فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع

انقضى كلام عبد الله ورجعنا الى القول في الطبع والتصنيع. فاذا كان الشاعر مصنعا فان جيده من سائر شعره كابي تمام فصار محصورا معروفا باعيانه فاذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبا من قريب كالبحتري ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تسطيراته على محمد بن ابي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر:

فله شهامة سودنيق باكر   وحوافر حفر ورأس صنتع

وذكر قول ابي تمام (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر ان الحافر الواب والحافر المقعب ونحوهما اشرف في اللفظ من الحافر الاحفر الا ان ابا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها. والذي اراه ان ابن الرومي ابصر بابي تمام وغيره منا وان التسليم له والرجوع اليه احزم. غير اني لو شئت ان اقول ولست رادا عليه ولا معترضا بين يديه ان المعنى الذي اراده واشار اليه من جهة ابي تمام انما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما اشبههما لا معنى الكلام الذي هو روحه. واما اللفظ الذي ذكر انه لا يبالي به انما هو فصيح

الكلام ومستعمله ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومي قوله ان الحافر الواب والمقعب اشرف في اللفظ من الحافر الاحفر. فكلامه راجع الى ما قلته في ابي تمام غير مخالف له وان كان في الظاهر على خلافه لساغ ذلك الا ان اكثر الناس على ما قال وانما هو هذا معرض للكلام لا مخالفة. وقال الجاحظ: كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا الا ان يكون المتكلم به بدويا اعرابيا فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي (قال) وانشد رجل قوما شعرا فاستغربوه فقال: والله ما هو بغريب ولكنكم في الادب غرباء. وعن غيره ان رجلا قال لابي تمام في مجلس قد حفل واراد تبكيته لما انشده: يا ابا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم. فقال له: وانت لم لا تفهم من الشعر ما يقال ففضحه. ويروى ان هذه الحكاية كانت مع ابي العميثل وصاحبين له خاطباه فاجابهما. وقال بعض من نظر بين ابي تمام وابي الطيب انما ابو تمام كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج. وابو الطيب كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع. وكان الاصمعي يقول زهير والنابغة من عبيد الشعر يريد انهما يتكلفان اصلاحه ويشغلان به خواطرهما وحواسهما. ومن

أَصْحَابِهِمَا فِي ٱلتَّنْقِيحِ وَفِي ٱلتَّثْقِيفِ وَٱلتَّحْكِيكِ طُفَيْلٌ ٱلْغَنَوِيُّ. وَقَدْ قِيلَ إِنَّ زُهَيْرًا أَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلنَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ ٱلْكَيِّسَ. وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُذَّاقِ يَقُولُ: قُلْ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يَخْدُمُكَ وَلَا تَقُلْ مِنْهُ مَا تَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ ٱلْأَصْمَعِيِّ. وَسَأُحَلِّي هٰذَا ٱلْبَابَ مِنْ كَلَامِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَأَخْتِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِأُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعْضَ مَا ضَمِنْتُ وَأَقْضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ أَهْلَهُ:

وَلِي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ   أُطَأْمِنُهَا صَبْرًا عَلَى مَا أَجَنَّتِ
تَمَنَّيْتُكُمْ شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَصَبْوَةً   عَسَى ٱللّٰهُ أَنْ يُبْدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَيْنٌ جَفَاهَا ٱلنَّوْمُ وَٱعْتَادَهَا ٱلْبُكَا   إِذَا عَنَّ ذِكْرُ ٱلْقَيْرَوَانِ ٱسْتَهَلَّتِ

فَلَوْ أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ إِلَى ٱلْوَطَنِ أَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ بَعْضَ ٱلسَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا أَتَى بِهِ هٰذَا ٱلْوَلَدُ ٱلْحَضَرِيُّ ٱلْمُتَأَخِّرُ ٱلْعَصْرِ. وَمَا أَنْحَطُّ فِي هٰذَا ٱلتَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا أَنْتَعِقُ بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا ٱلْخَدِيعَةُ مِمَّا نُظَنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِنْ قَدْ رَأَيْتُ وَجْهَ ٱلْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَٱلْحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَإِيجَازِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ ٱلْأَحْمَرُ ٱلسَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ:

مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَكْفِي ٱلْمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنْهُ ٱلَّذِي لَا يَكْتَفِي ٱلدَّهْرَ قَائِلُهْ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَغْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَحَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ ٱلشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِٱسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَخْمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْحُمُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

اَيضًا بَمدحِهِ الثَّناءَ عليهِ فيكونَ ذلكَ على وجههِ . والبيتُ مِنَ الشِعرِ كالبيتِ مِنَ الابنيةِ والشعرِ قرارُهُ الطبعُ وسمكُهُ الروايةُ ودعائمُهُ القلمُ وبابُهُ الدُّربةُ وساكنُهُ المعنى ولا خيرَ في بيتٍ غيرِ مسكونٍ . وصارتِ الاعاريضُ والقوافي كالموازينِ والامثلةِ للابنيةِ او كالأواخي والاوتادِ للاخبيةِ . وامّا ما سوى ذلكَ مِن محاسنِ الشِعرِ فانّما هو زينةٌ مستأنفةٌ لو لم تكنْ لاستُغنيَ عنها . قالَ القاضي عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ الجُرجانيُّ صاحبُ كتابِ الوساطةِ : الشِعرُ عِلمٌ مِن علومِ العربِ يشتركُ فيهِ الطبعُ والروايةُ والذكاءُ ثمَّ تكونُ الدُّربةُ مادّةً لهُ وقوّةً لكلِّ واحدٍ مِن اسبابِهِ فمنِ اجتمعتْ لهُ هذهِ الخصالُ فهوَ المحسنُ المُبرِّزُ وبقدرِ نصيبِهِ منها تكونُ مرتبتُهُ مِنَ الاحسانِ . قالَ ولستُ افضِلُ في هذهِ القضيّةِ بينَ القديمِ والمحدَثِ والجاهليِّ والمخضرمِ والاعرابيِّ والمولَّدِ الّا انّي ارى حاجةَ المحدَثِ الى الروايةِ امسَّ واجدُهُ الى كثرةِ الحفظِ افقرَ فاذا استكشفتَ عن هذهِ الحالةِ وجدتَ سببَها والعلّةَ فيها انَّ المطبوعَ الذي لا يمكنُهُ تناولُ الفاظِ العربِ الّا روايةً ولا روايةَ ولا طريقَ الى الروايةِ الّا السمعُ وملاكُ السمعِ الحفظُ . وقالَ دِعبلٌ في كتابِهِ مَن ارادَ المديحَ فبالرغبةِ ومَن ارادَ الهجاءَ فبالبغضاءِ ومَن ارادَ التشبيبَ فبالشوقِ والعشقِ ومَن ارادَ المعاتبةَ فبالاستبطاءِ : فقسّمَ الشِعرَ كهذهِ الاقسامِ الاربعةِ وكانَ الرِثاءُ عندَهُ مِن بابِ المدحِ على ما قدّمتُ . الّا انّهُ جعلَ العتابَ

بدلًا منهُ وقالَ غيرُ واحدٍ مِنَ العلماءِ : الشِعرُ ما اشتملَ على المَثَلِ السائرِ والاستعارةِ الرائعةِ والتشبيهِ الواقعِ وما سوى ذلكَ فانّما لقائلِهِ فضلُ الوزنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسهِ)

وسبيلُ الشاعرِ اذا مدحَ ملكًا انْ يسلكَ طريقةَ الافصاحِ والاشادةِ بذكرِ الممدوحِ وانْ يجعلَ معانيَهُ جزلةً والفاظَهُ نقيّةً غيرَ مبتذلةٍ سوقيّةٍ ويجتنبَ معَ ذلكَ التقصيرَ والتطويلَ فانَّ للملكِ سآمةً وضجرًا وربّما عابَ مِن اجلِها ما لا يريدُ حرمانَهُ وقد رأيتَ عملَ البحتريِّ اذا مدحَ الخليفةَ كيفَ يقلُّ الابياتَ ويُبرزُ وجوهَ المعاني فاذا مدحَ الكُتّابَ عمِلَ طاقتَهُ وبلغَ مرادَهُ . وقد حُكيَ عن عمارةَ انَّ جدَّهُ جريرًا قالَ : يا بنيَّ اذا مدحتم فلا تطيلوا المُمادحةَ واذا هجوتم فخالفوا . وحكى آخرُ قالَ : دخلَ الفرزدقُ على عبدِ الرحمانِ ابنِ امِّ الحكمِ فقالَ لهُ عبدُ الرحمانِ : يا ابا فراسٍ دعني مِن شِعرِكَ الذي ليسَ يأتي آخرُهُ حتّى يُنسى اوّلُهُ وقلْ فيَّ بيتينِ يعلقانِ بالروايةِ وانا اعطيكَ عطيّةً لم يعطِكَها احدٌ قبلي فغدا عليهِ وقالَ :

وَأَنْتَ ٱبْنُ بَطْحَاوَى قُرَيْشٍ وَإِنْ تَشَا

تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سَيْلَ ذِي حَدَبٍ غَمْرِ

وَأَنْتَ ٱبْنُ سَوَّارِ ٱلْيَدَيْنِ إِلَى ٱلْعُلَا

تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمْسُ ٱلْمُضِيئَةُ لِلْبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلْمَمْدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيْفَ أَطْنَبَ وَذَلِكَ مَحْمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلْمَذْمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذَلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةَ غَيْرِهِ فَيَصِفَ ٱلْكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْقَاضِيَ بِٱلْحَمِيَّةِ وَٱلْمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هَذَا لِشُعَرَاءِ وَقْتِنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَصْحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأْيِ فِيهِ وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَتَّجِهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْمُعْتَزِّ:

لَا ٱلْعَذْلُ يَرْدَعُهُ وَلَا م ٱلتَّعْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهْ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلْخَلِيفَةَ عَنِ ٱلْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هَذَا بِٱلْهِجَاءِ أَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلْأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ هَذَا ٱلْبَيْتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلْخِلَافَةَ مِنْهُمُ

لِأَبْيَضَ لَا عَارِي ٱلْخِوَانِ وَلَا جَدْبِ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهَذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ. وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيصَ عَلَيْهِمِ

بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ

مَذِقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هَذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ

مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا

يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذَلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ:

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لو كان يقعد فوق النجم من كرم
قوم بأولهم او مجدهم قعدوا

وقدمه قدامة بن جعفر الكاتب فقال في كتابه نقد الشعر لو كانت فضائل الناس من حيث هم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه اهل الالباب من الاتفاق في ذلك انما هي العقل والعفة والعدالة والشجاعة كان القاصد للمدح بهذه الاربعة مصيبا وبما سواها مخطئا. وقد قال زهير:

اخي ثقة لا يتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله

لانه قد وصفه بالعفة لقلة امعانه في اللذات وانه لا ينفد فيها ماله بالسخاء لاهلاك ماله في النوال وانحرافه في ذلك عن اللذات وذلك هو العدل (قال) ثم قال:

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي انت سائله

اراد ان فرحه بما يعطي اكثر من فرحه بما يأخذ فزاد في وصف السخاء منه بانه جعله يهش ولا يلحقه مضض ولا تكره لفعله ثم قال:

ومن مثل حصن في الحروب ومثله
لانكار ضيم او لامر يحاوله

ويروى او لخصم يجادله. فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل فاستوفى في ضروب المدح الاربعة التي هي فضائل الانسان على الحقيقة وزادها بهذا وان كان داخلا في

الاربعة وكثير من الناس لا يعرف وجه دخوله فيها حيث قال: (اخي ثقة) فوصفه بالوفاء والوفاء داخل في هذه الفضائل التي قدمنا وقد يحذث هذا الشعراء فيعدون انواع الفضائل الاربع واقسامها وكل داخل في جملتها مثل ان يذكروا المعرفة والحياء والبيان والسياسة والصدع بالحجة والعلم والحلم وغير ذلك مما يجري هذا المجرى. وهي من اقسام العقل. وكذكرهم القناعة وقلة الشره وطهارة الازار وغير ذلك وهي من اقسام العفة. وكذكرهم الحماية والاخذ بالثار والدفاع عن الجار والنكاية في العدو وقتل الاقران والمهابة والسير في المهامه والقفار الموحشة وما شاكل ذلك وهي من اقسام الشجاعة. وكذكرهم السماحة والتغابن والانظلام والتبرع بالنائل واجابة السائل وقرى الاضياف وما جانس هذه الاشياء وهي من اقسام العدل

واما تركيب بعضها مع بعض فتحدث منه ستة اقسام: يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبر على الملمات ونوازل الخطوب. وعن تركيب العقل والسخاء البر وانجاز الوعد وما اشبه ذلك. وعن تركيب العقل والعفة التنزه والرغبة عن المسئلة والاقتصار على ادنى معيشة وما اشبه ذلك. وعن تركيب الشجاعة مع السخاء الاتلاف والاسراف وما جانس ذلك. وعن تركيب الشجاعة مع العفة انكار الفواحش والغيرة على الحريم. وعن السخاء مع العفة الاسعاف بالقوت والايثار على النفس وما شاكل ذلك. قال وكل

مُدِحَ بِهِ ٱلْقَائِدُ ٱلْجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمْدَحُ ٱلْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلْعَدْلَ وَٱلْإِنْصَافَ وَتَقْرِيبَ ٱلْبَعِيدِ فِي ٱلْحَقِّ وَتَبْعِيدَ ٱلْقَرِيبِ فِي ٱلْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلْفَقِيرِ وَٱلْغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلْوَجْهِ وَلِينِ ٱلْجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلْوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلْقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلْمُلْكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلْفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكْثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلْجَمَالِ وَٱلْأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلْخَلْقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنْيَا وَكَثْرَةِ ٱلْعَيْشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ جُمْلَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلْمَدْحُ بِٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نِعْمَ ٱلْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِي

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ
وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ... وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا
وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ:

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ... يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا ... مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ... ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ ... أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةَ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةَ ٱلْغَفْلَةِ وَجُودَةَ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةَ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ:

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ ... وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ رُبَّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ   سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ

وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلرَّسُولَ :

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا   بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ
وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ   مَا يَعْلَمُ ٱللّٰهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِعْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ. وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ   يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لَا نَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللّٰهُ   م وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلْاِخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ :

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ   وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ   تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْاِقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ :

رَأَيْتُ عَرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو   إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ
إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ   تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ :

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ   إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ
فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ ٱلرَّدَى   وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِيَ :

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا   حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبَّاسٍ :

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ   مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ   فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ :

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ   أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ ٱمْرَأً فَٱللهُ رَافِعُهُ   وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللهِ مُعْتَصِمًا   فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ   أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ وَأَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ   شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ   ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ   لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا   أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا   وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ:

شُمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ   وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعْبِلٌ بَلْ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ ٱلْقَيْنِيِّ

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ   دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ صَاحِبُهُ

قَالَ: وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ:

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ أَشْعَرُهَا. قَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ: بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا   كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: أَجْمَعَ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ أَنَّ بَيْتَيْ أَبِي نُوَاسٍ أَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا:

أَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلْأَيْدِي بِحُجْزَتِهِ   إِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى أَنْيَابِهِ كَلَحَا
وَكُنْتَ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ   مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلْحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ: سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ: أَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ   فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَحْدَاثَ مَا ٱسْمِي مَا دَرَتْ   وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِمُحْدَثٍ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ
يَنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يَعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَخْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ ... وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ ... قُعُودًا لَدَيْهِ بِٱلصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُفَدِّينَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ ... وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِلُهْ
فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ ... جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ:

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ:

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ: كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

(١) وكان الاصل: بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ   وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَضْحَكَكَ ٱللّٰهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ   مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ
مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ   شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ
إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا   يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ
يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً   وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ
تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ   فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ
نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا   رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا   فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ   وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ ٱتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسهِ)

اَلِافْتِخَارُ هُوَ ٱلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْمَدْحِ حَسُنَ فِي ٱلِافْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي ٱلِافْتِخَارِ فَمِنْ أَبْيَاتِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

إِنَّ ٱلَّذِي سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا   بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ: أَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ ٱلْعَرَبُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مَا يُنْكِرُ ٱلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ   كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ أَفْخَرُ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ:

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ   جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ: قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا   وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَّفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ:

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ   وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَنَحْنُ إِذَا عُدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا   مَكَانَ ٱلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ ٱلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ:

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا   وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غَيْلَانَ أَقْسَمَتْ   عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَٱلْفَخْرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً   هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ   ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ   وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْأَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ   بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ

وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ   فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ . فَهٰذَا ٱلِافْتِخَارُ بِٱلشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِٱلْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا   وَلَا تَغِيبَنَّ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَٱلَّذِي

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ . وَأَنْكَرَ ٱلْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ :

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي   بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ   وَلٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٌ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ ٱلْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ ٱلْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَٱلْآبَاءَ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي ٱلْفَخْرِ حَظًّا وَفِي ٱلْمَدْحِ نَصِيبًا . وَإِذَا حُصِّلَتِ ٱلْحَقَائِقُ كَانَ ٱلنَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ ٱلْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ ٱلْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وُلْدِهِ كَٱنْتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَٱزْدَادَ وَإِنْ أُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ ٱلْوَالِدِ يَعُمُّ ٱلْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوْفَرُ وَٱلْحَظُّ ٱلْأَكْبَرُ

. قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ : وَٱلَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلِاخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱلْمُتَوَكِّلِ ٱللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ   يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا   تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ   وَفِي ٱلسِّرِّ مِنْهَا وَٱلصَّرِيحِ ٱلْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ   أَبَى ٱللّٰهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنْ أَفْخَرِ مَا قَالَ ٱلْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ

يَفخرُ بولايةٍ من خزيمة بنِ خازمٍ النهشلي :

إِذَا مُضَرُ الحمراءُ كانت أَرومتي   وقامَ بنصري خازمٌ وابنُ خازمِ
عطستُ بأنفٍ شامخٍ وتناولتْ   يداي الثريَّا قاعدًا غيرَ قائمِ

ومن قولِ السيّدِ ابي الحسنِ يفخرُ بقومهِ بني شيبانَ .

يا آلَ شيبانَ لا غارتْ نجومكمُ   ولا خبتْ نارُكم من بعدِ توقيدِ
انتمْ دعائمُ هذا المُلكِ مذ ركضتْ   قبلُ الخيولُ لإبرامٍ وتوكيدِ
المنعمونَ إذا ما ازمةٌ ازمتْ   والواهبونَ عتيقاتِ المزاويدِ
سيوفكم افقدتْ كسرى مرازبهُ   في يومِ ذي قارَ اذ جاؤوا لموعودِ

فهذا هو الفخرُ الحلالُ غيرُ المدَّعى فيهِ ولا المنتحلِ .

وعابَ الاصمعيُّ وغيرهُ قولَ عامرِ بنِ معسرِ بنِ آسحمَ يصفُ اسيرًا :

فظلَّ يخالسُ المذقاتِ فينا   يُقادُ كأنهُ جملٌ ربيقُ

وذلكَ لأنهُ وصفَ اسيرهم بأنهُ جائعٌ يخالسُ القليلَ الممذوقَ من اللبنِ انما ذلكَ من الجهلِ . ومن اجودِ قصيدةٍ افتخرَ فيها شاعرٌ قصيدةُ السموألِ بنِ عادياءَ فانهُ قد جمعَ فيها ضروبَ المادحِ وانواعَ المفاخرِ وهي مشهورةٌ

البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسهِ)

وليسَ بينَ الرثاءِ والمدحِ فرقٌ إلَّا انْ يُخلطَ بالرثاءِ شيءٌ يدلُّ على انَّ المقصودَ بهِ ميتٌ مثلَ كانَ او عدمنا كيتَ وكيتَ او ما شاكلَ ذلكَ ليُعلمَ انهُ ميتٌ . وسبيلُ الرثاءِ ان يكونَ ظاهرَ التفجُّعِ بيِّنَ الحسرةِ مخلوطًا بالتلهُّفِ والاسفِ والاستعظامِ إنْ كانَ الميتُ ملكًا او رئيسًا كبيرًا كما قالَ النابغةُ في حصنِ بنِ حذيفةَ :

يقولونَ حصنٌ ثمَّ تأبى نفوسُهم   وكيفَ بحصنٍ والجبالُ جنوحُ
ولم تلفظِ الموتى القبورُ ولم تزلْ   نجومُ السماءِ والاديمُ صحيحُ
فعمَّا قليلٍ ثمَّ جاءَ نعيُّهُ   فظلَّ نديُّ القومِ وهو ينوحُ

فهذا وما شاكلهُ رثاءُ الملوكِ والرؤساءِ الجلَّةِ والى هذا ذهبَ ابو العتاهيةِ حينَ قالَ : (ماتَ الخليفةُ ايها الثقلانِ) فرفعَ الناسُ رؤوسهم وفتحوا عيونهم وقالوا : انعاهُ الى الجنِّ والانسِ ثمَّ قالَ : (فكأنني افطرتُ في رمضانِ) يريدُ انَّ مجاهرتي بهذا القولِ كأنما جاهرتُ نهارًا بالافطارِ في رمضانَ فكلُّ احدٍ ينكرُ عليَّ ذلكَ ويستعظمهُ من فعلي وهذا معنًى جيّدٌ غريبٌ في لفظٍ رديءٍ غيرِ معربٍ عمَّا في النفسِ . ومن افضلِ الرثاءِ قولُ

الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة ويروى لابن ابي حفصة:

فيا قبر معنٍ انت اول بقعةٍ
من الارض خطّت للسماحة موضعا
ويا قبر معنٍ كيف واريت جوده
وقد كان منه البرّ والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميّت
ولو كان حيًّا عشت حتّى تصدّعا
فتى عيش في معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

وممّا قصّر به ابو تمّام في رثائه محمّد بن حميد بالقصيدة التي يقول فيها:

الا في سبيل الله من عطّلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

وقد اجاد ايضا في القصيدة التي رثى بها ادريس بن بدر يقول فيها:

ولم انس سعي الجود خلف سريره باكسف بالٍ يستقلّ ويطلع

وابو تمّام من المعدودين في اجادة الرثاء ومثله ديك الجنّ وهو اشهر في هذا من ابي تمّام له فيه طريق قد انفرد بها قال في عبيد الله بن سليمان بن وهب:

قد استوى الناس ومات الكمال وصاح صرف الدهر اين الرجال
هذا ابو القاسم في نعشه قوموا انظروا كيف تسير الجبال

ومن عادة القدماء ان يضربوا الامثال في المراثي بالملوك الاعزّة والامم السالفة وبالوعول الممتنعة في قلل الجبال والاسود الخادرة في الغياض وحمر الوحش المتصرّفة بين القفار وبالنسور والعقبان والحيّات لبأسها وطول اعمارها وذلك في اشعارهم كثير موجود لا تكاد تخلو منه. فامّا المحدثون فهم الى غير هذه الطريقة اميل ومذهبهم في الرثاء امثل في وقتنا هذا وقبله وربّما جروا على سنن من قبلهم اقتداء بهم واخذا بسنّتهم كالذي صنع ابو نواس في رثائه ابا الوليد الاعرابيّ وخلفا الاحمر ومراثيه فيهما ثلاث قوافٍ مشهورات

وكما صنع ابن المعتزّ يرثي اباه بالقصيدة اللاميّة المقيّدة في الرمل اوّلها:

ربّ حتفٍ بين اثناء الامل وحياة المرء ظلٌّ منتقل

وهي معروفة ولولا اشتهار هذه القصائد ووجودها وخيفة التطويل لاثبتّها بهذا الموضع وليس من عادة الشعراء ان يقدّموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون في المدح والهجاء. قال ابن الكلبي وكان علّامة لا اعرف مرثية في اوّلها نسيب الّا قصيدة دريد بن الصمّة في رثاء اخيه خالد:

ارثّ جديد الحبل من امّ معبد لعاقبة او اخلفت كلّ موعد

وحكى النحّاس عن عليّ بن سليمان عن ابي العبّاس الاحول انّ القصيدة التي لابي قحافة اعشى باهلة انّما هي لابنة المنتشر

واسمها الدعجاء. والحاصل ان المتعارف عند اهل اللغة انه ليس للعرب في الجاهلية مرثية اولها تشبيب الا قصيدة دريد. وانا اقول انه الواجب في الجاهلية والاسلام الى وقتنا هذا ومن بعده لان الآخذ في الرثاء يجب ان يكون مشغولا عن النسيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة وانما تغزل دريد بعد قتل اخيه بسنة وحين اخذ بثاره وادرك طائلته

ومن العجيب ان يقول عبدة بن الطيب في تأبين قيس بن عاصم المنقري :

عليك سلام الله قيس بن عاصم　　ورحمته ما شاء ان يترحما

ويقول الكميت في تأبين النبي هذا القول فهلا قال مثل قول فاطمة :

اغبر آفاق السماء وكورت　　شمس النهار واظلم العصران

والنساء اشجى الناس قلوبا عند المصيبة واشدهم جزعا على هالك لما ركب الله تعالى في طباعهن من ضعف العزيمة

فانظر الى قول جليلة بنت مرة ترثي زوجها كليبا حين قتله اخوها جساس ما اشجى لفظها واظهر الفجيعة فيه وكيف يثير الاشجان ويقدح شرر النيران وذلك :

يا ابنة الاقوام ان لمت فلا　　تعجلي باللوم حتى تسألي

ومن اشد الرثاء صعوبة على الشاعر ان يرثي طفلا او امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات. الا ترى ما صنعوا بابي

الطيب وهو فحل مجود اذ ذكر المحدثون في قوله يذكر ام سيف الدولة :

صلاة الله خالقنا حنوط　　على الوجه المكفن بالجمال

وقالوا ما له ولهذه العجوز يصف جمالها وقال الصاحب بن عباد : هذه استعارة حداد في عرس فان كان اراد الصاحب بالاستعارة الحنوط فقد والله ظلم وتعسف وان كان اراد استعارة الكفن لجمال العجوز فقد اعترض في موضع اعتراض الى مواضع كثيرة في هذه القصيدة ما يمحق كل زلة ويعفي كل اساءة . قال الصاحب بن عباد ولقد مررت على مرثية له في ام سيف الدولة تدل مع فساد الحس على سوء ادب النفس وما ظنك بمن يخاطب ملكا في امه بقوله :

رواق العز فوقك مسبطر　　وملك علي ابنك في كمال

. ولعل لفظ الاسبطرار في مراثي النساء من الخذلان الصفيق الرقيق . وانا اقول ان اشد ما هجن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة هجاء انه قرنها بفوقك فجاء عملا تاما لم يبق فيه الا فضاء

ومن اصعب الرثاء ايضا جمع تعزية وتهنئة في موضع قالوا: لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدر احد على الجمع بين التعزية والتهنئة حتى اتى عبد الله ابن همام السلولي فدخل فقال: يا امير المؤمنين اجرك الله على الرزية . وبارك لك في العطية . واعانك على الرعية . فقد رزيت عظيما واعطيت فاشكر

اَللّٰهَ عَلَى مَا أُعْطِيتَ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَّ خَلِيفَةَ ٱللّٰهِ وَأُعْطِيتَ خِلَافَةَ ٱللّٰهِ فَفَارَقْتَ جَلِيلًا وَأُعْطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ ٱلرِّئَاسَةَ وَأُعْطِيتَ ٱلسِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ ٱللّٰهُ مَوَارِدَ ٱلسُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ ٱلْأُمُورِ :

فَٱصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَٱشْكُرْ حِبَاءَ ٱلَّذِي بِٱلْمُلْكِ أَصْفَاكَا

لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي ٱلْأَيَّامِ نَعْلَمُهُ   كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ ٱلْقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ جَرَى ٱلشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ

قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي ٱلْفَضْلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِٱلْأَمِينِ :

تَعَزَّ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ   بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا   لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ
وَفِي ٱلْحَيِّ بِٱلْمَيْتِ ٱلَّذِي غَيَّبَ ٱلثَّرَى
فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ وَلَا ٱلْمَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا ٱلْمُلْكُ مَغْبُونٌ . وَأَتْبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا لِلْوَاثِقِ بَعْدَ ٱلْمُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا ٱلْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَحْتَجَّ وَأَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ ٱلشِّعْرِ . وَأَرَادَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ ٱلتَّقْصِيرَ فَٱقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَٱصْطَفَقَتْ   عَلَيْكَ أَيْدٍ بِٱلتُّرْبِ وَٱلطِّينِ
إِذْهَبْ فَنِعْمَ ٱلْمُعِينُ كُنْتَ عَلَى ٱلدُّنْيَا   وَنِعْمَ ٱلظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ ٱللّٰهُ أُمَّةً فَقَدَتْ   مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي ٱلْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ :

أَلَا مَنْ رَأَى ٱلطِّفْلَ ٱلْمُفَارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْدَ ٱلْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ   مِنَ ٱلدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
وَإِنَّ مَكَانًا فِي ٱلثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ
لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى ٱلشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

فَهَبْنِي عَدِمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي   جَلِيدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لِٱبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ ٱلَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي ٱلرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمَرْثِيَّةُ مِنْ نِسَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَبَنَاتِ ٱلْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ ٱلشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يَتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

وَلَوْ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا   لَفُضِّلَتِ ٱلنِّسَاءُ عَلَى ٱلرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

مَشَى ٱلْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً   كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ   كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ ٱلنَّسَبِ

اُجلُّ قدرَكِ ان تُسمَى مؤبَّنةً ... ومن يصفكِ فقد سمّاكِ للعرب

ورثاء الاطفالِ ان يذكُر مخايلهم وما كانت الفراسة تعطيه فيهم ممن تحنّن لمصابهم وتفجّع بهم كالذي صنع ابو تمام في ابنَي عبدِ الله بن طاهرِ

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حَسْبُ الشاعرِ ان يكونَ مدحُهُ شريفًا واقتضاؤُه لطيفًا وهجاؤُه ان هجا عنيفًا فانَّ الاقتضاء الخشنَ رُبّما كان سببَ المنعِ والحرمانِ وداعيةَ القطيعةِ والهجرانِ. وقومٌ يُدرِجون العتابَ في الاقتضاء والاقتضاء بالعتابِ وانا ارى غيرَ هذا المذهبِ اصوب فالاقتضاء طلبُ حاجةٍ وبابُ التلطّفِ فيه اجودُ فان بلغَ الامرُ العتابَ فانّما هو طلبُ الابقاء على المودّةِ والمراعاةِ وفيه توبيخٌ ومضادّةٌ لا يجوزُ معها بعدُ اقتضاء الّا انَّ الناسَ قد خلطوا هذينِ وساووا بينهما. فمن احسنِ الاقتضاء على ما تخيّروه ونحوتُ اليه قولُ اميّةَ بنِ ابي الصلتِ لعبدِ الله بنِ جُدعانَ:

اَاذكُرُ حاجتي ام قد كفاني ... حياؤُكَ انَّ شيمتَكَ الحياء

وعلمُكَ بالحقوقِ وانتَ فرعٌ ... لهُ الحسبُ المهذَّبُ والسَّناء

خليلٌ لا يُغيّرهُ صباحٌ ... عن الخُلُقِ الجميلِ ولا مساء

اِذا اَثنى عليكَ المرءُ يومًا ... كفاهُ من تعرُّضهِ الثَّناء

فانتَ ترى هذا الاقتضاء كيف يُلينُ الصخرَ ويستنزلُ القطرَ ويحطُّ العُصْمَ الى السهلِ ومثلُهُ. قولُ الآخرِ:

لاشكرنَّكَ معروفًا هممتَ بهِ ... انَّ اهتمامَكَ بالمعروفِ معروفُ

ولا الومُكَ ان لم يُمضِهِ قدرٌ ... فالشيءُ بالقدرِ المحتومِ مصروفُ

فامّا ما ناسبَ قولَ محمّدِ بنِ يزيدَ الامويِّ لعيسى بنِ فرخا اذ يقولُ لهُ مستبطئًا:

لقد كنتُ اُرجيكَ ... لما اخشى من الدهرِ

فقد اضحت من اوكدِ م ... اسبابي الى الفقرِ

اترضى لي بان ارضى ... بتقصيرِكَ في امري

وقد افنيتُ ما افنيتُ ... في شكرِكَ من عمري

فهوَ العتابُ المحضُ والتوبيخُ الذي دونهُ الجلدُ بالسوطِ بل بالسيفِ. ومِمّا صنعهُ في العتابِ على هذا الشكلِ بعدَ اليأسِ المحكمِ كما شرطتُ:

رجوتُكَ للامرِ المهمِّ وفي يدي ... بقايا اُمنّي النفسَ فيها الامانيا

فساوفتَ في الايّامِ حتّى اذا انقضت ... اواخرُ ما عندي قطعتُ رجائيا

وكنتُ كاني نازفُ البئرِ طالبًا ... لاجمامِها او يرجعَ الماء صافيا

فلا هوَ ابقى ما اصابَ لنفسهِ ... ولا هيَ اعطتهُ الذي كان راجيا

ومن املحِ ما رايتُ في الاقتضاء والاستبطاء قولُ ابي

ٱلْعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ. وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ:

أَسَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلْعَيْنُ يَا عُمَرْ   فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيكَ بِٱلْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا   فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ:

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً   لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا   بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا   آجِلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَهْ
لٰكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي   أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسهِ)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِٱسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِٱحْتِجَاجُ وَٱلِٱنْتِصَافُ. وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلْإِجْحَافُ. مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِٱعْتِذَارُ وَٱلِٱعْتِرَافُ. وَأَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْأَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ:

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ   وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا
وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى   سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا
أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتَ   وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ   أَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَأَشْكُو ٱلْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي   عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا
أَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ   طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ   يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ:

وَأَغْيَدَ إِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ   كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا   وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ   رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ   وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ
تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا
أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ
هِيَ ٱلْأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا

فهذا أعتبُ كما قال :

عتابٌ بأطرافِ القوافي كأنّهُ — طعانٌ بأطرافِ القنا المتكسّرِ

وقد نحوتُ أنا بعضَ هذا النحوِ في كلمةٍ عاتبتُ بها القاضيَ جعفرَ بنَ عبدِ اللهِ الكوفيَّ قلتُ فيها :

وقد كنتُ لا آتي إليكَ مخايلًا — لديكَ ولا أُثني عليكَ تصنّعا
ولكن رأيتُ المدحَ فيكَ فريضةً — عليَّ إذا كانَ المديحُ تطوّعا
فقمتُ بما لا يخفى عنكَ مكانُهُ — منَ القولِ حتّى ضاقَ ممّا توسّعا

إلى أن أقولَ :

فواللهِ ما طوّلتُ باللومِ فيكمُ — لساني ولا عرّضتُ للذمِّ مسمعا
ألوذُ بأكنافِ الرجاءِ وأتّقي — شماتَ العدا إن لم أجد فيكَ مطمعا

ومن معاتباتِ أبي تمّامٍ قولُهُ لابنِ عبدِ الملكِ الزيّاتِ :

تقطّعتِ الأسبابُ إن لم تعزْ لها
قوًى أو يصلْها من يمينكَ واصلُ
سوى مطلبٍ ينضي الرجاءَ بطولهِ
وتخلقُ أخلاقَ الجفونِ الوسائلُ
وقد تألفُ العينُ الدجى وهوَ قيدُها
ويُرجى شفاءُ السمِّ والسمُّ قاتلُ

إلى قولِهِ :

وإنَّ المعالي يُسترمُّ بناؤها — وشيكًا كما قد تُسترمُّ المنازلُ
منحتُكها تشفي الجوى وهوَ لاعجٌ — وتبعثُ أشجانَ الفتى وهوَ ذاهلُ

تردُّ قوافيها إذا هيَ أُرسلتْ — هواملَ مجدِ القومِ وهيَ هواملُ
فكيفَ إذا حلّيتها بحُليّها — تكونُ وهذا حسنُها وهيَ عاطلُ

وقالَ ابنُ الروميّ لأبي الصغيرِ يعاتبُهُ في قصيدةٍ جيّدةٍ :

عذرتُكَ لو كانتْ سماءٌ تقشّعتْ — سحابتُها أو كانَ روضًا تصوّحا
فما لكَ بحرًا لم أجدْ فيهِ مشرعًا — وإن كانَ غيري واجدًا فيهِ مسبحا
مديحي عصا موسى وذلكَ أنّني — ضربتُ بهِ بحرَ الندى فتضحضحا

إلى أن يقولَ :

سأمدحُ بعضَ الباخلينَ لعلّهُ — إذا اطّردَ المقياسُ أن يتسمّحا

فهذا هوَ الذي لا يُبلغُ جودةً ولا يُجارى سبقًا . على أنَّ البحتريَّ قد تقدّمَ إلى بعضِ المعنى في قولِهِ للفتحِ بنِ خاقانَ :

غمامٌ خطا في صوبِهِ وهوَ مسبلُ — وبحرٌ عدا في فيضِهِ وهوَ منعمُ
وبدرٌ أضاءَ الأرضَ شرقًا ومغربًا — وموضعُ رحلي منهُ أسودُ أقتمُ
وما بخلَ الفتحُ بنُ خاقانَ بالندى — ولكنّها الأقدارُ تعطي وتحرمُ

فأمّا أبو الطيّبِ فكانتْ في طبعِهِ غلظةٌ وفي عتابِهِ شدّةٌ وكانَ كثيرَ التحاملِ ظاهرَ الكبرِ والأنفةِ وما ظنّكَ بمن يقولُ لسيفِ الدولةِ :

يا أعدلَ الناسِ إلّا في معاملتي — فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ
أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً — أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمُهُ ورمُ
وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ — إذا استوتْ عندَهُ الأنوارُ والظلمُ

وفيها يقولُ :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن أن الليث مبتسم

فهذا الكلام في نهاية الجودة غير أنه من جهة الواجب والسياسة غاية في القبح والرداءة وإنما عرض بقوم ينتقصونه عند سيف الدولة ويعارضونه في أشعاره. والإشارة كلها إلى سيف الدولة. ثم قال بعد أبيات:

يا من يعز علينا أن نفارقه   وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة   لو أن أمركم من أمرنا أمم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة   إن المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم   والله يكره ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي   أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وليس هذا عتابا لكنه سباب وبسبب هذه القصيدة كاد يقتل بعد انصرافه من مجلس إنشادها. وأما عتاب الأكفاء وأهل المودات من الظرفاء فمنه قول إبراهيم بن عباس الصولي يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات وقد تغير عليه كما ورد:

وكنت أخي بإخاء الزمان   فلما نبا صرت حربا عوانا
وكنت أذم إليك الزمان   فأصبحت فيك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائبات   فها أنا أطلب منك الأمانا

وهذا عندي من أشد العتاب وأوجعه. ومن أكرم العتاب قول السيد أبي الحسن:

وإني لأطري كل خل صحبته   وأنت ترى سمتي بغير حياء

ومن مليح ما سمعت قول سعيد بن حميد يعاتب صديقا له:

أقلل عتابك فالبقاء قليل   والدهر يعدل مرة ويميل
لم أبك من زمن ذممت صروفه   إلا بكيت عليك حين يزول
ولكل نائبة ألمت مدة   ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الإخاء عصابة   إن حصلوا أفناهم التحصيل
ولعل أحداث المنية والردى   يوما ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقت لتبكين بحسرة   وليكثرن علي منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامق   حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين   من لا يشاكله لدي خليل
وليذهبن بهاء كل مروءة   وليفقدن جمالها المجهول
وأراك تكلف بالعتاب وودنا   صاف عليه من الوفاء دليل
ود بدا لذوي الإخاء كماله   وبدت عليه بهجة وقبول
ولعل أيام الإخاء قصيرة   فعلام يكثر عتبنا ويطول

وإلى هنا أومأ أبو الطيب بقوله:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها   فمفترق جاران دارهما العمر

وأشار إليه أيضا بقوله وأردت البيت الأخير:

وصلينا نصلك في هذه الدنـ   ـيا فإن المقام فيها قليل

والجميع من قول الأول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّيًا　　اَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْاَوَّلُ
حَسْبُ ٱلْاَحِبَّةِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ　　رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

اِلَّا اَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا اَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ اَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ اَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلٌ بَيِّنُ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا اَحْسَنَ اِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

ٱلْعُمْرُ اَقْصَرُ مُدَّةً　　مِنْ اَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

اِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْاُمُورِ مُعَاتِبًا　　صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْاُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ اِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ　　تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا
اَاَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَاِنَّنِي　　اَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
اَاَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً　　بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا
فَاَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَاِنَّهَا　　كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ اُحِلُّ عِقَالَهَا　　فَتُضْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَاَصْلُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

اَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ　　اِنِّي اَخَافُ عَلَيْكُمُ اَنْ اَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا اَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرِّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا اَبَا لَكُمُ　　لَا يُلْقِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى اَنَّهُ　　لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا اَوْجَعَا
كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ　　وَآفَةُ ٱلنَّحْلَةِ اَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ اَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ اَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوُ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ اَنَّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ اَحْسَابَهَا　　يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ   فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

ولمّا اطلق عمر بن الخطاب الحطيئة من حبسه اياه بسبب هجائه الزبرقان قال له: تدع الهجاء المقذع. قال: وما الهجاء المقذع. قال: المقذع ان تقول هؤلاء افضل من هؤلاء واشرف وتبني شعرًا على مدح لقوم وذمّ لمن يعاديهم. قال: انت والله يا امير المؤمنين اعلم مني بمذاهب الشعر لكني حباني هؤلاء فمدحتهم وحرمني هؤلاء فذكرت حرمانهم ولم انل من اعراضهم شيئًا وصرفت مدحي الى من اراده ورغبت به على من كرهه وزهد فيه. يريد قصيدته المهموزة وهي اخبث ما صنع وفيها او من اجلها قال خلف الاحمر: اشدّ الهجاء اعفّه واصدقه. وقال مرّة اخرى: ما عفّ لفظه وصدق معناه. ومن كلام صاحب الوساطة: فامّا الهجو فابلغه ما قربت معانيه وسهل حفظه واسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس فامّا القذف والفحش فباب محض وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن. وممّا يدلّ على صحّة ما قاله صاحب الوساطة وحسن ما ذهب اليه اعجاب الحذّاق من العلماء وفرسان الكلام بقول زهير في تشككه وتهزّله وتجاهله فيما يعلم:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فانّ هذا عندهم من اشدّ الهجاء وامضه. ولمّا قدم النابغة بعد وقعة حسا سأل بني ذبيان ما قلتم لعامر بن الطفيل وما قال لكم. فانشدوه. فقال: افحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل هذا ولكنّي سأقول ثمّ قال:

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا   فَإِنَّ مَظِنَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ (١)

فلمّا بلغ عامرًا قول النابغة شقّ عليه وقال جعلني القوم رئيسًا وجعلني النابغة سفيهًا جاهلًا وتهكّم بي. وروي انّ شاعرًا مدح الحسين بن عليّ فاجزل عطيّته فليم على ذلك فقال: اترونني خفت ان يقول: لست ابن فاطمة ولا ابن عليّ. ولكن خفت ان يقول: لست كالرسول ولست كعليّ فيصدّق ويحمل عنه ويبقى مخلّدًا في الكتب محفوظًا على السنة الرواة. فقال الشاعر: انت والله اعلم مني بالمدح. وقد وقع الحسن بن زيد ببعض ما قال فيه ابو عاصم محمّد بن حمزة الاسلميّ المدنيّ:

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ   وَمَهْمَا قَالَ فَالْحَسَنُ الْجَمِيلُ

وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء اجود وترك الفحش اصوب الّا جريرًا فانّه قال لبنيه: اذا مدحتم فلا تطيلوا واذا هجوتم فخالفوا. وانا ارى التعريض اهجى من التصريح لاتّساع الظنّ في التعريض وشدّة قلق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته فاذا كان الهجو تصريحًا احاطت به النفس علمًا وقلته يقينًا في اوّل وهلة وكان كلّ يوم في نقص لنسيان او ملل يعرض. وهذا المذهب الصحيح على ان يكون المهجوّ ذا قدر في نفسه وحسبه. فامّا

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ ٱلتَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا ٱلتَّصْرِيحُ فَذٰلِكَ . وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَاسٍ وَكَذٰلِكَ هِجَاءُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ فِيهِ ٱخْتِلَافٌ لِٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِ ٱلْمَهْجُوِّينَ فَمِنَ ٱلتَّفْضِيلِ فِي ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّقِّيِّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِي ٱلنَّدَى   يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَٱلْأَغَرِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْقَيْسِيِّ إِتْلَافُ مَالِهِ   وَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْعَبْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ   وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ

وَمِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَٱلِٱسْتِخْفَافِ قَوْلُ زِيَادٍ ٱلْأَعْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جَرْمٍ فَإِنَّمَا   يُقَالُ لِشَيْخِ ٱلصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ أَنْتُمُ إِنَّا نَسِينَا مَنَ أَنْتُمُ   وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ ٱلْأَعَاصِرِ
أَأَنْتُمْ أُولَى جِئْتُمْ مَعَ ٱلرِّيحِ وَٱلدَّبَا   فَطَارَ وَهٰذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى ٱللهُ خَلْقَ ٱلنَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ   بَقِيَّةَ خَلْقِ ٱللهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا إِلَّا مَدَقَّ ٱلْحَوَافِرِ

أَخَذَ مِنْهُ ٱلطِّرِمَّاحُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا   وَضَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ ٱلْقَبَائِلِ

وَمِنَ ٱلِٱحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى ٱلْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ   وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ   وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهُمَا ٱلْعَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ ٱلتَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هَفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ   وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ :

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ   شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيُتْلِفُهُ
كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ   يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

أَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ : أَيُّ أَصْحَابِي كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ : مَا أَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ أَعْرِفُ أَقْفَاءَهُمْ . وَأَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ أَنْ يُسْلَبَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا . فَأَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَإِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ إِنِّي وَأَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا إِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ :

لَعَمْرُكَ مَا تَبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ   مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ . وَٱلَّذِي أَرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ أَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا أَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ بِعَيْنِهِ

البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وينبغي للشاعر ان لا يقول شيئًا يحتاج ان يعتذر منه فان اضطره المقدار الى ذلك واوقعه فيه القضاء فليذهب مذهبًا لطيفًا وليقصد مقصدًا عجيبًا وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر اليه من باب الاحتجاج واقامة الدليل لا سيما مع الملوك وذوي السلطان وحقه ان يلطف برهانه مدرجًا في التضرع والدخول تحت عفو الملوك واعادة النظر في الكشف عن كذب الناقل والحاسد فاما مع الاخوان فتلك طريقة أخرى وقد احسن محمد بن علي الاصبهاني حيث يقول :

وقد اسأت فبالنعمى التي سلفت   الّا مننت بعفو ما له سبب

وقال ابراهيم بن المهدي للمأمون من ابيات يعتذر اليه :

الله يعلم ما اقول فانها   جهد الألية من مقرّ خاضع
ما ان عصيتك والغواة تمدني   اسبابها الّا بنية طائع

وقد سلك ابو علي البصير مذهب الحجة واقامة الدليل بعد ارتكاب الجناية فقال :

لم اجن ذنبًا فان زعمت بان   جنيت ذنبًا فغير معتمد
نحوت هذا النحو فقلت :

لا يبعد الله ابا جعفر   دعابة بت على نارها
وان تاذيت فيا ربما   تاذت العين باشفارها

واجل ما وقع في الاعتذار من مشهورات العرب قصائد النابغة الثلاث احداهن «يا دار مية بالعلياء بالسند» يقول فيها :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته   وما هريق على الانصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير تمسحها   ركبان مكة بين الغيل والسعد
ما قلت من سيء مما اتيت به   اذًا فلا رفعت سوطي اليّ يدي
الّا مقالة اقوام شقيت بها   كانت مقالتهم قرعًا على الكبد
انبئت ان ابا قابوس اوعدني   ولا قرار على زأر من الاسد

والثانية (ارسمًا جديدًا من سعاد تجنب) يقول فيها معتذرًا من مدح آل جفنة ومحتجًا باحسانهم اليه :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني خيانة   لمبلغك الواشي اغش واكذب
ولكنني كنت امرأً لي جانب   من الارض فيه مستراد ومذهب
ملوك واخوان اذا ما اتيتهم   أحكم في اموالهم واقرب
كفعلك في قوم اراك اصطنعتهم   فلم ترهم في شكر ذلك اذنبوا
فلا تتركني بالوعيد كانني   الى الناس مطلي به القار اجرب
الم تر ان الله اعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب
بانك شمس والملوك كواكب   اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

والثالثة (عفا ذو حسى من فرتنا فالفوارع) يقول فيها بعد

قَسَمٍ قَدَّمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ ٱمْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي ٱلْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ
فَإِنْ كُنْتَ لَا ذُو ٱلضِّغْنِ عَنِّي مُكَذَّبٌ
وَلَا حَلِفِي عَلَى ٱلْبَرَاءَةِ نَافِعُ
وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ
فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَدْ عَلِقَ بِهٰذَا ٱلْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ يَعْتَذِرُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ وَأَنْتَ ذَاكَ لِمَا نَأْتِي وَنَجْتَنِبُ
وَأَنْتَ كَٱلدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَٱلدَّهْرُ لَا مَلْجَأٌ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ

وَقَالَ عُبَيْدُ ٱللّٰهِ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنَّنِي أَفُوتُكَ إِنَّ ٱلرَّأْيَ مِنِّي لَعَازِبُ

وَإِلَى هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلٰكِنَّكِ ٱلدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ فَمَا عَنْكِ لِي إِلَّا إِلَيْكِ ذَهَابُ

غَيْرَ أَنَّهُ حَرَّفَ ٱلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَٱخْتَارَ ٱلْعُلَمَاءُ بِهٰذَا ٱلشَّأْنِ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِٱمْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ وَلَوْ رَفَعَتْهُ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلْمَطَالِعُ
بَلَى هَارِبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ

لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ ٱلنَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلصُّبْحِ . وَأَظُنُّهُ ٱقْتَدَى بِقَوْلِ ٱلْأَصْمَعِيِّ فِي بَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ : لَيْسَ ٱللَّيْلُ أَوْلَى

بِهٰذَا ٱلْمَثَلِ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِٱعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا . وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِيعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ
فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللّٰهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ حُجْرٍ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَدْكَاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِٱنْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :
وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ الدَّابَّةَ اي جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَحْجُزُهَا مِنَ الشِّرَادِ فَمَعْنَى اعْتَذَرَ الرَّجُلُ احْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُقُوبَةِ اوِ الْعَتْبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ الْأَمْرُ وَاحْتَجَزَ انْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ عَذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ الْأَعْشَى اَسْيَرَ النَّاسِ شِعْرًا وَاَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ يُنْسِي اَصْحَابَهُ الْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَالنَّابِغَةُ وَامْرُؤُ الْقَيْسِ وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ الشِّعْرِ مُظَفَّرًا. قَالَ الْاَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَاَنَا وَاللّٰهِ اَشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ اَنَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيْرُورَةِ الشِّعْرِ مَا لَمْ اُرْزَقْهُ وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا اَحْسَبُ اَحَدًا قَالَ اَهْجَا مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ اِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهُجِيَتْ فَحَطَّ الشِّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ الْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى الْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ يُوَافِقِ الْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ الرِّيبَةِ. فَمِنَ الَّذِينَ لَمْ يَحُكَّ فِيهِمْ هِجَاءٌ اِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَمِيمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَاَسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْيَمَنِ. فَاَمَّا مَنْ شُقُّوا بِالْهِجَاءِ وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْفَضْلِ اَحْيَاءٌ مِنْ قَيْسٍ نَحْوَ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ اَعْصُرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَاسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرٌو وَكَانُوا مَوَالِيَ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمِ الدِّيَاتِ وَالنَّوَائِبَ وَنَحْوَ مُحَارِبِ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبٍ وَمِنْ وُلْدِ طَابِخَةَ بْنِ اِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلٌ ابْنَا عَبْدِ مَنَاةَ وَقَعَ عَلَيْهِمِ السَّبُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاسْتَهَانَتِ الْعَرَبُ بِهِمْ وَانْطَبَعَ الْهِجَاءُ فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَاَرَادَ اَنْ يَسْتَمْلِكَهُمْ مِلْكَ رِقٍّ بِسِجِلٍّ مِنْ قِبَلِ الْمُنْذِرِ. وَالْحَبِطَاتُ وَهُمْ وُلْدُ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ وَسُمِّيَ الْحَبِطَ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّهُوهُ بِالْجَمَلِ الْحَبِطِ وَهُوَ الَّذِي انْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَإٍ يَسْتَوْبِلُهُ. فَاَمَّا السَّلُولُ فَقَدْ قَالَ فِيهِمْ اَبُو زِيَادٍ الْكِلَابِيُّ: كِرَامٌ مِنْ كِرَامِ صَعْصَعَةَ لَمْ يُخَالِفُوا فِي اَمْرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَاِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ هِيَ الَّتِي شَامَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ: اَغُدَّةً كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ. قُلْتُ اَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هٰذِهِ الْكَلِمَةَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَمَا يَصْنَعُ بِقَوْلِ السَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ:

وَاِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً ... اِذَا مَا رَاَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَالسَّمَوْأَلُ فِي زَمَانِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَبَيْنَ امْرِئِ الْقَيْسِ وَمَبْعَثِ الرَّسُولِ مِئَةٌ وَاَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قَالَ الْجَاحِظُ لَمْ يُمْدَحْ قَبِيلَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدِحَتْ مَخْزُومٌ. قَالَ وَكَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ اَخْطَاَ فِي الشِّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ. وَمَا اَعْلَمُ فِي الْاَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلَايَةِ اللّٰهِ اَعْظَمَ مِنْ اَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُمَدَّحًا. قُلْتُ اَنَا: اَمَّا هٰذِهِ النِّعْمَةُ فَقَدْ اَحَلَّهَا اللّٰهُ مُضَاعَفَةً

عِنْدَ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْهُ بِٱلِٱسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا وَنَزَلَتْ مَنْزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا . وَأَحْيَا ٱللّٰهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَعْنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا فَنَبِّهْ لَهَا عَمْرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

إِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّهَا قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَمْدَحْ أَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُجَاوِرُ فِي كُلَيْبٍ بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِأَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَأَقَامَتْ تَمِيمُ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

أَبَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْأَجْنَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ حَتَّى يُحَاكِمَهُمْ إِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَأَنَّهُمْ فِي ٱلْعِزِّ أُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ كَبَنِي زُرَارَةَ أَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزِئِلٍ كَأَنَّهُمْ بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمُ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمَ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُجَدُّونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ عَنَّعَ :

تَعَالَى ٱللّٰهُ يَا مُسْلِ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ اَبِي حَفْصَةَ اُعْطِيَ مِائَةَ اَلْفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابَلُ اِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْبُيُوتَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلشِّعْرِ. وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ اِلَيْهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَمِحًا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْاِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ اَحْنَفَ. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ. وَاَمَّا اَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِّيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْاَمْوَالِ لِاَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْاَرْضَ وَكَذٰلِكَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَنْشَدَنَا اَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ اَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ اِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ :

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ اَسَابِقِي ... اِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْاَصَابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ اِلَّا وَهُوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ اِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : اَتَسْبِقُنِي اَنْتَ اِلَى ٱلْاَكْلِ اَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ اِذًا اَصَابِعِي اِذَا لَمْ اَرْمِكَ فَاَقْتُلَكَ وَآكُلَ لَحْمَكَ. ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ : لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفْرَةٍ يَعْنِي ٱلذِّئْبَ اِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِاَنِّي اَقْتُلُهُ قَبْلَ اَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي. وَمِنْ اَنَاشِيدِهِمْ :

اَبُوكَ ٱلَّذِي نُبِّئْتُ يَحْبِسُ خَيْلَهُ ... غَدَاةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَجِفَّ لَهَا ٱلْبَقْلُ

قَالُوا اِذَا اَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيْفِ ٱلْاَرْضَ اَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي اُصُولِ بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذٰلِكَ ٱلْاَخْضَرُ هُوَ ٱلنَّشْرُ وَهُوَ ٱلْغَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ ٱلْاِبِلُ فَيَأْخُذُهَا ٱلسَّهَامُ وَلَا سَهَامَ فِي ٱلْخَيْلِ فَعَابَهُ بِٱلْجَهْلِ بِٱلْخَيْلِ. قَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ : هٰذَا ٱلْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْخَيْلِ لِاَنَّ ٱلنَّشْرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا اَكَلَهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سَهَامٌ. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ قُتَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذِكْرِ آلِ ٱلرَّسُولِ :

اُولٰئِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ ... وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَوْمٌ اَرَادَ لَمْ يُغْمِدُوا سُيُوفَهُمْ اِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ ٱلْقَتْلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ اَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ اِلَّا بَعْدَ اَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ. وَقَالَ آخَرُونَ : اَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ اِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلْقَتْلَى كَمَا تَقُولُ : لَمْ اَلْقَكَ وَلَمْ اُحْسِنْ اِلَيْكَ اَيْ اِلَّا وَقَدْ اَحْسَنْتُ اِلَيْكَ وَٱلْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِاَنَّهُ مِنَ ٱلْاَضْدَادِ وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ ٱلْآخَرِ :

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ ... دَعِ ٱلْكَلْبَ يَنْبَحْ اِنَّمَا ٱلْكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى :

دَفَعْتُ اِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ ... اَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا اَبَا لَكَ نَابِحُ

وَاَنْشَدَ اَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ :

فَجُنِّبْتَ ٱلْجُيُوشَ اَبَا حَبِيبٍ ... وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا زَيْنَب قَالَ : إِنْ دَعَا لَهُ فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَافَى مِنَ ٱلْجُيُوشِ وَأَنْ يَجُودَهُ ٱلسَّحَابُ فَتُخْصِبَ أَرْضُهُ وَإِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ : لَا أَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ ٱلْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ ٱلْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِأَنْ تَدْرُسَهَا ٱلْأَمْطَارُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : إِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ فَأَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ أَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ ٱلْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَخَيْفَاءَ أَلْقَى ٱللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ   فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

أَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ . وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ أَيْضًا :

إِنِّي عَلَى كُلِّ إِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ   أَدْعُو خَبِيثًا كَمَا تُدْعَى ٱبْنَةُ ٱلْجَبَلِ

وَرَوَى ٱلْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ أَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَٱلصَّدَا وَهُوَ ٱبْنَةُ ٱلْجَبَلِ وَقِيلَ ٱبْنَةُ ٱلْجَبَلِ ٱلصَّخْرَةُ ٱلْمُنْحَدِرَةُ مِنْ أَعْلَاهُ . وَزَادَ أَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ :

إِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ   عَارِي ٱلْأَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ ٱلْآخَرِ :

كَأَنِّي إِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ   دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ ٱلْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمُ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ ٱلْأَوَّلِ فِي سُرْعَةِ ٱلْإِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ إِلَى ٱلثِّقَلِ عَنْ إِجَابَتِهِ مِثْلَ ٱلْجِبَالِ . وَمِنَ ٱلدُّعَاءِ ٱلَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ :

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا   يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا ٱلذِّئْبَ وَٱلضَّبُعَا

قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا ٱجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَشَغَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا ٱلْآخَرَ وَإِذَا تَفَرَّقَا آذَيَا وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَاهُ فِي ٱلدُّعَاءِ عَلَيْهَا : قَتَلَ ٱلذِّئْبُ ٱلْأَحْيَاءَ عَبَثًا وَأَكَلَتِ ٱلضَّبُعُ ٱلْأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي   صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ ٱلْهِجَانِ

وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ ٱلثُّنْيَانَ وَلَا يَغْلِبُ ٱلْفَحْلَ لٰكِنْ أَرَادَ ٱلتَّصْغِيرَ بِٱلَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثُنْيَانًا . وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي   يَجِي قَبْلَ ٱلسَّوَابِقِ وَهُوَ ثَانِ

أَرَادَ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَا يُسْبَقُ مُتَمَهِّلًا . وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَيُذَمُّ قَوْلُهُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ ٱلطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا لَا أَصْلَ لَهَا . قَالَتْ أُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ   لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ ٱلْأَبَدِ

لٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ   مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ

فَهٰذَا ٱمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ ٱلرَّاعِي ٱلنُّمَيْرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ ٱلرِّقَاعِ ٱلْعَامِلِيَّ :

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ تُهْجَى هَجَوْتُكُمُ

يَا ٱبْنَ ٱلرِّقَاعِ وَلٰكِنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدِ

تَأْبَى قُضَاعَةُ أَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا

وَٱبْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ :

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَادًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ
وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَفْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلِارْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأَيُّدُ . وَٱلِارْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ
لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ
فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا
وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ
وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ
إِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ :

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْأَسْرَى وَلٰكِنْ نَفُكُّهُمْ
إِذَا شَغَلَ ٱلْأَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَأَعْظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ أَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ . وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ . وَقِيلَ : أَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِارْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ . وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِارْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي إِلَّا فَلْتَةً . وَيُرْوَى أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ : وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ . فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا :

مَنَحْتُكُمُ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي   أَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رَمَاكُمْ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ   أَكُولٍ لِحَيَّاتِ ٱلْبِلَادِ شَرُوبِ
فَإِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ   فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبِ

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ: وَٱللّٰهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصْقَعٌ فَكَيْفَ رَأَيْتَ فَٱعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَحَلَفَ: إِنْ كُنْتُ إِلَّا مَازِحًا. وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ: كَانَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ نَظِيرَ أَبِي نُوَاسٍ فِي وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي أَشْيَاءَ إِلَّا أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ قَهَرَ بِٱلْبَدِيهَةِ وَٱلْاِرْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَإِظْهَارِ تَوَقُّدٍ وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ أَقْدَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱرْتِجَالٍ وَبَدِيهَةٍ لِقُرْبِ مَأْخَذِهِ وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَٱجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِمْ أَبُو نُوَاسٍ فَشَرِبَ أَحَدُهُمْ مَاءً ثُمَّ قَالَ أَجِيزُونَا: بَرَدَ ٱلْمَاءُ وَطَابَا. فَكُلُّهُمْ تَلَعْثَمَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ. قَالَ: فِيمَ أَنْتُمْ فَأَنْشَدُوهُ. فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ: حَبَّذَا ٱلْمَاءُ شَرَابَا. فَأَتَى بِٱلْقَسِيمِ شَبِيهًا بِصَاحِبِهِ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي أَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ لَا وَزْنُ ٱلْكَلَامِ. وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ ٱلدُّيُوكِ. فَقَالَ لِرَفِيقِهِ: هَلْ رَأَيْتَ ٱلصُّبْحَ لَاحَا. قَالَ نَعَمْ. قَالَ: وَسَمِعْتَ ٱلدِّيكَ صَاحَا. قَالَ نَعَمْ. قَالَ:

إِنَّمَا يَبْكِي عَلَى ٱلْمُغْ   تَرِّ بِٱلدُّنْيَا وَنَاحَا

فَٱسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ أَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ. فَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَهُوَ ٱلْاِرْتِجَالُ. وَأَمَّا ٱلْبَدِيهَةُ فَبَعْدَ أَنْ يُفَكِّرَ ٱلشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سَرِيعًا إِنْ حَضَرَتْ آلَةٌ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَإِنْ أَطَالَ حَتَّى يُفْرِطَ أَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يُعَدَّ بَدِيهًا

وَقَالُوا ٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلرَّشِيدِ فَأَذِنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا ٱلْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: أَلْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ ٱلْجَمَّازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ إِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: أَحْسَنْتَ وَأَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ كَثِيرَ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلْاِرْتِجَالِ إِلَّا أَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ ٱلْفَنَدِ إِذْ كَانَتِ ٱلْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ   وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا   لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ:

وَٱلْقَوْلُ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ يُؤْمَنُ زَيْفُهُ   شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةٍ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي ٱلرَّوِيَّةِ وَٱلْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ ٱلْأَمْنِ وَٱلْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَأْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهُدْبَةَ بْنِ ٱلْخَشْرَمِ ٱلْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ ٱلْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مَحْكَانَ ٱلسَّعْدِيِّ إِذْ يَقُولُ وَقَدْ أَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا   تَمِيمًا إِذَا ٱلْحَرْبُ ٱلْعَوَانُ ٱشْمَعَلَّتِ
وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيبَةً   بِبَاكٍ عَلَى ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى أَمْنٍ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ أَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا أَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ إِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ　　أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا

أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ　　نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَأَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ أَلْفَ نَاقَةٍ فَأَبَوْا إِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ　　وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ لَمَّا أَيْقَنَ بِٱلْمَوْتِ :

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي

وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي ٱلطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَٱسْتَبْقِ بَعْضَنَا

حَنَانَيْكَ بَعْضُ ٱلشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَأَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ ٱلصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي ٱلسِّنِّ عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ إِذْ يَقُولُ لَهُ ٱلنُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : أَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالَ ٱلْجَرِيضُ دُونَ ٱلْقَرِيضِ . قَالَ : أَنْشِدْنِي قَوْلَكَ أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ . فَقَالَ :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عُبَيْدُ　　فَٱلْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَفَةَ بَعْضَ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ :

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ　　جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ

بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ . وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا . فَقَدْ قَالُوا : مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهَنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَٱلِارْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِانْصِبَابِ . وَمِنْهُ قِيلَ : شَعَرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعْرُهُ سَبْطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ . وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ .

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حُكْمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

من قلوبهم ولـيكن مع ذلك شريف النفس لطيف الحس عزوف الهمة نظيف البزة انفا لتهابه العامة ويدخل في جملة الخاصة فلا تمجه ابصارهم سمح اليدين والا فهو كما قال ابن ابي فنن:

وان احق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

والى هذا المعنى ذهب الطائي بقوله:

ا الوم من بخلت يداه واعتدى للبخل جريا ساء ذاك صنيعا

والشاعر مأخوذ بكل علم مطلوب بكل مكرمة لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل من نحو ولغة وفقه وخبر وحساب وفريضة واحتياج اكثر هذه العلوم الى شهادته وهو مكتف بذاته مستغن عما سواه ولانه قيد للاخبار وتجديد للآثار وصاحبه الذي يذم ويحمد ويهجو ويمدح ويعرف ما يأتي الناس من محاسن الاشياء وما يذرونه فهو على نفسه شاهد وبحجته مأخوذ. وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر ومعرفة النسب وايام العرب يستعمل ذلك فيما يريده من ذكر الآثار وضرب الامثال ليعلق نفسه بعض انفاسهم ويقوى بقوة طباعهم. فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل اصحابه برواية الشعر ومعرفة الاخبار والتلمذة لمن فوقه من الشعراء فيقولون: فلان شاعر راوية يريدون انه اذا كان راوية عرف المقاصد وسهل عليه مأخذ اللفظ ولم يضق به المذهب واذا كان مطبوعا لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم وربما طلب المعنى فلم يصل اليه

وهو ماثل بين يديه لضعف آلته كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة. وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء. فقال: هو الراوية يريد انه اذا روى استفحل. قال يونس بن حبيب: وانما ذلك لانه يجمع الى جيد شعره معرفة جيد غيره فلا يحمل نفسه الا على بصيرة. وقال رؤبة في صفة شاعر:

لقد خشيت ان تكون ساحرا راوية مرا ومرا شاعرا

واستعظم حاله حتى قرنها بالسحر. وقال الاصمعي: لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي اشعار العرب ويسمع الاخبار ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الالفاظ. واول ذلك ان يعرف العروض ليكون ميزانا على قوله والنحو يصلح به لسانه ويقيم به اعرابه والنسب وايام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرهما بمدح او ذم. وقد كان الفرزدق على فضله في هذه الصناعة يروي للحطيئة كثيرا وكان الحطيئة راوية زهير وكان زهير راوية اوس بن حجر وطفيل الغنوي جميعا. وقد نزل اعشى بني قيس بن ثعلبة بين يدي النابغة الذبياني بسوق عكاظ وانشده فقدمه. وانشده حسان بن ثابت ولبيد ابن ربيعة فما عابهم ذلك ولا غض منهم. وكان كثير راوية جميل مفضلا له. وكان ابو حية النميري واسمه الهيثم بن الربيع وهو من احسن الناس شعرا وانظفهم كلاما مؤتما بالفرزدق

آخذاً عنه كثيراً متعصباً له . ولا يستغني المولد عن تصفح اشعار المولدين لما فيها من حلاوة اللفظ وقرب المأخذ واشارات الملح ووجوه البديع الذي مثله في شعر المتقدمين قليل وان كانوا هم فتحوا بابه وفتقوا جلبابه . وللمتعقب زيادات وافتنان . لا على ان تكون عدة الشاعر مطالعة ما ذكرته آخر كلامي هذا دون ما قدمته فانه متى فعل ذلك لم يكن فيه من المنة وفضل القوة ما يبلغ به طاقة من تبع فجاريه . واذا اعانته فصاحة المتقدم وحلاوة المتاخر اشتد ساعده وبعد مرامه فلم يقع دون الغرض وسعى ان يكون اوثق سهاماً واحسن موقعاً ممن لو عول عليه من المحدثين لقصر عنه ووقع دونه . وليجعل طلبه اولاً للسلامة فاذا صحت له طلب التجويد حينئذ وليرغب في الحلاوة والطلاوة رغبته في الجزالة والفخامة . وليجتنب السوقي القريب والوحشي الغريب حتى يكون شعره حالاً بين حالين كما قال بعض الشعراء :

عليك باوساط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

واول ما يحتاج اليه الشاعر بعد الجد الذي هو الغاية وفيه وحده الكفاية حسن التأني والسياسة وعلم مقاصد القول فان نسب ذل وخضع وان مدح اطرب واسمع وان هجا اقل واوجع ولتكن غايته معرفة اغراض المخاطب كائناً من كان ليدخل اليه من بابه ويداخله في ثيابه فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي تفاوت الناس وفيه تفاضلوا . وقد قيل : لكل

مقام مقال . وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده وامور ذاته من مدح وغزل ومكاتبة ومجون وخمرية وما اشبه ذلك غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين . يقبل منه في تلك الطريق عفو كلامه وما لا يتكلف له ولا القى به بالاً ولا يقبل منه في هذه الا ما كان محككاً معاوداً فيه النظر جيداً لا غث فيه ولا ساقط ولا قلق . وشعره للامير غير شعره للوزير والكاتب ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الانواع .

والمتاخر من الشعراء في الزمان لا يضره تاخره اذا اجاد كما لا ينفع المتقدم تقدمه اذا قصر وان كان له فضل السبق فعليه درك التقصير كما ان للمتاخر فضل الاجادة والزيادة . ولا يكون الشاعر حاذقاً مجوداً حتى يتفقد شعره ويعيد فيه نظره فيسقط رديه ويثبت جيده ويكون بالركيك مطرحاً له راغباً عنه . فان بيتاً جيداً مقام الف ردي . وقال امرؤ القيس وهو اول ما زعموا انه اختير له وعلم به انه افضل الشعراء والمقدم عليهم :

اذود القوافي عني ذيادا ذياد غلام جريء جرادا
فلما كثرن وعنينه تخير منهن ستاً جيادا
فاعزل مرجانها جانباً وآخذ من درها المستجادا

ويقال ان ابا نواس كان يفعل هذا الفعل ويبقي الجيد ويلتمس له من الكلام ما سهل ومن المعنى ما كان واضحاً جلياً

يُعْرَفُ بَدِيًّا. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ: شَرُّ ٱلشِّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ. وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَقُولُ: خَيْرُ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَوْلِيُّ ٱلْمُحَكَّكُ. اَخَذَ فِي ذٰلِكَ بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ اَبِي سُلْمَى وَاَوْسٍ وَطُفَيْلٍ. وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ اَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مُثْنِيًا عَلَى شِعْرِهِ وَاِنَّ فَضِيحَةً ظَاهِرَةً كَانَ غَنِيًّا عَنْهَا. وَكَانَ فِي ٱلْبُحْتُرِيِّ اِعْجَابٌ شَدِيدٌ اِذَا اَنْشَدَ يَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَعْجَبُونَ مَا اَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ. فَاَنْشَدَ ٱلْمُتَوَكِّلَ يَوْمًا قَصِيدَتَهُ:

عَنْ اَيِّ ثَغْرٍ تَبْتَسِمْ   وَبِاَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ

وَاَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَاَى اِعْجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ وَقَالَ:

مِنْ اَيِّ سَلْحٍ تَلْتَقِمْ   وَبِاَيِّ كَفٍّ تَلْتَطِمْ

فَوَلَّى وَهُوَ غَضْبَانُ. فَقَالَ: وَعَلِمْتُ اَنَّكَ تَنْهَزِمْ. فَضَحِكَ ٱلْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَاَعْطَى ٱلصَّيْمَرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَاِنْ كَانَ فَحْلًا حَاذِقًا مُبَرِّزًا مُقَدَّمًا مِنْ فَتْرَةٍ تَعْرِضُ لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْاَوْقَاتِ اِمَّا لِشُغْلٍ طَرَاَ اَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ اَوْ نُبُوِّ طَبْعٍ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ اَوْ ذٰلِكَ ٱلْحِينِ. وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ: تَمُرُّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ اَضْرَاسِي اَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ فَاِذَا تَمَادَى ذٰلِكَ عَلَى ٱلشَّاعِرِ قِيلَ: قَدْ اَصْفَى كَمَا يُقَالُ اَصْفَتِ ٱلدَّجَاجَةُ اِذَا ٱنْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ اَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِلْحَافِرِ ٱلْبِئْرِ اِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ ٱلْاَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ اَجْبَلَ. وَاُفْحِمَ ٱلشَّاعِرُ عَلَى اُفْعِلَ وَقَالُوا: هُوَ مِنْ فَحْمِ ٱلصَّبِيِّ اِذَا ٱنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْبُكَاءِ. فَاِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ اَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتِرٌ. وَقَدْ قِيلَ فِي ٱلذُّبْيَانِيِّ اِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ ٱلْعُيُوبِ لِاَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتِرْ وَاَكْثَرُ مَا جَاءَ ٱلْاِهْتَارُ فِي صِفَةِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ. وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ اِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ اَكْثَرِ ٱلنَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ: «فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ» كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ. وَيُقَالُ اَخْلَى ٱلشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ اَخْلَى ٱلرَّامِي اِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ ٱلْبُحْتُرِيِّ اَنَّهُ قَالَ: فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ ٱلْجَهْمِ فِي ٱلشِّعْرِ وَذِكْرِ اَشْجَعَ ٱلسُّلَمِيِّ فَقَالَ: اِنَّهُ يُخْلِي. فَلَمْ اَفْهَمْهَا وَاَنِفْتُ اَنْ اَسْاَلَهُ عَنْهَا. فَلَمَّا ٱنْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ اَشْجَعَ فَاِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ ٱلْاَبْيَاتُ مَغْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ اِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا ٱلشِّعْرَ

فَتَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَتُنَبِّهُ ٱلْخَوَاطِرَ وَتُلِينُ عَرِيكَةَ ٱلْكَلَامِ وَتُسَهِّلُ طَرِيقَ ٱلْمَعْنَى لِكُلِّ ٱمْرِئٍ بِحَسَبِ تَدْبِيرِ طَبْعِهِ وَٱطِّرَادِ عَادَتِهِ. وَسَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي اَقَاوِيلِ ٱلْعُلَمَاءِ بِمَا اَرْجُو اَنْ يَكُونَ فِيهِ هِدَايَةٌ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى

قَالَ بَكْرُ بْنُ ٱلنَّطَّاحِ ٱلْحَنَفِيُّ: ٱلشِّعْرُ مِثْلُ عَيْنِ ٱلْمَاءِ اِنْ تَرَكْتَهَا نَضَبَتْ وَاِنِ ٱسْتَهْتَنْتَهَا هَتَنَتْ. وَلَيْسَ مُرَادُ بَكْرٍ اَنْ تُسْتَهْتَنَ بِٱلْعَمَلِ وَحْدَهُ لِاَنَّا نَجِدُ ٱلشَّاعِرَ تَكِلُّ قَرِيحَتُهُ مَعَ كَثْرَةِ ٱلْعَمَلِ مِرَارًا وَتَنْزِفُ مَادَّتُهُ وَتَنْفَدُ مَعَانِيهِ فَاِذَا جَمَّ طَبْعُهُ اَيَّامًا وَرُبَّمَا زَمَانًا طَوِيلًا ثُمَّ صَنَعَ ٱلشِّعْرَ جَاءَ بِكُلِّ آبِدَةٍ وَاَتَاهُم بِكُلِّ قَافِيَةٍ شَارِدَةٍ وَفُتِحَ لَهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْاَلْفَاظِ مَا لَوْ رَامَهُ مِنْ قَبْلُ لَاَسْتُغْلِقَ عَلَيْهِ وَاُبْهِمَ دُونَهُ. لٰكِنْ بِٱلْمُذَاكَرَةِ مَرَّةً فَاِنَّهَا تَقْدَحُ زِنَادَ ٱلْخَاطِرِ وَتُفَجِّرُ عُيُونَ ٱلْمَعَانِي وَتُوقِظُ اَبْصَارَ ٱلْفِتْنَةِ وَبِمُطَالَعَةِ ٱلْاَشْعَارِ كَرَّةً فَاِنَّهَا تَبْعَثُ ٱلْحَسَدَ وَتُوَلِّدُ ٱلشَّهْوَةَ. وَسُئِلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ كَيْفَ تَفْعَلُ اِذَا ٱنْقَفَلَ دُونَكَ ٱلشِّعْرُ. فَقَالَ: كَيْفَ يَنْقَفِلُ دُونِي وَعِنْدِي مَفَاتِحُهُ. قِيلَ لَهُ: وَعَنْهُ سَاَلْنَاكَ مَا هُوَ. قَالَ: ٱلْخَلْوُ بِذِكْرِ ٱلْاَحْبَابِ وَلَعَمْرِي اِنَّهُ اِذَا ٱنْفَتَحَ لِلشَّاعِرِ نَسِيبُ ٱلْقَصِيدَةِ فَقَدْ وَلَجَ مِنَ ٱلْبَابِ وَحَطَّ رِجْلَهُ فِي ٱلرِّكَابِ عَلَى اَنَّ ذَا ٱلرُّمَّةِ لَمْ يَكُنْ كَثِيرَ ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَاِنَّمَا كَانَ وَاصِفَ اَطْلَالٍ وَنَادِبَ اَظْعَانٍ وَهُوَ ٱلَّذِي اَخْرَجَهُ مِنْ طَبَقَةِ ٱلْفُحُولِ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ كَيْفَ تَصْنَعُ ٱلشِّعْرَ اِذَا عَسُرَ عَلَيْكَ. قَالَ: اَطُوفُ فِي ٱلرِّيَاضِ ٱلْمُعْشِبَةِ فَيَسْهُلُ عَلَيَّ صَعْبُهُ وَيُسْرِعُ اِلَيَّ

اَحْسَنُهُ. وَقَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ: مَا ٱسْتُدْعِيَ شَارِدُ ٱلشِّعْرِ بِمِثْلِ ٱلْمَاءِ ٱلْجَارِي وَٱلشَّرَفِ ٱلْعَالِي وَٱلْمَكَانِ ٱلْخَالِي. وَقِيلَ ٱلْخَالِي يَعْنِي ٱلرَّوْضَ

وَحَدَّثَنَا بَعْضُ اَصْحَابِنَا مِنْ اَهْلِ ٱلْمَهْدِيَّةِ وَقَدْ مَرَرْنَا بِمَوْضِعٍ بِهَا يُعْرَفُ بِٱلْكَنْدِيَّةِ وَهُوَ اَشْرَفُهَا اَرْضًا وَهَوَاءً. قَالَ: جِئْتُ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ مَرَّةً فَاِذَا عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ عَلَى سَطْحٍ هُنَالِكَ قَدْ كَشَفَ ٱلدُّنْيَا. فَقُلْتُ: اَبَا مُحَمَّدٍ. قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا. قَالَ: اُلَقِّحُ خَاطِرِي وَاَجْلُو نَاظِرِي قُلْتُ: فَهَلْ نَتَجَ لَكَ شَيْءٌ. قَالَ: مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي وَعَيْنُكَ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَاَنْشَدَ شِعْرًا يَدْخُلُ مَسَامَّ ٱلْقُلُوبِ رِقَّةً. قُلْتُ: هٰذَا ٱخْتِيَارٌ مِنْكَ ٱخْتَرَعْتَهُ. قَالَ: بَلْ بِرَاْيِ ٱلْاَصْمَعِيِّ

وَقَالُوا كَانَ جَرِيرٌ اِذَا اَرَادَ اَنْ يُؤَبِّدَ قَصِيدَةً صَنَعَهَا لَيْلًا يُشْعِلُ سِرَاجًا وَيَعْتَزِلُ اَهْلَهُ وَرُبَّمَا عَلَا ٱلسَّطْحَ وَحْدَهُ وَغَطَّى رَاْسَهُ رَغْبَةً فِي ٱلْخَلْوَةِ فِي نَفْسِهِ. فَحُكِيَ اَنَّهُ صَنَعَ ذٰلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَخْزَى بِهَا بَنِي نُمَيْرٍ

وَرُوِيَ اَنَّ ٱلْفَرَزْدَقَ كَانَ اِذَا عَصَتْ عَلَيْهِ صَنْعَةُ ٱلشِّعْرِ رَكِبَ نَاقَةً وَطَافَ وَحْدَهُ مُنْفَرِدًا فِي شِعَابِ ٱلْجِبَالِ وَبُطُونِ ٱلْاَوْدِيَةِ وَٱلْاَمَاكِنِ ٱلْخَالِيَةِ فَيُعْطِيهِ ٱلْكَلَامُ قِيَادَهُ. حُكِيَ ذٰلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلْفَائِيَّةِ: عُرِفْتَ بِاَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْرِفُ

وَذُكِرَ اَنَّ فَتًى مِنَ ٱلْاَنْصَارِ فَاخَرَ بِاَبْيَاتِ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ:

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى

وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَأَنْظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : أَخَاكُمْ أَخَاكُمْ يَا بَنِي لِبَيْنَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجَوْدَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشِّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغِذَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ . فَلِهَذِهِ ٱلْأَسْبَابِ تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ . وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَأَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشُكُّ أَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْأَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ ٱللَّهْوِ أَوِ ٱلْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشْأَةً أُخْرَى وَلِأَنَّ ٱلسَّحَرَ أَلْطَفُ هَوَاءً وَأَرَقُّ نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَآلَةٍ مَرِيضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ . فَأَمَّا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ . قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ : إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا . وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ . حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ : ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ : لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا . قَالَ : لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ . فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ : ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ . ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ . قُلْتُ : كَلَّا . قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللّٰهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ :

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ نَدًى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ . عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ ابي تمّام . واشدّ منها وقعت لمن لا يُتّهم وهو جرير . صنع الفرزدق شعرًا يقول فيه :

فَقُلْتُ انا الموتُ الذي هو ذاهبٌ
بنفسك فانظر كيف انت محاوله

وحلف بالطلاق ان جريرًا لا يغلبه فيه فكان جرير يتمرّغ في الرمضاء ويقول : انا ابو حزرة حتى قال من ابيات له مشهورة :

انا الدهرُ يُفني الموتَ والدهرُ خالدٌ
فجئني بمثل الدهر شيئًا يطاوله

وكان ابو تمام ينصب القافية للبيت ليعلّق الاعجاز بالصدور وذلك هو التصدير في الشعر ولا يأتي به كثيرًا الا شاعر متصنّع كحبيب ونظرائه والصواب ان لا يصنع الشاعر بيتًا لا يعرف قافيته غير اني لا اجد ذلك في طبعي ولا اقدر عليه البتّة بل اصنع القسيم الاوّل على ما اريده ثم التمس في نفسي ما يليق به من القوافي بعد ذلك فابني عليه القسيم الثاني افعل ذلك فيه كما يفعل من يبني البيت كلّه على القافية ولم ار ذلك يتخلّ عليّ ولا يزيحني عن مرادي ولا يغيّر عليّ شيئًا من لفظ القسيم الاوّل الا في الندرة التي لا يُعتدّ بها على وجه التنقيح المفرط

ومن الشعراء من يسبق اليه بيت واثنان وخاطره في غيرهما يجب ان يكون بعد ذلك بابيات وذلك لقوّة طبعه وانبعاث

خاطره . ومنهم من ينصب قافية بعينها للبيت بعينه من الشعر مثل ان تكون ثالثة او رابعة او نحو ذلك لا يعدو بها ذلك الموضع الا انحلّ عليه نظم ابياته وذلك عيّ في الصنعة شديد ونقص بيّن لان الشاعر يصير محصورًا على شيء واحد بعينه مضيّقًا عليه وداخلًا تحت حكم القافية . وكانوا يقولون ليكن الشعر تحت حكمك ولا تكن تحت حكمه

ومنهم من اذا اخذ في صنعة الشعر جمع من القوافي ما يصلح لذلك الوزن الذي هو فيه . ثم اخذ مستعملها وشريفها وما ساعد معانيه ووافقها واطّرح ما سوى ذلك الا انه لا بدّ ان يجمعها ليكرّر فيها نظره ويعيد عليها التخيّر في حين العمل . هذا الذي عليه حذّاق القوم .

ومن الشعراء من اذا جاءه البيت عفوًا انتبه ثم راجع فيه فنقّحه وصفّاه من كدره وذلك اسرع واخفّ عليه واصحّ لنظره واخفّ لباله . وآخر لا يثبته الا بعد احكامه في نفسه وتثقيفه من جميع جهاته وذلك اشرف للهمّة وادلّ على القدر واظهر للكلفة وابعد من السرقة . وسألت شيخًا من شيوخ هذه الصناعة فقلت : ما يعين على الشعر . فقال : زهرة البستان وراحة الحمّام . وقيل : انّ الطعام الطيّب والشراب الطيّب وسماع الغناء يرقّق الطبع ويصفّي المزاج ويعين على الشعر . ولمّا ارادت قريش معارضة القرآن عكف فصحاؤهم الذين تعاطوا ذلك على لباب

اَلْبُرِّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى انْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ . فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا ارْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ. يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا انَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ. وَقِيلَ : مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْعِتَابُ. وَذُكِرَ عَنْ اَبِي ٱلطَّيِّبِ انَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي اَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلْإِنْشَادِ مِنْ اَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا. وَقَالُوا: ٱلْحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْجَمَامِ . وَهٰذَا عِنْدِي انْجَعُ ٱلْاَقْوَالِ وَبِهِ اَقُولُ وَإِلَيْهِ اَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمُزَنِيُّ : لَا تَكُدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْجَمَامِ وَٱشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا ٱمْتُحِنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلْإِسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ اَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ . وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا اَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ : مَا اَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ اَكْرَمُ جَوْهَرًا وَاَشْرَفُ جِنْسًا وَاَحْسَنُ فِي ٱلْاَسْمَاعِ

وَاَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَاَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَاءِ وَاَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ.

وَٱعْلَمْ اَنَّ ذٰلِكَ اَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْاَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَبِٱلتَّكَلُّفِ وَٱلْمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا اَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا اَوْ حَقِيقَةً عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا كَمَاءٍ خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدَنِهِ وَإِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَإِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلْفَاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا اَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اَسْوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ يُلْتَمَسَ إِظْهَارُهُمَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي إِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَإِنَّ اَوَّلَ ٱلثَّلَاثِ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . إِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اَوْ لِلْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ قَصَدْتَ وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرُفُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْخَاصَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَتَّضِعُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ وَإِنَّمَا مَدَارُ ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَإِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ . وَكَذٰلِكَ ٱللَّفْظُ ٱلْعَامِّيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَإِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَٱقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ

الخاصة وتكسوها الالفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تخفى عن الاكفاء فانت البليغ التام فان كانت المنزلة الاولى لا تؤاتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عند اول نظرك في اول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تسنح الى قرارها والى حقها من اماكنها المقسومة لها والقافية لم تحل من مركزها في نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على اغتصاب مكانها والنزول في غير اوطانها فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك احد . فان انت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك بصيرا بما عليك ولك عابك من انت اقل منه عيبا ورأى من هو دونك انه فوقك . فان انت ابتليت بان تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسنح لك الطباع فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك وسواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فربما لا تعدم الاجابة والمؤاتاة ان كان هناك طبيعة او جريت في الصنعة على عرف فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ومن غير طول اهمال فالمنزلة الثالثة ان تتحول عن هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك واخفها عليك

الا ان النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها عند الرهبة كما تجود به مع الشهوة والمحبة . وقال بعض اهل

الادب : حسب الشاعر عونا على صناعته ان يجمع خاطره بعد ان يخلي قلبه من فضول الانفعال ويدع الامتلاء من الطعام والشراب ثم يأخذ فيما يريد . وافضل ما استعان به الشاعر غنى او فضل طمع والفقر آفة الشعر وانما ذلك لان الشاعر اذا صنع القصيدة وهو في غنى ووسعة نقحها وامعن النظر فيها على مهل واذا كان مع ذلك طمع غني قوى انبعاثها من ينبوعها وجاءت الرغبة فيها في نهايتها محكمة . واذا كان فقيرا مضطرا رضي بعفو الكلام واخذ ما امكنه من نتيجة خاطر ولم يتتبع في بلوغ مراده ولا بلغ مجهود نعته لما يحفزه من الحاجة والضرورة فجاء دون عادته في سائر اشعاره وربما قصر عن دونه بكثير . ومنهم من تحمي الحاجة خاطره وتبعث قريحته فيجود فاذا اوسع انف وصعب عليه عمل الابيات اليسيرة فضلا عن الكثيرة والعادة في هذه الاشياء فعل عظيم وهي طبيعة خامسة كما قيل فيها

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اختلف اهل المعرفة في المقاطع والمطالع . فقال بعضهم : هي الفصول والوصول بعينها . فالمقاطع اواخر الفصول والمطالع اوائل الوصول . والفصل آخر جزء من القسم الاول كما قدمت

وَهُوَ ٱلعَرُوضُ أيضاً . وَٱلْوُصُولُ اوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ٱلمَقَاطِعُ مُنقَطَعُ ٱلأَبيَاتِ وَهِيَ ٱلقَوَافِي وَٱلمَطَالِعُ اوَائِلُ ٱلأَبيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ انْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ فِي ٱلبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ اوْ شَبِيهٍ بِهِ اوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهٰذِهِ ٱلعِبَارَةِ إِلَى ٱلمَقَاطِعِ اوْ آخِرِ اجْزَاءِ ٱلبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلجَلِيلِ وَإِعْطَاءُ ٱلجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ احَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ ٱللَّامُ ٱلمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ امَاكِنَ مِنْهُ وَآخِرُ ٱلأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱليَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللَّامِ . اَللّٰهُمَّ إِلَّا انْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱليَاءَ ٱلمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى انَّا لَا نَعْلَمُ حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا فِي انْوَاعِ ٱلأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ انَّ ٱلمَقْطَعَ وَٱلمَطْلَعَ اوَّلُ ٱلقَصِيدَةِ وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلمَطَالِعِ . وَلَا يَقُولُونَ ٱلمَقْطَعِ وَٱلمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ ٱلقَصِيدَةَ إِنَّمَا لَهَا اوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا اوَائِلُ وَاوَاخِرُ إِلَّا عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلأَبيَاتِ اوِ ٱلأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَسَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ ابَا عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلسَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ : ٱلمَقَاطِعُ اوَاخِرُ ٱلأَبيَاتِ وَٱلمَطَالِعُ اوَائِلُهَا . قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : حَسَنُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدُ ٱلمَطَالِعِ انْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ ٱلبَيْتِ وَهُوَ ٱلقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ . وَٱلمَطْلَعُ هُوَ اوَّلُ ٱلبَيْتِ وَجُودَتُهُ انْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَٱلتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ . وَرَوَى ٱلجَاحِظُ انَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ : ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَانَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ . وَحَظُّ جُودَةِ ٱلقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً ارْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ ٱلبَيْتِ اوِ ٱلقَصِيدَةِ . حَكَاهُ ٱلجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى انَّ ٱلمَقْطَعَ آخِرُ ٱلبَيْتِ اوِ ٱلقَصِيدَةِ وَهُوَ بِٱلبَيْتِ الْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ ٱلقَافِيَةِ

وَحُكِيَ ايضاً عَنْ صَدِيقٍ لَهُ انَّهُ قَالَ لِلعَتَّابِيِّ مَا ٱلبَلَاغَةُ . فَقَالَ : كُلُّ كَلَامٍ افْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ . قَالَ : قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ ٱلإِعَادَةَ وَٱلحُبْسَةَ فَمَا ٱلِٱسْتِعَانَةُ فَقَالَ : امَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا ٱسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَالَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلكِتَابِ وَهٰذَا ٱلقَوْلُ مِنَ ٱلعَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى انَّ ٱلمَقَاطِعَ اوَاخِرُ ٱلفُصُولِ . وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ ٱلجَاحِظُ عَنِ ٱلمَأْمُونِ انَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللّٰهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مقاطع كلامي . واذا جعل المقطع والمطلع مصدرين بمعنى القطع والطلوع كانت الطاء واللام مفتوحتين واذا اريد موضع القطع والطلوع كسرت اللام خاصة وهو مسموع على غير القياس

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر لقد طار اسمك واشتهر فقال لاني اقللت الحق واصبت مقاصد الكلام وقرّطت نكت الاغراض بحرّ الفواتح والخواتم ولطف الخروج الى المدح والهجاء وقد صدق لان حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح ولطافة الخروج الى المدح سبب ارتياح الممدوح وخاتمة الكلام ابقى في السمع والصق بالنفس لقرب العهد بها فان حسنت حسن وان قبحت قبح والاعمال بخواتمها . وينبغي للشاعر ان يجوّد ابتداء شعره فانه اول ما يقرع السمع وبه يستدل على ما عنده من اول وهلة . وقد اختار الناس كثيرا من الابتداءات ساذكر هنا ما امكن منها ليستدل به نحو قول امرئ القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وهو عندهم افضل ابتداء قاله شاعر لانه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد . وقوله « الا عم صباحا ايها الطلل البالي » ومثله

قول القطامي « انا محيوك فاسلم ايها الطلل » وكقول النابغة :

كليني لهمّ يا اميمة ناصب ... وليل اقاسيه بطيء الكواكب

وقوله :

كتمتك ليلا بالجمومين ساهرا ... وهمّين همّا مستكنا وظاهرا

هذا بعض ما اختير للقدماء ومما اختير في الرثاء قول اوس ابن حجر :

ايتها النفس اجملي جزعا ... ان الذي تحذرين قد وقعا

ومما اختير للمحدثين قول بشار بن برد « ابى طلل بالجزع ان يتكلما » وهو عندهم افضل ابتداء قاله محدث . وقول ابي نواس :

لمن دمن تزداد طيب نسيم ... على [illegible] ما اقوت وحسن رسوم

وقوله :

رسم الكرى بين الجفون محيل ... عفّى عليه بكا عليك طويل

وقوله :

اعطتك ريحانها العقار ... وحان من ليلنا انسفار

وقوله :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء

ومما اشبه ذلك لو تقصيته لطال وكثر . وليرغب عن التعقيد في الابتداء فانه اول العي ودليل الفهه . وقد حكي ان دعبل

ابن علي الخزاعي ورد حمص فقصد دار عبد السلام بن رغبان ديك الجن فكتم نفسه عنه خوفا من قوارصه فقال : ما له يستتر وهو اشعر الجن والانس اليس القائل :

بها غير معدول فدا وخمارها ... وهل بعشيات الغبوق ابتكارها

فظهر اليه واعتذر اليه واحسن . ثم تناشدا فانشد ديك الجن ابتداء قصيدة :

كانها ما كانه خلل الخلة ... وقف الهلوك ان بغما

فقال له دعبل : اسكت فوالله ما ظننتك تتم البيت الا وقد غشي عليك او تشككت دماغك وكانك في جهنم تخاطب الزبانية او تخبطك الشيطان من المس . وانما اراد الديك ان يهول عليه ويقرع سمعه عسى ان يزعجه او يروعه فسمع منه ما كره . ولعمري ما ظلمه دعبل ولقد ابعد مسافة الكلام وخالف العادة وهذا بيت قبيح من جهات منها اضمار ما لم يذكر قبل ولا جرت العادة بمثله فيعذر ولا كثر استعماله فيشهر مع احالة التشبيه على تشبيه ثقل تجانسه الذي هو حشو فارغ لو طرح من البيت كان اخزم واستدعى قافية لا لشيء الا لفساد المعنى واستحالة التشبيه ما الذي يريد ببغامه في تشبيه الوقف وهو السوار ولم كان وقف الهلوك خاصة . ومثله قول محمد بن عبد الملك الزيات يصف ناقته في اول قصيدة مدح بها الحسن بن سهل :

كانها حين تناءى خطوها ... اجش موشي الشوى يرعى القلل

فالبيت الاول في مخالفة العادة لازم ومع ذلك قوله « حين تناءى خطوها » فقصر بها وهو يقدر ان يقول « حين تدانى خطوها » وخالف جميع الشعراء بذلك لانهم يصفون الناقة بالظليم والحمار والثور بعد الكلال غلوا ومبالغة في الوصف . هذا هو الجيد فان لم يفعلوا لم يذكروا انها بذلت جهدها واستفرغت جميع ما عندها بل يدعون التاويل محتمل الزيادة . ثم قال « ترعى القلل » والثور لا يرعى قلل الجبال وانما ذلك الوعل لانه لا يسهل والثور في السهول ومواضع الرمال الا ان يريد بالنبات اعاليه فربما ان يكون القلل نبتا بعينه او مكانا فقد يمكن وما سمعت بهما

ومن الشعراء من يقطع المصراع الثاني من الاول اذا ابتدا شعرا واكثر ما يقع ذلك في النسيب كانه يدل بذلك على وله وشدة حال كقول ابي الطيب :

جللا كما بي فليك التبريح ... اغذاء ذا الرشا الاغن الشيح

فهذا اعتذار من اعتذر له لو وقع مثل هذا في الرثاء والتفجع لكان موضعه ايضا وكذلك عند العظائم من الامور والنوازل الشديدة . وليحترس مما يناله فيه زيادة او يقع عليه مطعن فان ابا تمام امتدح ابا دلف بحضرة من كان يكرهه وافتتح قصيدته المشهورة « على مثلها من اربع وملاعب » وكانت فيه حبسة شديدة . فقال الرجل لعنه الله والملائكة والناس اجمعون .

فدهش ابو تمّام حتى تبيّن ذلك عليه على انه غير مأخوذ بما قيل ولا هو مما يدخل عليه عيبا. ولا يلزمه على الحقيقة الّا انّ الحوطة والتحفظ من الحجة الباردة افضل والتفريط ارذل واخبث.

ودخل جرير على عبد الملك بن مروان وانشده «اتصحو ام فؤادك غير صاحي» فقال له عبد الملك: بل فؤادك يا ابن الفاعلة كأنّه يستثقل هذه المواجهة والّا فقد علم انّ الشاعر انّما خاطب نفسه ومن هذه الجهة بعينها عابوا على ابي الطيّب قوله لكافور اوّل لقائه مبتدئا وان كان انّما يخاطب نفسه لا كافورا:

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكنّ امانيا

فالعيب من باب التأدّب وحسن السياسة لازم لابي الطيّب في هذا الابتداء لاسيّما وهذا النوع اعني جودة الابتداء من اجلّ محاسن ابي الطيّب واشرف مآثر شعره اذا ذكر الشعر.

ودخل ذو الرمّة على عبد الملك بن مروان فاستنشده شيئا من شعره فانشده «ما بال عينك منها الماء ينسكب» وكان بعين عبد الملك ريشة فهي تدمع فتوهّم انّه خاطبه او عرّض به فقال: وما سؤالك يا جاهل عن هذا ومقته وامر باخراجه وكذلك فعل ابنه هشام بابي النجم وقد انشده في ارجوزة:

صفراء قد كادت ولمّا تفعل   فكأنّها في الافق عين الاحول

وكان هشام احول فامر فحجب عنه مدّة وقد كان قبل

ذلك من خاصّته يسمر عنده وهو يمازحه وانّما يأتي الشاعر بهذه الاشياء امّا من غفلة في الطبع او من استغراق في الصنعة وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول حيث ذهب. والفطن الحاذق يختار للاوقات ما يشاكلها وينظر في احوال المخاطبين فيقصد محابّهم ويميل الى شهواتهم وان خالفت شهواته ويتفقّد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره. الا ترى انّ بعض الملوك قال لاحد الشعراء وقد اورد بيتا ذكر فيه «لو خلد احد لكرم، لكنت مخلّدا بكرمك» وقال كلاما نحو هذا. فقال الملك: انّ الموت حقّ ولنا منه نصيب. غير انّ الملوك تكره ما ينكّد عيشها وينغّص لذّتها فلا تأتها بشيء ممّا تكره ذكره

ومن المشهور انّ النعمان بن المنذر اتى شجرة ظليلة ملتفّة الاغصان في مرج حسن كثير الشقائق وكان معجبا بها واليه اضيفت فقيل شقائق النعمان. فنزل فامر بالطعام والشراب فاحضرا وجلس للذّته. فقال عديّ بن زيد العباديّ وكان كاتبه: اتعرف ابيت اللعن ما تقول هذه الشجرة. قال: وما تقول. قال تقول:

ربّ ركب قد اناخوا حولنا   يشربون الخمر بالماء الزلال
عطف الدهر عليهم فثووا   وكذاك الدهر حال بعد حال
من رآنا فليوطّن نفسه   انّما الدنيا على فرط الزوال

كأنّه قصد موعظته فنغّص عليه ما كان فيه وامر بالطعام

وَالشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَارْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ الْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ اكْثَرَ النَّاسُ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ الْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا: عِشْ ابَدًا وَاسْلَمْ مَدَى الدَّهْرِ وَابْقَ بَقَاءَ الزَّمَانِ . وَاعْتَرَضَ النُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَاخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ ابِي نُوَاسٍ :

يَا امِينَ اللّٰهِ عِشْ ابَدًا دُمْ عَلَى الْايَّامِ وَالزَّمَنِ
انْتَ تَبْقَى وَالْفَنَاءُ لَنَا فَاِذَا افْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَاِذَا خَرَجَ الْكَلَامُ عَنْ حَدِّ الْامْكَانِ فَانَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ الْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِابِي نُوَاسٍ الَّذِي اسَاءَ فِيهِ ادَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ انَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا اسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَانْتَقَلَ اِلَيْهَا . فَصَنَعَ ابُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ الْحِينِ اوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ اوَّلَهَا :

ارْبَعِ الْبِلَى اِنَّ الْخُشُوعَ لَبَادِ عَلَيْكَ وَاِنِّي لَمْ اخُنْكَ وِدَادِي

وَخَتَمَهَا اوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا اِذَا مَا فُقِدْتُمُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ الْبَرْمَكِيُّ وَاشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ اِلَيْنَا انْفُسَنَا يَا ابَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ اِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى اوْقَعَ بِهِمِ الرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ الطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ انَّ ابَا نُوَاسٍ قَصَدَ التَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا اظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِانَّ هٰذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

الَّذِي لَا اشُكُّ انْ يُحْتَفَلَ لَهُ . اللّٰهُمَّ اِلَّا انْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ اِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي افْتِتَاحِ الْقَصَائِدِ بِالنَّسِيبِ اِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ الْقُلُوبِ وَاسْتِدْعَاءُ الْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي الطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ الْغَزَلِ وَالْمَيْلِ اِلَى اللَّهْوِ فَاِنَّ ذٰلِكَ اسْتِدْرَاجٌ اِلَى مَا بَعْدَهُ . وَمَقَاصِدُ النَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ اهْلِ الْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ الرَّحِيلِ وَالِانْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ الْبَيْنِ وَالْاشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ الطُّلُولِ وَالْحُمُولِ وَالْاِبِلِ وَلَمْعِ الْبَرْقِ وَمَرِّ النَّسِيمِ وَذِكْرُ الْمِيَاهِ الَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَالرِّيَاضِ الَّتِي مِنْ خُزَامَى وَاُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا اشْبَهَهُ مِنْ زَهْرِ الْبَرِّيَّةِ . وَاهْلُ الْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي الصُّدُودِ وَالْهِجْرَانِ وَالرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ الْحَرَسِ وَالْابْوَابِ وَفِي ذِكْرِ الشَّرَابِ وَالنَّدَامَى وَالنَّسْرِينِ وَالنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ النَّوَاوِيرِ الْبَلَدِيَّةِ وَالرَّيَاحِينِ الْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ التُّفَّاحِ وَالتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ الْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَالْعَادَةُ انْ يَذْكُرَ الشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ الْمَفَاوِزِ وَمَا انْضَى مِنَ الرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ اللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ النَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ الْمَاءِ وَغُؤُورِهِ . ثُمَّ يَخْرُجَ اِلَى مَدْحِ الْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ الْقَصْدِ وَذِمَامَ الْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ الْمُكَافَاةَ . وَكَانُوا قَدِيمًا اصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ اِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ اوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ اشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ الدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَابْنِيَةِ الْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ الْحَضَرِيِّ الدِّيَارَ اِلَّا مَجَازًا لِانَّ الْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَنحُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلْمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي ‏ ‏ ‏ ‏ بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ ‏ ‏ ‏ ‏ يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلْإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلْعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِٱلْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلْبَرِيدِ وَٱلْفُرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْإِبِلِ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ
عَلَى هَزِجٍ وَاهِي ٱلْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا
عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ
بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا
إِذَا زُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا
مَشَى ٱلْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْبَرْبَرِيَّةُ تُهَلَّبُ أَذْنَابُهَا كَٱلْبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلْبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلْمَلِكِ . وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا:

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا بِبُرْدِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ سَفْوَاءُ تَرْدِي بِنَسِيجِ وَحْدِهِ
تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

إِلَّا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هٰذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ أَنَّهُ قَصَدَ ٱلْمَمْدُوحَ رَاجِلًا إِمَّا إِخْبَارًا بِٱلصِّدْقِ وَإِمَّا تَعَاطِيَ صَعْلَكَةٍ . قَالَ أَبُو نُوَاسٍ لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

إِلَيْكَ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
عَلَيْهَا ٱمْتَطَيْنَا ٱلْحَضْرَمِيَّ ٱلْمُلَسَّنَا
قَلَائِصُ لَمْ تَعْرِفْ خَبِيثًا عَلَى طَلًا
وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ ٱلْفَنِيقِ وَلَا ٱلْهِنَا

فَذَكَرَ أَنَّ قَلَائِصَهُمُ ٱلَّتِي ٱمْتَطَوْا إِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِٱلنِّعَالِ وَأَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ ٱللُّغْزِ وَٱتَّبَعَهُ أَبُو ٱلطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحْمِلُ ٱلرَّدِيفَ وَلَا ‏ ‏ ‏ ‏ بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا ‏ ‏ ‏ ‏ زِمَامُهَا وَٱلشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً أُخْرَى فِي مِثْلِ ذٰلِكَ يَتَشَكَّى:

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي ‏ ‏ ‏ ‏ تَعْجِزُ عَنْهُ ٱلْعَرَامِسُ ٱلذُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ فَإِنَّ أَبَا نُوَاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو ٱلطَّيِّبِ لٰكِنْ أَرَادَ أَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحْتَذِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ أَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْحَضْرَمِيُّ مِنَ ٱلْجُلُودِ مَخْصُوصًا بِهِ ٱلْمُسَافِرُ دُونَ ٱلْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ ٱلْكَلَامِ أَنَّ مَقْصَدَ ٱلشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ ٱلْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وكان يؤثرها على الابل لما يقوم في نفسه من التهيب بذكر الخيل وتعاطي الشجاعة . فقال يذكر قدومه الى مصر على خوف من سيف الدولة :

ويوم كليل العاشقين كمنته
اراقب فيه الشمس ايان تغرب
وعيني الى اذني اغر كانه
من الليل باق بين عينيه كوكب

وليس من عادة بلدنا خاصة شيء من هذا كله الا ما يعد قلة فالواجب اجتنابه الا ما كان منه حقيقة لا سيما اذا كان المادح من سكان بلد الممدوح يراه في اكثر اوقاته فما اقبح ذكر الناقة والفلاة

ومن الشعراء من يهجم على ما يريده مكافحة وذلك عندهم هو الوثب والبتر والقطع والكسع والاقتضاب كل ذلك يقال والقصيدة اذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء وهي التي لا يبتدأ فيها بحمد الله على عادتهم في الخطب كما قال ابو الطيب « اذا كان مدح فالنسيب المقدم » فانكروا النسيب وزعموا ان اول من فتح هذا الباب وفتق هذا المعنى ابو نواس بقوله « لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند » وقوله عند الخاتمي فيما روى بعض اشياخه افضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين :

اعر شعرك الاطلال والمنزل القفرا
فقد طال ما ان رابه نعتك الخمرا
دعاني الى نعت الطلول مسلط
يضيق ذراعي ان ارد له امرا
فسمعا امير المؤمنين وطاعة
وان كنت قد جشمتني مركبا وعرا

فجاء هو بان وصف الاطلال والقفر انما هو من خشية الامام والا فهو عنده فراغ وجهل . وان في اللسان وكثرة ولوعه بالشيء لشاهدا عدلا لا ترد شهادته وقد قال ابو تمام « لسان المرء من خدم الفؤادا » ومن عيوب هذا الباب ان يكون النسيب كثيرا والمديح قليلا كما يصنع بعض اهل وقتنا

ومن الشعراء من لا يجيد الابتداء ولا يتكلف له ثم يجيد باقي القصيدة واكثرهم فعلا لذلك البحتري كان يصنع الابتداء سهلا ويأتي به عفوا وكلما تمادى قوي كلامه وله من جيد الابتداآت كثير لكثرة شعره والغالب عليه ما قدمت غير ان القاضي الجرجاني فضل بجودة الاستهلال وهو الابتداء على ابي تمام وابي الطيب وقد فضلهما بالخروج والخاتمة ولست ارى لذلك وجها الا كثرة شعره كما قدمت فانه لو حاسبهما ابتداء جيدا بابتداء لاربى وقصرا عن عدده

واما الخاتمي فانه يغض من ابي عبادة غضا شديدا ويجور

عَلَيهِ جوزًا بَيتًا لا يُقبَلُ مِنهُ وَلا يُسلَّمُ إِلَيهِ . وَكانَ أَبو تَمّامٍ فَخمَ الإِبتِداءِ لَهُ رَوعَةٌ وَعَلَيهِ أُبَّهَةٌ كَقَولِهِ :

الحَقُّ أَبلَجُ وَالسُّيوفُ عَوارٍ — فَحَذارِ مِن أَسَدِ العَرينِ حَذارِ

وَقَولِهِ أَيضًا :

السَّيفُ أَصدَقُ إِنباءً مِنَ الكُتُبِ — فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ

وَقَولِهِ « يا رَبعُ لَو رَبَعوا عَلى ابنِ هُمومِ » وَالغالِبُ تَحتَ اللَّفظِ وَجَهارَةُ الإِبتِداءِ

وَكانَ أَبو القاسِمِ الحَسَنُ بنُ بِشرٍ الآمِدِيُّ يُفَضِّلُ ابتِداآتِ البُحتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذي وَضَعَ كِتابَ المُوازَنَةِ وَالتَّرجيحِ بَينَ الطّائِيَّينِ وَنَوَّهَ فيهِ بِالبُحتُرِيِّ أَعظَمَ تَنويهٍ وَمِن جَيِّدِ ابتِداآتِهِ قَولُهُ :

عارَضنَنا أُصُلًا فَقُلنا الرَّبرَبُ — حَتّى أَضاءَ الأُقحُوانُ الأَشنَبُ

وَقَولُهُ « ضَمانٌ عَلى عَينَيكَ أَنّي لا أَسلو » وَقَولُهُ « نَرى عِندَهُم عِلمًا بِشَجوي وَأَدمُعي » فَأَمّا الخُروجُ فَهُوَ عِندَهُم شَبيهٌ بِالاستِطرادِ وَلَيسَ بِهِ لِأَنَّ الخُروجَ إِنَّما هُوَ أَن تَخرُجَ مِن نَسيبٍ إِلى مَدحٍ أَو غَيرِهِ بِلُطفِ تَحَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمادى فيما خَرَجتَ إِلَيهِ كَقَولِ أَبي عِبادَةَ البُحتُرِيِّ :

سُقِيَت رُباكَ بِكُلِّ غَيثٍ جاعِلٍ — مِن وَبلِهِ حَقًّا لَها مَعلوما

وَلَوَ انَّني أُعطيتُ فيهِنَّ المُنى — لَسَقَيتُهُنَّ بِكَفِّ إِبرَهيما

وَأَكثَرُ النّاسِ استِعمالًا لِهذا الفَنِّ أَبو الطَّيِّبِ فَإِنَّهُ ما يَكادُ يَشِذُّ عَنهُ حَتّى رُبَّما قَبُحَ سُقوطُهُ فيهِ نَحوَ قَولِهِ :

ها فَانظُري أَو فَظُنّي بي تَرَي حُرَقًا — مَن لَم يَذُق طَرَفًا مِنها فَقَد وَأَلا

عَلَّ الأَميرَ يَرى ذُلّي فَيَشفَعَ لي — إِلى الَّتي تَرَكَتني فِي الهَوى مَثَلا

فَقَد تَمَنّى أَن يَكونَ الأَميرُ لَهُ قَوّادًا وَلَيسَ هذا مِن قَولِ أَبي نُواسٍ :

سَأَشكو إِلى الفَضلِ بنِ يَحيى بنِ خالِدٍ — هَواكِ لَعَلَّ الفَضلَ يَجمَعُ بَينَنا

في شَيءٍ لِأَنَّ أَبا نُواسٍ قالَ : يَجمَعُ بَينَنا ثُمَّ أَتبَعَ ذلِكَ ذِكرَ المالِ وَالسَّحابَةِ فَقالَ :

أَميرٌ رَأَيتُ المالَ في نَقِماتِهِ — ذَليلًا مَهينَ النَّفسِ بِالضَّيمِ موقِنا

وَكَأَنَّهُ أَشارَ إِلى أَنَّ جَمعَهُ بَينَهُما بِالمالِ خاصَّةً يَفضُلُ عَلَيهِ وَيُجزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُها أَو يَتَسَرّاها . وَأَبو الطَّيِّبِ قالَ لِيَشفَعَ وَالشَّفاعَةُ رَغبَةٌ وَسُؤالٌ . ثُمَّ أَتبَعَ بَيتَهُ بِما هُوَ مُقَوٍّ لِمَعناهُ فِي القِيادَةِ فَقالَ :

أَيقَنتُ أَنَّ سَعيدًا طالِبٌ بِدَمي — لَمّا بَصُرتُ بِهِ بِالرُّمحِ مُعتَقِلا

فَدَلَّ عَلى أَنَّهُ يَشفَعُ فَإِن أُجيبَ إِلى مُساعَدَةِ أَبي الطَّيِّبِ فَذاكَ وَإِلّا رَجَعَ إِلى القَهرِ وَالَّذي يُشاكِلُ قَولَ أَبي نُواسٍ قَولُهُ :

أُحِبُّ الَّذي فِي البَدرِ مِنهُ مُشابِهٌ — وَأَشكو إِلى مَن لا يُصابُ لَهُ شَكلُ

فلفظة الشكوى تحمل عنه كما حملت عن ابي نواس

واولى الشعر بان يسمى تخلصا ما تخلص فيه الشاعر عن معنى الى معنى ثم عاد الى الاول واخذ في غيره ثم رجع الى ما كان فيه كقول النابغة الذبياني آخر نسيب قصيدة اعتذر بها الى النعمان :

فكفكفت مني عبرة فرددتها … على النحر منها مستهل ودامع

على حين عاتبت المشيب على الصبى … وقلت ألمّا اصح والشيب وازع

ثم تخلص الى الاعتذار فقال :

ولكن همّا دون ذلك داخلا … مكان الشغاف تبتغيه الاصابع

وعيد ابي قابوس في غير كنهه … اتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عند ما سمع منه ذلك فقال :

فبتّ كأني ساورتني ضئيلة … من الرقش في انيابها السم ناقع

يسهّد من ليل التمام سليمها … لحلي النساء في يديه قعاقع

فوصف الحية والسليم الذي شبه نفسه به ما شاء ثم تخلص من الذي كان فيه فقال :

اتاني ابيت اللعن انك لمتني … وتلك التي تستك منها المسامع

ثم اطّرد له القول ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة وهو ما اشرت اليه غير خاف ان شاء الله تعالى . وقد

يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط التشبيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ثم يعود بعد ذلك الى ما كان فيه من النسيب ثم يرجع الى المدح كما فعل ومن قول ابي تمام بمدحه الذي تمادى فيه منقطعا وذلك في وسط النسيب من قصيدة :

لا والذي هو عالم ان النوى … مرّ وان ابا الحسين كريم

ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت … نفسي على الف سواك تحوم

ثم قال بعد ذلك :

بمحمد بن الهيثم بن شبانة … مجد الى جنب السماك مقيم

ويسمى هذا النوع الالمام . وكانت العرب لا تذهب هذه المذاهب في الخروج الى المدح بل يقولون بعد فراغهم من نعت الابل وذكر القفار وما هم بسبيله دع ذا وعد عن ذا ويأخذون فيما يريدون او يأتون بانّ المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه واذا لم يكن خروج الشاعر الى المدح متصلا بما قبله ولا منفصلا بقوله : دع ذا وعد عن ذا ونحو ذلك سمي طفرا وانقطاعا . وكان البحتري كثيرا ما يأتي به كقوله :

لولا الرجاء لمتّ من الم الهوى … لكن قلبي بالرجاء موكّل

انّ الرعية لم تزل في سيرة … محمودة مذ ساسها المتوكل

وَرُبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْمَفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى نَزَلْتُ بِفِنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . وَأَمَّا ٱلِٱنْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا لَا يُمْكِنُ ٱلزِّيَادَةُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ أَحْسَنُ مِنْهُ . وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ ٱلشِّعْرِ مِفْتَاحًا لَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ أَرْبَى أَبُو ٱلطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةِ هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا عَقَّدَ أَوَائِلَ ٱلْأَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَإِغْرَابًا عَلَى ٱلنَّاسِ كَقَوْلِهِ أَوَّلَ قَصِيدَةٍ :

وَفَاؤُكُمَا كَٱلرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ   بِأَنْ تُسْعِدَا وَٱلدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

فَإِنَّ هٰذَا يَحْتَاجُ ٱلْأَصْمَعِيُّ إِلَى أَنْ يُفَسِّرَ مَعْنَاهُ . وَيَقَعُ لَهُ فِي ٱلْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى بِهِ وَأَشْعَرُ لَهُ وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ ٱلْإِغْرَابِ فِي بَابِ ٱلتَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ وَٱلتَّشْنِيعِ ٱلْمُتَكَلَّفِ نَحْوَ قَوْلِهِ :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ   ثَبِيرًا وَٱبْنُ إِبْرٰهِيمَ رِيعَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْبَشَاعَةِ وَمِنَ ٱلشَّنَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ . وَمَا أَظُنُّهُ سَرَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفَ إِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ أَوْرَدَهَا أَبُو ٱلْعَنْبَسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَزَعَمَ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ رَجُلًا نَامَ فَجَرَّهُ ٱلنَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ . وَقَدْ جَعَلَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ مَكَانَ ٱلرَّجُلِ جَبَلًا وَإِنْ عَلِمْنَا ٱلْإِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ . وَقَالَ أَيْضًا :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي ٱلدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ   وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي ٱلزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَحْرٌ أَبُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ   عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ أَبُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ . وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي أَخْذِ ٱلْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلَّقَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ :

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً   بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ . وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعْفِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ   وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلِ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ « لَا صَبَّحَ ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ » وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ « إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا » وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ « لَا مَسَّى ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ » ثُمَّ يَقُولُ « إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا » وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ

فِهْرِس

المقالات

اصلاح غلط وقع في بعض النسخ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٢	٥	الجدِلِ	الجدَلِ
٠٠	١٤	الجذَلِ	الجدَلِ
٤	١١	كالحالّ	كالحالِ
٠٠	١٤	كلُّ	كلَّ
٥	١٣	يُثبتُ	يُثبتَ
٣١	٠٤	استبْهِمَ الكَلَامَ	استبْهِمَ الكلامُ
٣٦	١٩	يُقْنِعُ	يُقنِعَ
٤٣	١١	من كتاب الدنيا	من كتاب ادب الدنيا
٤٤	١١	فانْ	فانَّ
٤٨	٠٤	بنْ عَتَبَةَ بنْ	بن عَتَبَةَ بنِ
٠٠	٦و٧و٨	وَهُوَ	وَهوَ
٥٤	١٧	جُلّها ودُقّها	جلها ودِقها
٥٦	٠٨	ألتي	أمّا التي
٥٧	١٧	ألاكترات	الإكترات
٥٨	٠٨	يَخلَم	يعلَّم
٥٩	١٤	والتشرر	والتَّشدُّدِ
٦٢	٠٧	والتَّقصيرِ	والتَّقصيرُ
٠٠	٠٨	وقصد	وقصدُ
٦٣	٠٣	والسخيف	السَّخيف
٧٠	٠٣	والطَّيش	والطَّيشُ
٧١	٠٥	يستودعَ	يستودعُ
٨٣	٠٣	الحروب وفي مجالسَةِ	الحروب مجالسةِ
٨٦	٠٧	كثيرةَ	كثيرةٌ
٩٠	٠٧	الشعبُ	الشعث
١٠٢	١٢	مقدمتِه	مقدَمَتيهِ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٠٦	٠٩	من فلانِ الملكَ	من فلانٍ الملكَ
١١٩	٠٥	اَلتَّكرارِ	والتكرار
١٢٢	٠٣	الفاظك	الفاظَك
١٢٤	٠٧	اَلسَّكُونيِّ	السَّكُونيِّ
١٢٦	٠٣	من رسالة	من رسالة لابي هلال العسكريّ
١٢٨	٠٧	لِحاقِهِ	لَحاقِهِ
١٤٤	١٦	وَغَيْرُ ذَلكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلَهُ	وغيرَ..... يستعملُهُ
١٤٦	٠٤	وبالنقصانِ	بالنقصانَ
١٥٢	١٠	والجَسدانية	والجُسدانية
١٥٧	٠٣	والملاكرة	والملاكزة
٠٠٠	١٩	ويجاورهم	ويجاوزهم
١٦٠	٠٨	طلبهُ	طلبَهُ
١٦٦	٢٠	إنّها	آنَّها
١٨٠	٠٤	يَسَرُّ	يُسَرُّ
١٨١	٠٢	ايثارِ	ايثار
١٨٣	١١	فالذُّكرانُ	فالذُّكران
١٨٤	١٢	واحدُ	واحَدُ
٢١١	١٤	والتبرّوء	والتبرُّوء
٢١٢	١١	ألاحسنُ منها	اَلاَحسن فيها
٠٠٠	٠٠	وتعتبرَ	وتعتبرُ
٠٠٠	١٣	لَقبِ	لَقَب
٠٠٠	١٤	المطّلعُ	المطّلَعُ
٢١٤	١١	واشتقاقا الارتجال والبديهة	الارتجال والبديهة
٠٠٠	١٧	بتقفيه	بتَقْفِيَةٍ
٢١٥	٢٠	ابا دَاوُدَ	آبا دُؤَادٍ
٢١٦	٠٠	الخِطابَة	الخَطابَة
٠٠٠	٠٦	بومون	يرمون

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٠٠٠	١٨	أَلَفتَ	أُلفتْ
٢١٧	٠٩	لتشميم	لَتَسميم
٢١٨	١٥	تَلكأتَ	تَلَكُّوءَ
٢٢١	٠٧	ضُرِبَ	ضَرَبَ
٢٢٣	١٥	دَوْدَ	ذَوْدَ
٢٢٤	٠١	والفوذ	والفوز
٢٣١	١٨	ومعانيهِ	بِمَعانيهِ
٢٣٣	٠٤	والذي	الذي
٢٣٦	١٥	ومِن	ومِمَّن
٠٠٠	١٦	باهلةِ	باهلةَ
٢٣٨	٠٦	وذكر	وذكر بعضهم
٠٠٠	٠٠	ثَمامَة	ثُمامَة
٢٤٧	٠١	البحث الثاني	البحث الثالث
٢٤٩	١١	البحث الثالث	البحث الرابع
٢٥٣	٠١	البحث الرابع	البحث الخامس
٢٥٨	٠١	البحث الخامس	البحث السادس
٢٦٦	٠١	البحث السادس	البحث السابع
٢٨٣	١٤	طاهرةً	ظاهرةً
٢٨٤	١٤	البحث السابع	البحث الثامن
٢٨٦	١٠	وطاهرٌ	وظاهرٌ
٠٠٠	١٠	المرحمة	المرخمة
٢٩٤	٠١	البحث الثامن	البحث التاسع
٢٩٥	١٣	البحث التاسع	البحث العاشر
٢٩٦	١٣	البحث العاشر	البحث الحادي عشر
٣٠٣	١٨	الضِّليلُ	الضَّلِّيلُ
٤٢٥	١٥	في المديح والهجو	في غاية صناعة الشعر

واما ما وقع فيهِ من سقوط نقطة او حركة ففي ظهور امرهِ غنى عن التنبيه اليهِ